طه حسين



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

مقدمة

هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين ، لأني لم أرد بها إلى العلم ، ولم أقصد بها إلى التاريخ . وإنما هي صور عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعاً . ثم لم أر بنشرها بأساً . ولعلي رأيت في نشرها شيئاً من الخير . فهي تردّ على الناس أطرافاً من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم . فليس يقرؤها منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم . وإنك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم .

إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم ، أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق ، يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ؛ ما يغريهم به ، ويرغبهم فيه ،

فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشد عسراً. وأين هذا القارىء الذى يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة، والأخبار التى يلتوى بها الاستطراد، وتجوز بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل، والذوق الهين الذى لا يكلف مشقة ولا عناء

ذلك إلى أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى كما هو ثابتاً مستقراً، لا يتغير ولا يتبدل؛ ولا يلتمس الناس لذته إلا فى نصوصه يقرأونها ويعيدون قراءتها، ويستظهرونها ويعنون فى استظهارها. إنما الأدب الخصب حقاً، هو الذى يلذك حين تقرؤه؛ لأنه يقدم إليك ما يرضى عقلك وشعورك؛ ولأنه يوحى إليك بما ليس فيه، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص. ويعيرك من خصبه خصباً، ومن ثروته ثروة، ومن قوته قوة. وينطقك كما أنطق القدماء، ولا يستقر فى قلبك حتى يتصور فى صورة قلبك، أو يصور قلبك فى صورته. وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم فى شكل جديد يلائم حياتهم التى يحيونها، وعواطفهم التى تثور فى قلوبهم، وخواطرهم التى تضطرب فى عقولهم.

هذا هو الأدب الحى . هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام . فأما ذلك الأدب الذى ينتهى أثره عند قراءته ؛ فقد تكون له قيمته ، وقد يكون له غناؤه ، ولكنه أدب موقوت ؛ يموت حين ينتهى العصر الذى نشأ فيه . ولو أنك نظرت فى آداب القدماء والمحدثين لرأيت منها طائفة لا يمكن أن توصف بأنها آداب عصر من العصور ، أو بيئة من البيئات ، أو جيل من الأجيال ، وإنما هى آداب العصور كلها ، والبيئات كلها ، والأجيال كلها . لا لأنها تعجب الناس على اختلاف العصور والبيئات والأجيال فحسب ؛ بل لأنها مع ذلك تلهم الناس وتوحى إليهم ، وتجعل منهم الشعراء والكتاب والمتصرفين فى ألوان الفن على اختلافها .

وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تقرأ فتحدث اللذة وتثير الإعجاب فى كل وقت ، وفى كل قطر ؛ بل هو يأتيها من هذا ، ومن أنها قد ألهمت وما زالت تلهم الكتاب والشعراء ، وتوحى إليهم بأروع ما أنشأ الناس من آيات البيان . ولقد كان ايسكولوس أبو التراجيديا اليونانية يقول إنه إنما يلتقط

ما يسقط من مائدة هوميروس ، وما زال القصاص وشعراء التمثيل والغناء فى الغرب خليقين أن يقولوا الآن ما كان يقوله ايسكولوس منذ خمسة وعشرين قرناً . ولم تكن قصص ايسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليونانى أقل خصباً من الإلياذة ؛ بل هى قد ألهمت من الكتاب والشعراء قديماً وحديثاً وما زالت قادرة على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى غد .

وإنى لأذكر أنى قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هى الثامنة والثلاثون من نوعها ، وقد سماها صاحبها « جيرودو » بهذا الرقم ؛ فوضع لها هذا العنوان « انفيتريون رقم ٣٨ » كانت أسطورة تتصل بمولد هيرقل فصورها سوفوكل قصة تمثيلية فى القرن الخامس قبل المسيح . وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والأوربيين المحدثين يتأثرونه ويذهبون مذهبه ، أو غير مذهبه فى تصوير هذا الموضوع ، حتى انتهت القصص التى كتبت فيه شعراً ونثراً إلى هذا العدد الضخم .

ولم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا إليه ؛ بل زادهم ذلك حرصاً عليه ، ورغبة فيه ، وكان

بين الذين طرقوه الشاعر اللاتيني بلوت والشاعر الفرنسى موليير . ثم لم يشفق جيرودو من أن يطرق موضوعاً سبق إليه الفحول من شعراء التمثيل فى العصور القديمة والحديثة ، فصور قصته هذه الثامنة والثلاثين وعرضها على النظارة فى باريس سنة ١٩٢٩ فكان فوزها عظيماً ، وإعجاب النظارة والقراء بها لا حد له .

وفى أدبنا العربى على قوته الخاصة ، وما يكفل للناس من لذة ومتاع ؛ قدرة على الوحى ، وقدرة على الالهام . فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ فى صورة بعينها ؛ وإنما قصها الرواة فى ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون فى صنوف من التأليف . وقل مثل ذلك فى السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء فى أكثر العصور الإسلامية ، وفى أكثر البلاد الإسلامية أيضاً ؛ فصوروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى . وقل مثل هذا فى الغزوات والفتوح ، وقل مثل هذا فى الفتن والمحن التى أصابت العرب فى عصورهم المختلفة ، ولم

يهف إلهام هذا التراث الأدبى العظيم عند الكتاب والشعراء الذين ينمقون النثر ، ويقرضون الشعر ، فى اللغة العربية الفصحى ؛ بل تجاوزهم إلى جماعة من القصاص الشعبيين الذين تحدثوا إلى الناس فى صور مختلفة ، وأشكال متباينة ؛ بما كان لآبائهم من مجد مؤثل ، وبما أصاب آباءهم من محن مظلمة ، وفتن مدلهمة . عرفوا كيف يثبتون لها ويصبرون عليها ، ويخرجون منها كراماً ظافرين . ولا خير فى حياة القدماء إذا لم تلهم المحدثين ولم توح إليهم بروائع البيان شعراً ونثراً ، وليس القدماء خالدين حقاً إذا لم يكن التماسهم إلا عند أنفسهم ، ولا تعرف أنباؤهم إلا فيما تركوا من الدواوين والأسفار . إنما يحيا القدماء حقاً ، ويخلدون حقاً ، إذا امتلأت بصورهم وأعمالهم قلوب الأجيال مهما يبعد بها الزمن ، وكانوا حديثاً للناس إذا لقى بعضهم بعضاً ، وكنوزاً يستثمرها الكتاب والشعراء ، لإحياء ما يعالجون من ألوان الشعر وفنون الكلام .

إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم ، ومن إحياء ذكر العرب الأولين ؛ قصدت حين أمليت فصول هذا

الـكتاب . ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسى ولا عن هذا الـكتاب ، فانى لم أفـكر فيه تفـكيرا ، ولا قدرته تقديرا ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه ، كما يتعمد المؤلفون ، إنما دفعت إلى ذلك دفعا ، وأكرهت عليه إكراها ، ورأيتنى أقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسى ، ويفيض بها قلبي ، وينطلق بها لسانى ، وإذا أنا أملى هذه الفصول ، وفصولا أخرى أرجو أن تنشر بعد حين .

فليس فى هذا الـكتاب إذاً تكلف ، ولا تصنع ، ولا محاولة للإجادة ، ولا اجتناب للتقصير . وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الـكتب التى لا أعدل بها كتباً أخرى مهما تكن ، والتى لا أمل قراءتها ، والأنس إليها والتى لا ينقضى حبي لهـا ، وإعجابى بها ، وحرصى على أن يقرأها الناس . ولـكن الناس مع الأسف لا يقرأونها لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون ، فاذا استطاع هذا الـكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربى القديم عامة ، والتماس المتاع

الفنى فى صحفها الخصبة ؛ فأنا سعيد حقاً ، موفق حقاً إلى أحب الأشياء إلىّ وآثرها عندى .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى ، ويلفتهم إلى أن فى سذاجتها ويسرها جمالا ؛ ليس أقل روعة ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذى يجدونه فى الحياة الحديثة المعقدة ؛ فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى ، واتخاذها موضوعاً قيما خصباً لا للإنتاج العلمى فى التاريخ والأدب الوصفى وحدهما ؛ بل للإنتاج فى الأدب الإنشائى الخالص ، فأنا سعيد موفق إلى بعض ما أريد .

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقى فى نفوس الشباب أن القديم لا ينبغى أن يهجر لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينبغى أن يطلب لأنه جديد ، وإنما يهجر القديم إذا برىء من النفع ، وخلا من الفائدة . فان كان نافعاً مفيداً فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد ، فأنا سعيد موفق الى بعض ما أريد .

وأنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب ؛ لأنهم محدثون يكبرون العقل ، ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه . وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يسيغها العقل ولا يرضاها ، وهم يشكون ويلحون فى الشكوى حين يَرَوْنَ كلف الشعب بهذه الأخبار ، وجده فى طلبها ، وحرصه على قراءتها ، والاستماع لها . وهم يجاهدون فى صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث ، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشىء ؛ لأنهم سيقرأون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التى نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شىء ، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضى من العقل ، وأن هـذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى ، فان فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة ، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، ما يحبب إليهم هـذه

الأخبار ويرغبهم فيها ، ويدفعهم الى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة . وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم ، وتستقيم لها مناهج البحث ؛ ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على إنفاق الوقت ، واحتمال أثقال الحياة ، وتكاليف العيش .

وأحب أن يعلم الناس أيضاً أنى وسعت على نفسى فى القصص ، ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً ، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي ، أو بنحو من أنحاء الدين . فانى لم أبح لنفسى فى ذلك حرية ولا سعة ، إنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين .

ولن يتعب الذين يريدون أن يردوا فصول هذا الكتاب القديم فى جوهره وأصله ، الجديد فى صورته وشكله ؛ إلى مصادره القديمة التى أخذ منها . فهذه المصادر قليلة جداً : لا تكاد تتجاوز سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ

الطبرى ، وليس فى هذا الكتاب فصل أو نبأ أو حديث إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار ورد فى كتاب من هذه الكتب ، فاذا اتصل الخبر بشخص النبي فانى أرده إلى مصدره ليستطيع من شاء أن يرجع إليه . لا أحتمل فى ذلك تبعة خاصة ؛ لأنى لا أذهب فيه مذهباً خاصاً إلا أن يكون تبسطاً فى الشرح والتفسير ، واستنباط العبرة والوصول بها إلى قلوب الناس .

فلييسر الله سبيل هذا الكتاب إلى النفوس ، وليحسن الله موقعه فى القلوب .

طه حسين

ديسمبر سنة ١٩٣٣

١

حفر زمزم

كان عبد المطلب سمح الطبع ، رضيّ النفس ، سخيّ اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث . وكان عبد المطلب أيضاً قوى الإيمان ، تملك قلبه وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيرا . أبوه من مكة حيث التجارة والثروة ، وحيث المكر والدهاء ، وحيث الوثنية السهلة التى لا تحرّج فيها ولا مشقة . وأمه من يثرب حيث الزراعة والصناعة اليسيرة ، وحيث اليهودية تجاور الوثنية فتضعفها ، وتنقص من ظلها وتكاد تمحوها ، وحيث الأخلاق اللينة والشمائل الحلوة ، وحيث الظرف ونعومة الحياة .

ولد فى يثرب ، ومات عنه أبوه فلم ينقله إلى مكة ، فنشأ بين أخواله وتأثر بحياتهم وتخلق بأخلاقهم وسار سيرتهم ، حتى بلغ الشباب أو كاد . ثم أقبل عمه فانتزعه من إقليمه السهل الهين ؛ إلى إقليم آخر صعب عسير ، تجدب فيه الأرض ولا تبتسم له السماء إلا قليلا . يرحل أهله إلى الآفاق ، و يفد على أهله الناس من جميع الآفاق . فهم يأخذون من الناس و يعطونهم ، و يبادلونهم الأخلاق والشمائل كما يبادلونهم المنافع وعروض التجارة . ولعل أخلاق يثرب وخصال مكة قد اختصمت فى نفس هذا الغلام ، ولعل اختصامها قد طال ،

ولعل اختصامها قد قصر ، ولكنها على كل حال قد انتهت إلى شيء من الاعتدال آخر الأمر . فلم يكتمل الفتى شبابه حتى كان فتى من قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتيان قريش : فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة فى الدين قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها . على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التميز ، فلم يكن يصدر فى حياته ، كما كانوا يصدرون ، عن الروية والتفكير وطول التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل والاضطراب فى الحياة ؛ قوة خفية يحسها و يأبى عليها و يغلو فى الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها و يصدع بأمرها . وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها فى أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافا . وتتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخايل ، بيّن الصورة ، يلم به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمر . وتنتهى إليه مرة ثالثة صوتاً رفيقاً ، ولكنه ملحّ يملأ أذنيه يقظان ، و يملأ أذنيه نائماً ، يحثه على أن يأتى كذا وكذا من الأمر . وكان فى هذا الصوت غموض ، وكان فى هذا الصوت إبهام ، وكان فى هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام . وكان الفتى ينكره و يرتاع له ، وكان الصوت يغمره و يلح عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت و يهواه ، وكان الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه ، و يلم به فيكثر الإلمام . ولم يكن هذا الصوت يقع فى أذن الفتى بألفاظ كالتى تقع فى آذان الناس ،

إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة غريبة الجَرْس غريبة المعنى .

كانت إليه رِفادة الحاج وسقايته بعد عمه المطلب ، فكان يطعم الناس إذا حجوا البيت ويسقيهم ، يجمع لهم الماء فى أحواض من الأَدَم . وكان يجد فى جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهداً وعسرا . فبينا هو نائم ذات يوم أو ذات ليلة ، أتاه آت رأى شخصه ولم يتبين له سمة ولا شكلا ، وقال له فى صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « احفر طيبة » . قال : وما طيبة ؟ فانصرف الشخص ، وانقطع الصوت ، وأفاق الفتى وفى نفسه ذعر وعجب وأمل . وحاول أن يعود إلى النوم ، لعله يرى هذا الشخص ، أو يسمع هذا الصوت ، أو يتبين هذا الحديث ، ولكن النوم كان قد خاصم عينيه ، وانصرف عنه مع هذا الشخص الغريب . ففكر وأطال التفكير ، وقدّر وأطال التقدير ، وتقلب فى مضجعه فأكثر التقلب ، حتى ضاق بالنوم واليقظة وسئم مضجعه ، فجلس يرقى ببصره الحائر إلى السماء ، لعل شمس النهار أو نجوم الليل تفسر له هذه الرؤيا ، ويخفض بصره إلى الأرض ، لعله يجد فى إطراقه تفسير هذه الرؤيا ، ويمد بصره نحو الكعبة ، لعل صنما من هذه الأصنام المنصوبة يوحى إليه تعبير هذه الرؤيا . ولكن السماء صامتة ، والأرض ساكنة ، وعلى أصنام الكعبة شىء كأنه الوجوم ، فيرتد إلى الفتى بصره متعباً مكدودا ، وتهوى نفسه إلى قرارة ضميره ، لعلها تجد لهذا الرمز تأويلا ، فلا تجد شيئا ، فيشتد بها الذعر ، ويزداد فيها العجب ، ويبقى لها الأمل . وينهض الفتى فيضطرب مع الناس فيما يضطربون فيه من أمور الحياة .

ثم يقبل الليل ويأوى الفتى إلى مضجعه، وقد أنسى كل شىء، إلا أنه قد مشى كثيراً، وأجهد نفسه كثيرا، وأنه أشد ما يكون حاجة إلى أن يبسط عليه النوم جناحيه . هاهو ذا مغرق فى نوم هادئ مطمئن، قد هدأ من حوله كل شىء، واطمأن فى نفسه وجسمه كل شىء . ولكن ما هذا الشخص الغريب يقبل إليه ساعياً إليه فى أناة، حتى إذا دنا منه، قال له فى صوت رفيق غريب، فيه أنس وفيه وحشة : « أحفر بَرَّة » . وجسم الفتى هادئ مطمئن، ولكن نفسه ثائرة مضطربة، ولسانه يتحرك فى ثقل، وصوته ينبعث من بين شفتيه خفيفاً رقيقاً بهذه الكلمة : « وما برة ؟ » فينصرف الشخص وينقطع الصوت، ويفيق النائم وجلاً مذعوراً، معجَباً آملا، ويفكر ويقدّر ويتقلب . ثم ينهض فيسأل السماء ولكنها صامتة ! ويسأل الأرض ولكنها ساكنة ! ويسأل أصنام الكعبة ولكنها مغرقة فى البله والوجوم ! ويضيق الفتى بنفسه وبالسماء والأرض والأصنام ؛ فيهيم على وجهه يلتمس فى الحركة والاضطراب نسيان هذا الطائف الذى يفزعه ويغريه . ثم يعمل الناس فى أمور الحياة، وينقضى النهار بخيره وشره، وحلوه ومُرّه، ويقبل الليل شيئاً فشيئاً، فيبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام، وما يزال يمد فى هذه الأردية حتى يغمر كل شىء، ويستر كل شىء، لولا هذه المصابيح الضئيلة التى تشب فى الأرض، وهذه النجوم القليلة التى تضطرب فى السماء . وقد سمر الفتى مع السامرين، فسمع أحاديث التجار عن غرائب الأقطار : هذا يحدّث عن صور بُصْرَى وعظمتها، وهذا يحدّث عن الخَوَرْنَق والسَّدِير، وهذا يذكر

غُمدان ، وهذا يصف أخلاق اليمانيين ومكرهم بالتجار ، وهذا يتحدث عن سذاجة أهل الشام وانخداعهم لغربان العرب ، وهذا يذكر ما أفاد من ربح حين باع الأَدَم فى الحبشة ، وهذا يذكر للقوم ما حمل لهم من خمر بيسان . وهم فى أثناء هذا كله يتندّرون على العجم والأعراب ، ويتفكهون بأحاديث أولئك وهؤلاء ، ويسخرون من أولئك وهؤلاء . حتى إذا تقدم الليل واطمأن كل شيء تفرقوا ، ونهض الفتى ثقيلاً ، فمشى إلى بيته متباطئاً يود لو فرّ من النوم ، ويود مع ذلك لو نام فألم به هذا الطيف . أنظر إليه ! إنه ليتردد : أيقذف بنفسه فى أمواج النوم هذه التى تمثل أمام عينه ! أم يبقى على الشاطئ يقظان يداعبه النوم ولا ينام . ليتردد ما استطاع ، ليمتنع على النوم ما وسعه الامتناع ، فإن هذه الأمواج المصطخبة أمامه ؛ تستطيع أن تطغى على الشاطئ فتغمره ، وتغمر معه كل شيء . وكيف يستطيع هذا الفتى أن يمتنع عليها ، وما استطاعت أن تمتنع عليها جبال مكة هذه التى تحيط بها من كل ناحية ! أنظر ! أترى حركة ؟ أسمع ! أتحس نبأة ؟ كل شيء هادئ ! كل شيء مطمئن ! فما نبوّك وما امتناعك ! هلم إلى النوم لا تخف شيئاً ! إن هذه الأمواج تريح ولا تغرق . أقبل إلى هاتين الذراعين اللتين تمتدان إليك ؛ فستنسى بينهما كل شيء . ومن يدرى ؟ لعلك تجد بينهما شفاء لنفسك الحائرة ! وأطبق الفتى جفنيه واندفع أمامه ، فاشتملت عليه أمواج النوم كما اشتملت على غيره من الناس والأشياء . ولكن ما ذا ؟ هذا شخص يتقدم ساعياً هادئاً ، كأنه يمشى على الهواء ، حتى إذا دنا يمشى من الفتى قال فى صوت

رفيق غريب ، فيه آنس وفيه وحشة : « أحفر المضنونة » . جسم الفتى هادئ ، ولكن صورة من الحيرة قد ارتسمت على جبهته ، وهذا صوت خفيف رقيق ينبعث بين شفتيه وهو يقول : ما المضنونة ؟ فينصرف الشخص ويفيق الفتى مذعوراً مأخوذا ، قد أظلم فى نفسه كل شىء ، وأحاط اليأس بعقله وقلبه وضميره . لا يرتفع بصره إلى السماء ، ولا ينخفض إلى الأرض ، ولا يمتد إلى أصنام الكعبة ، ولكنه يدور حائرا . وينهض الفتى وهو يقول : ما أرى إلا أنى سأجن ! لئن أصبحتُ لآتينّ الكاهن ، فلعلِّى أجد عنده من هذا العارض شفاء :

أقبل أيها الصبح ! أسرع فى الخطو ، أرفق بهذه النفس الحائرة ! هلم إلى سوطك المشرق المضىء ، فبدّد به هذه الأشخاص الماثلة ، فرّق به هذه الظلال المضطربة من حولى . ويقضى الفتى ليلاً طويلاً ثقيلا ، حتى إذا كست الشمس بضوئها النقى ظواهر مكة و بطاحها ، أسرع الفتى إلى المسجد ، يريد أن يقص أمره على الكاهن . ولكنه لا يكاد يبلغ مجالس قريش فى فناء المسجد ؛ حتى تذهب عنه حيرته ، ويفارقه وجومه ، ويمتلئ قلبه اطمئناناً وثباتا . ماذا ؟ أأزعم للكاهن أنى مجنون ! وتشيع فىّ هذه المقالة ، ويضحك منى حرب بن أمية ولِداته ، ويتندّر على فتيان مخزوم ؟ كلا ! ما أكثر هذه الخيالات التى تسكن إلى نفسها فى قبور الموتى ! وتختبئ فى الكهوف والأغوار ما أضاءت الشمس واستيقظت الطبيعة ، فإذا أظلم الليل ونام الكون ، انتشرت هذه الخيالات فى الجو ، فمنها ما يصعد فى السماء يرعى

النجوم ، ومنها ما يهبط إلى الأرض يروّع الناس . وما أرى أن هذا الطائف الذى يؤرّقنى منذ ثلاث إلا خيالاً من هذه الخيالات ، لعله ظِل ميت من موتى قريش قد أنسيه قومه ، فهم لا يزورونه ولا يقربون إليه لعله شيطان من هذه الشياطين التى تلح على الإنس فتتقاضاهم الطاعة وتخضعهم لسلطانها كرها . لعله نذير من أحد الآلهة يطالب بالضحية والقربان . لقد مضت أيام ولم تقدم إلى الآلهة شاة ولم ينحر لهم جزور ، ولم تصطبغ أرض المسجد بهذا الدم الحار القانئ الذى تحب الآلهة لونه ورائحته . إيه يا عبد المطلب ! تقرب إلى الآلهة بضحية ترضيهم لعلهم يرضون ، ولعلهم يكفّون عنك هذا الشر ! وأقبل الفتى على مجلس من مجالس قريش ، فتحدّث وسمع ، ولكنه كان شارد النفس ، فلم يُطل الحديث ولا الاستماع ، ونهض مولّيا . فلما انصرف عن القوم قال حرب بن أمية لمن حوله : أرأيتم إلى سرىّ بنى هاشم ! إنى لأراه محزونا ، وإنى لأعرف فى وجهه الهم ، لم يحدثنا اليوم عن مآثر أبيه ومفاخر عمه .

ومضى الفتى إلى أهله . فلما دخل على امرأته أنكرت عودته إليها من الضحى ، فاستقبلته دهِشة وهى تقول : إيه يا شيبة ؟ ما خطبك ؟ إنى لأنكرك منذ أيام ، أراك مؤرق الليل ، قلق النهار ، قليل الحديث ، طويل التفكير . ولقد هممت أن أسألك مرات ، ولكنى خشيت ردّك علىّ ، وانتهارك لى . فإنى لأعلم فيكم معشر قريش رقة للنساء ، ودعابة معهن ، ولكنى لا أجد عندك ما أجد عند قومك ، فأنت صامت إذا خلوت إلى أهلك ، وأنت مقطّب

الجبين إن أظلك معهم سقف . تحدّث ! ما يحزنك ؟ اخرج عن هذا الصمت الذى لزمته ، كن رجلاً من قريش ، أشرك أهلك فيما يعنيك . لقد أذكر يوم أنبأنى أبى أنك خطبتنى إليه ، لقد فرحت بهذا النبأ ، لقد كنت أتحدث إلى أترابى فى البادية بأنى سأصبح امرأة من قريش ، أجد من نَعْمة الحياة ولينها ، ومن ظَرْف الزوج ورقته مالا يجدن تحت خيام بنى عامر بن صعصعة ، ولكنى وجدت نعمة ولينا ، ووجدت حبًّا وعطفا ، ووجدت عناية لا تعدلها عناية ، ولم أجد أحب ما كنت أطمح إليه : لم أجد منك ابتسام الثغر ، ولا انبساط الجبين ، ولا انطلاق اللسان . قالت ذلك وانتظرت هنيهة . فأجابها زوجها بصوت هادئ حزين : عزيز علىّ يا سمراء ما تجدين من حزن ، وما تحسين من خيبة أمل . إنى لأحبك كما يحب الظمآن ما ينقع غلته من الماء العذب . إنى لآنس إليك أنساً يزيل عن نفسى كل همّ ، ويحبب إلىّ الحياة ويرغبنى فيها . إنى لأشتاق إلى التحدث إليك والاستماع لك والأنس بك ، ولو خيّرت لما عدلت بمجلسك مجلس قريش ، ولا بيتك فناء المسجد ودار الندوة ، ولكن قوة خفية عاتية طاغية تملك علىّ نفسى ، وتأخذ علىّ كل سبيل وتدفعنى إلى حيث لا أدرى ولا أريد . إيه يا سمراء . . ! إنى لمؤرق الليل ، قلق النهار ، مفرّق النفس منذ ليال ، وإنى لأخشى على نفسى شرّا . هذا طائف يلمّ بى إذا أغرقت فى النوم ، فيأمرنى بصوت رقيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : أن أحفر شيئاً يسميه طيبة ، ويسميه برة ، ويسميه المضنونة . فاذا سألته عما يريد ، انصرف شخصه ، وانقطع صوته ، وأفقت حائراً مذعورا .

لقد هممت ياسمراء أن أقص رؤياى هذه على الكاهن ، وأن أصف له ما أرى وما أجد ، ولكنى أشفقت أن يتحدث الناس عنى أنى مجنون ، أو أن يتندّر بى فتيان قريش فيقولوا : إن له رَئِيًّا من الجن . أتشيرى ما ذا تَرين ؟ قالت سمراء : هَوِّن عليك ولا تغل فى الخوف ولا تسرف فى الإشفاق ، ما أكثر ما يلم أمثال هذا الطيف بالناس عندنا فى البادية ، فلا يحفلون ولا يأبهون . ومع ذلك فما يمنعك أن تتقرب أنت إلى الآلهة فى غير توسط الكاهن ولا توسل به ! قم فضحّ لهم وقرّب إليهم فسيرضون ، وسيرضى الفقراء والجائعون ، وسيغيظ ذلك قوماً من قريش .

وما هى إلا ساعات حتى كان فناء المسجد يموج بالناس ، فيهم الفقراء قد أقبلوا من البطاح والظواهر ، وفيهم الأغنياء قد أقبلوا يقدّمون الضحايا بين أيديهم . هؤلاء يتنافسون أيهم يغلى الضحايا ويكثر منها ، وأولئك ينتظرون ويمنّون أنفسهم بغريض اللحم وجيده . لقد سمعوا أن عبد المطلب يريد أن يضحّى ، وأن بنى هاشم قد حفلت لذلك ، فكرهت أمية ألا تفعل فعلهم ، وكرهت مخزوم أن تسبقها عبد مناف . فأقبل أشراف قريش يستبقون فى التضحية ويتنافسون فى القربان ! تنافسوا ! تنافسوا أيها الأشراف ! استبقوا أيها الأغنياء ! فان فى ذلك شبع الفقراء وسعادة الأشقياء .

وقضت مكة يوماً دامياً سمينا ، كثر فيه الطعام ، وكثر فيه الشراب ، ورضيت فيه الأصنام . وسعد الفتى بما رأى ، ونسى الفتى ما كان يهمه وينغصه . وقدر الفتى أن قد صُرف عنه الشر ، ورُدّ عنه المكروه . ورضيت

سمراء ، فتحدثت كثيراً وسمعت كثيراً ، وأضحكت زوجها وابنها الحارث بمُلَح الأعراب ونوادر البادية . وقالت لزوجها وهى تمسح رأسه : أحبب إلىَّ بهذا الطائف الذى أرّقك وأضناك ! فقد حقق أملى وأرانى ما كنت أطمح إليه ، ورسم فى قلبى صورتك جميلة خلابة ، فلن أراك منذ اليوم — مهما تكن الخطوب — إلا باسم الثغر ، منبسط الجبين ، منطلق اللسان . وهل السعادة إلا لحظات قصار ، تصيبنا ولم ننتظرها ولم نقدّر لها حسابا ! فما أسعد القلب الذى يحتفظ بهذه اللحظات حين تمر ، ويتخذها ذخراً للأيام وما يعرض فيها من الخطوب . قال عبد المطلب : إذًا فأنت راضية يا سمراء . إن رضاك ليقع من نفسى المحزونة موقع الماء من الأرض المجدبة . إنعمى بما أنت فيه ، وانتظرى أن يقدّر الله لك خيراً منه . فلو قد صُرفت عنى هذه القوة العاتية الطاغية ؛ لأريتك يا سمراء كيف تطيب الحياة ، وكيف ترقّ حواشى العيش .

وأوى الفتى إلى مضجعه راضياً مسرورا ، واستقبل النوم مبتهجاً له راغباً فيه . ولكن هذا الشخص يقدم عليه ساعياً فى هدوء ، كأنما يمشى فى الهواء ، حتى إذا دنا منه انحنى عليه ، ووضع على جبهته يداً باردة خفيفة ، وقال فى صوت رفيق غريب ، فيه أنس وفيه وحشة : « أحفر زمزم » . واضطرب جسم الفتى كله واضطربت نفس الفتى كلها ، وانفتحت شفتاه عن هذه الكلمة : وما زمزم ؟ قال الطيف بصوت رفيق مؤنس ، قد فارقته الغرابة والوحشة ، ومازجته سخرية ورحمة : « لا تُنْزَحَ ولا تُذَمّ ، تسقى

الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عنــد نقرة الغراب الأعصم » .
قال الفتى : « الآن قد وعيت » . فتولى عنه الطيف باسماً وهو يقول : « الله
أنتم أيها الناس لا يكفيكم الوحى ، ولا تفقهون إلا سجع الــكهان . رويداً !
عما قريب سيضىء الصبح » . ونهض الفتى مبتهجاً مسرورا . فلما أصبح
دخل على سمراء مشرق الوجه مضىء الأسارير . قالت وهى تسعى إليه : أيهما
أحب إلى نفسى إشراق وجهك أم إشراق الشمس ! ما أرى إلا أنك قضيت
ليلاً هادئا . قال : أنعمى صباحاً يا سمراء ، لقد طابت الحياة منذ اليوم ، إن
هذا الطائف الذى يلم بى منذ ليال ، طائف خير يأتى بالنعمة والغيث ، إنه
يأمرنى أن أحتفر فى فناء المسجد بئراً ، فلأَفعلَن منذ اليوم ، ولئن ظفرت بها
ليشربن الحجيج فى غير جهد ولا عسر . هلم ياحارث ، خذ مِعْوَلاً [(١)]
ومِكتَلاً [(٢)] ومسحاةً [(٣)] واتبع أباك .

---

(١) المعول : الفأس العظيمة .
(٢) والمــكتل : زنبيل من خوص .
(٣) والمسحاة : المجرفة التى يجرف بها التراب والطين من على وجه الأرض .



التحكيم

لَاهُمَّ قد لبَّيتُ مَنْ دَعانى وجئت سعْىَ المسرع العَجْلانِ
ثبْتَ اليقين صادقَ الإيمان يتبعنى الحارث غير وان
جذلان لم يحفِل بما يعانى لَاهُمَّ فلتصدُق لنا الأمانى
مالى بما لم ترضَه يدان

كان صوت عبد المطلب يندفع بهذا الرجز عريضاً يملأ الفضاء من حوله ، نقيًّا يكاد يبعث الحنان فيما يحيط به من الأشياء . وكان كل شىء مستقراً لا يضطرب فيه إلا هذا الصوت العريض النقى ، وإلا هذه الذراع التى ترتفع بالمعول قوية ، ثم تهوى بها محتفرة ، ثم تدعه إلى المسحاة فتغرف بها التراب فى المكتل ، وإلا هذا الغلام الناشئ يرقب حركة أبيه ، ويسمع صوته ويرد عليه رجعَ هذا الصوت كلما وصل فى الدعاء إلى هذا البيت :

لَاهُمَّ فلتصدُق لنا الأمانى

حتى إذا امتلأ المكتل حمله بذراعيه الضعيفتين ، وأسرع فى شىء من الجهد إلى خارج المسجد ، فألقى ما فيه ثم عاد ، وأبوه يرفع المعول فى الجو ، ويهبط به إلى الأرض ، ويملأ فضاء البيت بصوته النقى العريض ، والعرق يتصبب على جبينه ، ولكنه لا يحس جهداً ولا يجد إعياء . وكانت الشمس قد ألقت

على الأرض رداء من النور نقيًّا ولـكنه ثقيل همد له كل شيء ، وأوى له الناس إلى بيوتهم يقيلون ، وانقطعت له الحركة ، وخفتت الأصوات إلا هذه الجنادب التي يروقها وهج الشمس ، ويسكرها لهب القيظ ؛ فتصدح بالغناء إذا سكت كل شيء . وقد أخذ الغلام يحس لذع الجوع ، وحر الظمأ ولـكنه لا يقول شيئاً ؛ بل لا يكاد يفكر في شيء ، إنما سمعه وقلبه لصوت أبيه ، وعيناه للمكتل والتراب ، ونشاطه لإفراغ المكتل إذا امتلأ . وهما في ذلك ، إذا غلام يسعى قد أرسلته سمراء ، يحمل إلى الرجل والغلام شيئاً من طعام وشراب ، حتى إذا انتهى إليهما وضع ثقله وقال : مولاي . هذا غداؤك وغداء الصبي ، قد أعدّته سيدتي العامرية ، هيأته بيدها وهي تعزم عليك لتصيبن منه ، ولترفقن بنفسك ، ولترفقن على هذا الصبي الحدَث ! لقد قال الناس جميعاً ، وهدأ كل شيء لهذا الوهج الذي يصهر الأبدان ويحرق الجلود ، وأنت فيما أنت فيه من جد يضني ، وجهد يهلك ، لا تقيل ولا تستريح ، ولا تريح هذا الطفل الذي لم يتعوّد الجهد والعناء . بعض هذا يبلغك ما تريد . ولـكن عبد المطلب لم يسمع للغلام إلا بأذن معرضة ، ولم يستقبله إلا بوجه مشيح . إنما هو ماض في رجزه واضطراب يده بالمعول ارتفاعاً في الجو وهبوطاً إلى الأرض ، والصبي يتبعه بسمعه وقلبه ، ولـكن عينه ربما اختلست نظرة قصيرة ملؤها الجوع والظمأ والنهم إلى هذه السلّة وما فيها . وربما وقف ذهنه الصغير عن متابعة أبيه ، وانصرف إلى ما في هذه السلة يعدده ويحصيه ويتمثله : إن فيها لشواء غريضاً ، وإن فيها للبناً يمازجه عسل هُذَيل الذي

حمله خاله فيما حمل من هدايا البادية حين أقبل يزور أخته منذ أيام ، وإن فيها الماء عذباً . ومن يدرى ! لعل سمراء قد نقعت فيه شيئاً من زبيب الطائف ، فإنها تجيد ذلك وتحسنه . وعبد المطلب ماض فى رجزه وفى حركة يديه بالمعول والمسحاة ، وقد امتلأ المكتل فيهمّ الصبى أن يحمله ليلقى ما فيه ويدنو الغلام يريد أن يعينه فى ذلك . ولكن عبد المطلب ينهره نهراً عنيفاً : « إليك يا غلام ! فما لهذا الأمر إلا عبد المطلب وابنه » .

ويمضى الصبى بالمكتل ويعود ، ولكن الرجز قد انقطع ، وذراع عبد المطلب لا تضطرب بالمعول صعوداً وهبوطا ، وإنما هو مطرق إلى الحفرة ينظر فيها فيطيل النظر ، ثم يرفع بصره إلى السماء فيطيل رفعه ، ثم يدير عينه من حوله كأنه يريد أن يلتمس شيئاً ، أو أن يلتمس أحدا ، ثم يدعو ابنه فى صوت ملؤه الدهش والحيرة والرضا والاشفاق : هلم يا حار انظر ! أترى ماء ؟

— كلا يا أبت ! وإنما أرى ذهباً وسلاحا .

— ومع ذلك فلم أوعد بذهب ولا سلاح ، وإنما وعدت بالماء لسقى الحجيج . إن وراء هذا الأمر لسرّا . ولكن هلم يا بُنىّ ، فما أرى إلا أن الظمأ والجوع قد أجهداك .

وأقبل الرجل وابنه على السلّة فأصابا مما فيها ذاهلين واجمين ، ما أحسب أنهما وجدا لما يصيبان طعماً وأحسّا له ذوقا ، يصرفهما عنه هذا الذهب الذى يتوهّج فى الحفرة ، وهذا السلاح الذى يظهر أنه كثير ثقيل . حتى إذا فرغا من طعامهما عاد عبد المطلب إلى الحفرة فيستخرج ما فيها ، فاذا غزالان من

ذهب نقي ثقيل ، و إذا سيوف ودروع . فيكبّر و يرفع صوته بالتكبير ، و يسرع إليه أفراد قليلون كانوا قد بدءوا يفدون إلى المسجد ، كدأب قريش حين كانت تخف وطأة القيظ ، فإذا رأوا هذا الكنز دهشوا ، ثم تصايحوا ، ثم يفيض الخبر فيتجاوز المسجد ، و إذا شباب قريش وشيوخها يقبلون سراعاً مزدحمين ، يسرع ببعضهم حب الاستطلاع ، و يسرع ببعضهم الآخر الطمع فى الغنيمة ، و يسرع بفريق منهم باعث دينى غامض ، فيه خوف وفيه رجاء ، وفيه إكبار للآلهة ، وتوقّع للمعجزة الخارقة . حتى إذا توافوا جميعاً واستوثقوا من أن عبد المطلب قد وجد كنزاً ، وعرفوا حقيقة هذا الكنز ، وقوّموا ذهبه الخالص وصناعته البارعة وما فيه من سيوف ودروع أداروا أمرهم بينهم : لمن يكون الكنز ؟ قال هشام بن المغيرة : إنما هو لقريش ، فقد وجد فى المسجد وكل ما وجد داخل الحرم فى أرض عامة فهو لقريش . وقال حرب بن أمية : إنما هو لبنى عبد مناف خاصة ، فهم الذين احتفروا وهم الذين ظفروا ، وما ينبغى لقريش أن تغلبنا على خير ساقته إلينا الآلهة . وتنازع القوم وطال النزاع ، واختصم القوم واشتدت الخصومة ، وعبد المطلب صامت مطرق لا ينطق بكلمة ولا يأتى بحركة . هنالك صاح به حرب : مالك لا تقول وأنت الذى وجد الكنز ، وأنت أحقنا بأن ترى رأيك فيه ! قال عبد المطلب فى هدوء وأناة : ما ينبغى أن يكون الكنز لأحد حتى نستشير الآلهة ، فما حفرت ولا ظفرت إلا بأمر خفىّ ، وما أرى إلا أن للآلهة فى ذلك إرادة وقدراً لا نبلغهما حتى نسأل الكهان . هنالك وجمت قريش ، وغضب بنو عبد مناف ، وأنكروا جميعاً فى أنفسهم أن يشرك

عبد المطلب معهم الآلهة فى هذا الكنز الدفين . ولكنهم لم يقولوا شيئاً ، وما كان لهم أن يقولوا شيئاً ! ومن الذى يستطيع أن يرد قضاء الآلهة ! حمل الكنز إذاً إلى الكعبة ، وأقبل القوم إلى الكاهن يسألونه أن يضرب بالقداح . وها هو ذا يضرب بقداحه ؛ ثم يضرب ؛ ثم يضرب بين قريش والكعبة ، فتخرج القداح للكعبة ثلاثا ، فيصيح عبد المطلب : لقد ظهر قضاء الله ، فليكن ما أراد ! تفرقوا يا معشر قريش ... تفرقوا يا بنى عبد مناف ، فليس لأحد منكم فى هذا الكنز نصيب . أما هذا الذهب فسيضرب صفائح على باب الكعبة ، وأما هذه السيوف فستعلق عليها . وأما هذه الدروع فستدّخر فى خزائنها . ثم التفت إلى ابنه وقال : هلم يا حارث ، اتبعنى لنمضى فيما كنا فيه . وتفرقت قريش وفى صدورها غل وحنق . ولكن ثلاثة نفر من أهل الظواهر انتحوا ناحيـة ، وأقاموا يرددون الطرف بين الكنز والكعبة وعبد المطلب . ثم انصرفوا وقد فهم بعضهم بعضاً . وأصبح الناس ذات يوم ، وإذا بالكعبة قد جردت مما علق عليها من ذهب وسلاح .

وراح عبد المطلب مع المساء إلى أهله محزوناً مكدوداً ، راضياً مع ذلك ، لم يفارق قلبه الأمل . فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع إليه ولم تبتسم له . ولكنها لم تعرض عنه ولم تتجهم له . فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت ، وألح فى السؤال . قالت : وبم تريد أن أبتهج ؟ ولمَ تريد أن أبتسم ؟ لقد علمت منـذ زفّنى أبى إليك أنى قد تزوجت رجلاً لا كالرجال . لقد أحببتك ولكنى أنكرتك . لقد أمّلت فيك ويئست منك . ثم عاد إلىّ الأمل

أول أمس . ثم ها أنت ذا ترد إليّ اليأس مظلماً حالكاً قبيح الوجه ، بشع المنظر كأنه الغول . ماذا ! ؟ يلم بك الطائف أربع ليال يهيب بك ويلح عليك رامزاً حيناً مصرحاً حيناً مصراً دائماً . إذا أذعنت لأمره وانتهيت إلى ما سبق إليك من خير ، وادخر لك فى الأرض من غنى ؛ زهدت فيه وانصرفت عنه ، وأشفقت أن تسلمه إلى قريش أو إلى عبد مناف ، فيقال : ألقى بيده ونزل عن غنيمته . فصرفت ذلك عنك وعنهم إلى هذه البَنِية[1] تحلّيها بالذهب وتعزّها بالسلاح ! وماذا تصنع الأحجار القائمة بذهبك وسلاحك ! ؟ لله أنتم يا معشر قريش ! إنكم لتكبرون من هذا البناء المنصوب ما لا نكبر نحن فى البادية . ولولا حاجاتنا ومنافعنا لما هبطنا إلى بطاحكم حاجّين ولا معتمرين ، ولكنكم قوم ضعاف تكبرون ما لا يكبر ، ويغركم أن أفئدة الناس تهوى إليكم ، تحسبونهم يقبلون إليكم بالدين وينصرفون عنكم بالطاعة ، وإنما يقبلون عليكم بما عندهم من عروض ، وينصرفون عنكم بما تحملون لهم من الآفاق . هلاّ طاولت قريشاً وانتظرت بهذا الكنز حتى تروح إليّ ! لقد كان فيه غنى لك ولهذا الصبى الذى تعنّيه وتضنيه منذ ألمّ بك ذلك الطائف . هلاّ تريثت أو اصطنعت الأناة ! إذاً لاحتويت الكنز ولأصبحت أغنى قريش وأكثرهم مالاً ، ولما استطاع بنو عبد شمس أن يكاثروك بما يملأ خزائنها من الدراهم والدنانير . إذاً لأقبلت إليك بنو عامر بقوّتها وبأسها فأعزتك ومنعتك من قريش . ولكنك أشفقت وملأ قلبك

---

(١) البنية : الكعبة .

الفَرَق وعبِثت بنفسك بقية من كبرياء ، فأقررت نفسك وقضيت على ابنك هذا أن يكون دون بنى حرب ثروة ومالاً . قال عبد المطلب محزونا : هوِّنى عليك يا سمراء وأقلى اللوم ، فما أرى أنك تفقهين مما ترين شيئاً . لا أحب لوجهك هذا النضر أن تعلوه غبرة الحرص على المال . وما أحب لصوتك هذا العذب أن تشوبه مرارة الحديث عن المال . وما أرضى لك وإن نسلتك أشراف بنى عامر أن تغضّى من أمر قريش . إن فيكم أهل البادية لطباعاً غلاظاً ونفوساً يملؤها الطمع . أنتم لا تحسّون الدين ولا تقدرون الغيب ، ولا تؤمنون إلا بما ترون ، ولا تخافون إلا القوة الظاهرة . لقد كنت أحسب أن مُقامك الطويل بمكة قد غيّر نفسك بعض الشيء ، فإذا أنت اليوم كما كنت يوم انحدرت من بادية نجد إلى هذه البطحاء . هوّنى عليك ولا تشغلى نفسك بما لست منه فى قليل ولا كثير . لقد أمرنى الطائف أن أحتفر ، ووعدنى أن أجد الماء لأسقى الحجيج لا أن أجد الذهب لأغنيك وأدخل الخصب على بنى عامر ؛ فليس هذا الذهب لى ولا لقريش ، وإنما مخبوء لأمر يراد . وإنى لمن قوم لا يحبون الغصب ولا يستأثرون بما ليس لهم ، ولا يمنعون الحقوق ، فإن تكن غلظة الأعراب وجفوة البادية وجحودها قد شاقتك ؛ فزُمّى رحالك غداً والِمّى بأهلك فهم أحق بك وأدنى إليك . قال ذلك ونهض مغضباً ، وتركها واجمة بهذا الحديث العنيف ؛ تقاوم غيظاً لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ تحدّرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام .

وارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد وفاض من حوله ، وحتى اضطربت له مجالس قريش فى فناء البيت ، فخفّ الناس إليه وهم يقولون : ما نرى ابن هاشم هذا إلا مطروقاً يلقى من الجن شططاً ، ويريد أن نلقى منه شططا ! أقبلوا إليه سراعاً يزدحمون ، وقد آلى أشرافهم لئن وجدوه قد ظفر بكنز ، أو عثر على غنيمة ليغلبُنّه عليها ، ولَيُعْطُنّه منها نصيب رجل من قريش . وانتهوا إليه وهو يكبر ويصيح : هذا طَوِىّ إسماعيل ! هذه بئر زمزم ! هذه سقاية الحاج ! لقد صدق الوعد وتحقق الأمل .

فنظروا فإذا عبد المطلب قد وجد الماء ، وإذا هو يستقى فيشرب ويسقى ابنه ، ويرسل الماء بيديه من حوله كأنه يريد أن يسقى الأرض والهواء والناس . هنالك ابتسموا له ، ورفقوا به ، وقالوا : لقد بررت بقومك يا شيبة ، وأنبطت لهم هذا الماء يستقون منه ، إذ ضنّتْ عليهم الينابيع ، فوصلتك رحم ؛ لتعرفَنّ لك قريش هذه اليد . قال : ما أنتم وذاك ! هذه بئرى قد حفرتها ، وكشفت طيها بأمر هبط إلىّ من السماء ، وهذا شِرْب ساقه الله إلىّ سأسقيكم منه إن أردت . ولكنى أسقى الحجيج منه قبل أن أسقيكم ، فبذلك أمرت وأنا على ذلك قائم . قالوا : يا ابن هاشم ! إنك لتسرف على نفسك ، وتشط على قومك ، وتختلق على السماء ! إن هذه الأرض ليست لك وإنما هى لله ثم لقريش ، وإن كل ما وجد فيها فهو لله ثم لقريش ، وإنا لم نشهد أمر السماء حين تنزّل إليك ! ومتى تنزّل أمر السماء على الناس إلا من طريق الكهّان ! فأين الكاهن الذى أمرك أن تحتفر ؟ ! قال : يا قوم ! خلّوا بينى وبين الماء ، فوالله

لن تبلغوا منى شيئاً ؛ إنكم تكثرونني بعددكم وعديدكم ، ولكن الذى أمرنى باستنباط هذا الماء حرىّ أن يردّ عنى كيدكم ويحمينى من ظلمكم . إنكم تستضعفوننى حين ترون أنى أبو واحد ، ولكن الذى سخّرنى لهذا الأمر خليق أن يمنحنى من الولد مَن أُكاثركم به ، وإنى أقسم لئن منحنى من الولد عشرة ذكوراً أراهم بين يدىّ لأضحِينّ له بواحد . وسمع بنو عبد مناف مقالة عبد المطلب ، فثارت نفوسهم وتعصبوا له ، وقاموا من دونه يردّون عنه عدوان قريش . وكاد الشر يقع بين القوم ، ولكن عبد المطلب قال : يا قوم ! فِيمَ قطع الأرحام ! وخفر الذمم ! وإراقة الدماء ! إنى والله ما أوثر نفسى من دونكم بشىء ؛ فإن أبيتم أن تؤمنوا لى فهلم إلى حكم فليقض بيننا . قال الملأ من قريش : لقد أنصفكم ابن أخيكم من نفسه ، فليكفّ بعضكم عن بعض ، ولنحتكم إلى كاهنة بنى سعد هُذَيم ، فما نعرف أبصر منها بمواقع الحكم .

وكانت قافلة قريش تتجهز للرحلة إلى الشام ؛ فأجمع القوم أن يصحبها رسلهم إلى الكاهنة فى مُعَان . فلما فصلت العِير صحبها عبد المطلب فى عشرين من بنى عبد مناف ، وأرسلت قريش معها عشرين من بطونها المختلفة ، ومضى القوم ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد حتى طال بهم السفر ، ونفد ما كان معهم من ماء ، واشتد بهم الظمأ وأحرق أكبادهم الصدى ، وغدوا ذات يوم فى فلاة مبسوطة يحار فيها الطرف دون أن يهتدى إلى أمد ، ليس فيها عين ولا بئر ، ولا شجرة ولا عشب ، وإنما هى أرض ملساء جرداء ، تقع عليها أشعة الشمس الملتهبة فتلهبها تحت الأقدام ، وقد يئس القوم من كل رَوْح ، وقنِطوا من كل

وجهة ، فاجتمعوا يتشاورون : قال قائل منهم : يا قوم إنما هو الموت فأنتم بين اثنتين : إما أن تموتوا ضيعة وتصبح أجسامكم نهباً لسباع الأرض والجو ؛ لا تواريكم يد فى التراب ، ولا تأوى نفوسكم إلى جَدَث تطمئن فيه ؛ وإما أن يقوم بعضكم على بعض ، ويوارى بعضكم بعضاً ، فيكون لكل منكم حفرته ، وتعرف نفوسكم إذا هامت فى الفضاء الواسع ؛ وألمت بأهلها فى بطاح مكة وظواهرها ؛ كيف تهتدى إلى أجسادها فتلم بها وتسكن إليها . والرأى أن يحتفر كل منكم حفرته ، وأن تقيموا ! فأيكم ذهب الصدى بنفسه واراه أصحابه وبكوا عليه ، فلا يذهب منكم ضيعة إلا رجل واحد تمتد به الحياة إلى أقصى أجل . قال ذلك قائلهم ونهض فأخذ يحفر حفرته ، وتثاقل القوم بعض الشىء يفكرون فى أولادهم وآخرتهم ، ويذكرون مكة ومن تركوا فيها من أهل وولد ومال ، ويذكرون الشام وينظرون إلى ما كانوا يحملون إليها من تجارة ، ويفكرون فيما كانوا ينتظرون أن يحققوا فيها من ربح ، وتَقَدُّم رسل قريش إلى الكاهنة يتلاومون فى البئر وفى خصومتهم لصاحب الحق . ثم ينهضون والموت يثقل نفوسهم ، فيعمد كل منهم إلى سنان يخط به حفرته فى الأرض

كل ذلك وعبد المطلب ساكت ساكن لا يقول ولا يومىء ، ولكنه نهض فجأة وقال بصوته العذب العريض : « يا معشر قريش ما أعجزكم ! ها أنتم أولاء تلقون بأيديكم وتنتظرون الموت ، وتقطعون ما بينكم وبين أهلكم وولدكم من أسباب الحياة ، وإن فيكم لبقية من قوة ، وإن

فى إبلكم لقدرة على الحركة ، وفضلا من النشاط ! لا والله ما أنا بمسلم نفسى للموت حتى يكرهنى عليها . هلم فاضربوا فى هذه الأرض ؛ فلعل الله أن يجد لكم من هذا الضيق فرجا » . ووقعت ألفاظ عبد المطلب هذه من نفوس الناس موقع الغيث ، وإذا الآمال تحيا ، وإذا النشاط يتجدد ، وإذا القوم ينهضون إلى رواحلهم ، وإذا هم يؤثرون أن يتخطفهم الموت على أن يسعوا هم إليه . وينهض عبد المطلب إلى راحلته ، حتى إذا جلس عليها وزجرها نهضت وهمّت لتندفع . ولكن ماذا ! ماذا يسمع القوم ! ماذا يرون ! هذا عبد المطلب يصيح بأعلى صوته مكبراً وهم يلتفتون ، فإذا عين غزيرة قد انفجرت تحت خف الراحلة ، وإذا هى تفور ، وإذا الماء ينبسط من حولها فينقع غلة الأرض المحترقة قبل أن ينقع غلة القوم الظماء !

هلم يا معشر قريش إلى الماء الرواء ! قد فجره الله لكم من الصخر الصلد . هلم فاشربوا واسقوا إبلكم واملأوا مزادكم . هلم فانعموا بهذا الماء الصافى النقىّ البارد فى هذه الفلاة القائمة المحرقة . والقوم يضجون بالرضى والغبطة . وإن للإبل من حولهم لأطيطا ملؤه الرضى والغبطة أيضاً . ومن ذا الذى زعم أن نفوس الناس وحدها هى التى تجد اللذة والألم ، وتشعر بالسرور والحزن ! . روى الناس ، ورويت الإبل ، ورويت الأرض . وقالت رسل قريش لعبد المطلب : عد بنا يا شيبة إلى مكة فقد قضى علينا . وإن الذى أسقاك فى هذه الصحراء وأنقذنا بك من الهلاك ؛ هو الذى سقاك فى مكة وساق إليك ما تروى به الحجيج .

وأقبل البشير على سمراء ؛ ينبئها بأن زوجها قد عاد إليها سالماً موفوراً مظفراً . فقالت وعلى ثغرها ابتسامة الكئيب المحزون : « حبذا شيبة مسافراً ! وحبذا شيبة مقيما ! ولكن شيبة لن يخلص لى منذ اليوم . إنه ليريد كثرة الولد . وأى نساء قريش تستطيع أن تمتنع عليه ! » ثم أشرقت شمس الغد على عبد المطلب وهو يسعى إلى عمر بن عائذ المخزومى ليخطب إليه فاطمة ؛ وهى أم جماعة من ولده بينهم عبد الله .



الفداء

أصبحت سمراء محزونة كاسفة البال ، تبدو على وجهها المتجعد وجبينها المقطّب كآبة مظلمة ، لم تحاول فى هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها ، كما تعودت أن تفعل منذ أعوام وأعوام . فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احتفرت زمزم ، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد ، ورغبته فى كثرة العدد . ومنذ خطب فاطمة المخزومية فأحبها وكلف بها ، وانصرف إليها عن كل شىء وعن كل إنسان ، ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات ، واشتد لذلك حب عبد المطلب لها وكلفه بها وانصرافه إليها ، وتجافيه عن زوجه الأولى ، تلك التى أضاءت له سبيل الشباب ، وأعانته على احتمال أثقال الحياة الأولى .

نعم ! عرفت سمراء ألم الحزن فى هذه الأعوام الطوال من حياتها ؛ ولكنها كانت على بداوتها امرأة لَبِقة بارعة الجمال ، ذكية القلب ، تعرف كيف تخفى عن زوجها ما يكره ، وكيف تلقاه بما يحب .

وكانت توفّق بفضل هذه اللباقة وهذا الذكاء ؛ إلى أن تستميل إليها زوجها ، وربما اضطرته إلى أن ينقطع إليها وقتاً ما ، وينسى زوجه الأخرى إلى حين . ولكن يوماً أقبل يحمل إلى سمراء شراً ليس فوقه شر ، وألما ليس

بعده ألم ، أصبح هذا اليوم مظلماً ، فما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها ذلك إنه مضى بموت ابنها الوحيد ؛ فأذاقها مرارة الثكل واليتم والترمّل جميعاً . فقد كان الحارث لها ابناً تجد عنده قرة العين ، وأباً تحس منه العطف وحنو الآباء ؛ وكان هو يحس ألمها و يعرف أسراره ، و يجدّ فى الطب لهذا الألم ؛ فكان يبالغ فى رعاية أمه وحمايتها . وكان شديد الحرص على أن يلقاها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وعلى أن يطيل المكث معها والتحدث إليها ، يشركها فى جدّ أمره ولعبه ، يستشيرها و يظهر قبول مشورتها والاستماع لنصحها . فكان يقوم منها فى أكثر الأحيان مقام أبيه ؛ وكان يعزيها بحبه و برّه عما كانت تجد من الوحشة ؛ حين يصد عنها زوجها فيطيل الصدود . فلما مات الحارث مات معه أمل سمراء ، ولم تلق الحياة إلا بوجه محزون كئيب يصوّر قلباً مكلوماً مظلماً . وقد جزعت سمراء لهذا الخطب واشتد جزعها وطال . ولكن أى شىء يبقى على الأيام ! ولقد ذهبت الأيام الطوال بحدة هذا الجزع وشدته ، كما ذهبت بنضرة شباب سمراء ، وكما ذهبت بحياة ابنها الحارث ، وكما ذهبت بحب زوجها عبد المطلب ، وأصبحت وقد تقدمت بها السن ، وامتحنتها حوادث الدهر : امرأة مذعنة لحكم القضاء ، لا تنكر شيئاً ، ولا يسرها شىء ، محزونة ولكن فى دعة ! ملتاعة ولكن فى هدوء !

وقد أحست إنكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها ، وما يجدون من انقباضها عنهم ، فجدّت ما استطاعت فى إخفاء ما تجد ، و كتمان

ما تحس ، واحتفظت لنفسها بهذا الكنز الحزين ، كنز الذكرى وما تثيره من العواطف ، وما تهيجه من اليأس . وتركت للناس من نفسها شخصاً عادياً يبتسم حين يبتسمون ، ويرضى حين يرضون ، ويشاركهم فى أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور . على أنها كانت تجد شيئاً من الرضى وراحة النفس ؛ حين تجد من زوجها عطفاً عليها وأنساً إليها . وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها ، كثير الزيارة لها ، يصفيها مودة خالصة قوية ، ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذى يحيي قلوب النساء .

أصبحت سمراء فى هذا اليوم محزونة ظاهرة الحزن ، كئيبة بادية الكآبة . أقبل عليها إماؤها الثلاث يحيينها تحية الصباح ، فردت عليهن تحيتهن رداً فاتراً ، ثم جلست وجلسن ، وأخذت مغزلها وأخذن مغازلهن ، وعملت أيديهن فى الغزل ، وسكتت ألسنتهن عن الكلام . وكانت سمراء تدع مغزلها من حين إلى حين وتظل ساكتة واجمة ، وربما انحدرت من احدى عينيها دمعة حارة فأسرعت إليها تزيلها بيدها دون أن تقول شيئاً . والإماء صامتات ينظرن فى حزن عميق إلى مولاتهن الحزينة ، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأها بالكلام . فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن ، وثقل عليهن ما كن يجدن من ألم ، وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع ، ورغبة فى الكلام ، وميل إلى تعزية مولاتهن ، اجترأت « ناصعة » وكانت أشجعهن قلباً ، وأطولهن لساناً ، لأنها كانت تعرف مكانتها عند سمراء . فقالت : لقد أصبحت يا سيدتى على حال ما رأيناك عليها منذ زمن بعيد ، فقد كنا نراك

محزونة كئيبة ، ولكنك كنت تجاهدين الحزن وتدافعين الكآبة وتتكلفين الرضى ، وكنا نجد من ذلك ما يشجعنا على تسليتك وتلهيتك بالحديث حيناً ، وبالغناء حيناً آخر ! تقص عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها ، وتغنيك كل واحدة منا بما تعلمت من الغناء فى رطانتها الأعجمية ، وكذلك كنت تسمعين أقاصيص سورية ، وأخرى حبشية ، وأخرى يونانية ، وكنت تسمعين أغانى فى لغات أجنبية قليلاً ما تعجبك ، ولكنها كانت ترسم على ثغرك الابتسام فى أكثر الأحيان . أما اليوم فلم نر منك إلا حزناً قاتماً ، ولم نسمع صوتك العذب ، ولم يرعنا إلا هذه الدموع التى تسفحينها فى صمت أليم ! تكلمى يامولاتى ! بينى ! ماذا تجدين ؟ ماذا أحزنك اليوم ؟ تكلمى وأحسنى ظنك بنا ، فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن نبعث فى قلبك السرور . نحن إماء ولكننا نساء نجد الحزن كما تجدينه ، ونحس اللوعة كما تحسينها ! ولعل حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك ! ولعل حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا فى السرور ! ولعلنا إن شاركناك فى الحزن والألم جارينا طبائعنا ، وأرسلنا نفوسنا على سجاياها . فليس فى حياتنا وإن كنت لنا مكرمة ما يسر أو يرضى . وأى شىء يسرّ أو يرضى فى حياة الأمة الغريبة التى لا تملك نفسها ، ولا تحس إلا ذل الرق ، ولا تستطيع أن ترضى حقًّا أو أن تسخط حقًّا ؛ إلا إذا خلت إلى نفسها ! وأنَّى لها أن تخلو إلى نفسها ! تكلمى يا سيدتى ! ماذا يسوؤك وماذا يغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين ؟ قالت ناصعة ذلك وانتظرت أن تجيبها سمراء ، ولكنها لم تظفر بجواب ، وإنما رأت

دموعاً تنحدر ثم تنهمر ، ثم تستحيل إلى زفرات حارة ، ونحيب غير منقطع .
هنالك محا الحزن ما بين السيدة و إمائها من فروق ، فأسرعن إليها يهدئنها
و يرفقن بها : هذه تقبّلها ، وهذه تمسح دمعها ، وهذه تُمِرّ يدها على رأسها ،
وهن جميعاً يبكين لها و يبكين لأنفسهن . وقد هدأت سمراء بعض الشيء ،
وسكنت نفسها الثائرة إلى هؤلاء الإماء الرفيقات ، فابتسمت لهن فى حزن ،
وشكرت لهن ما أظهرن لهـا من مودة وعطف ، وطلبت إليهن العودة إلى
ما كن فيه من عمل ، وأخذت هى مغزلها وجعلت تديره فى يدها . ولكن
«ناصحة» لم تلبث أن عادت إلى الكلام ؛ فقالت وهى تتكلف الابتسام وتتصنع
الضحك : ليس يغنى عنك الصمت يا مولاتى ، فإنا نعلم ما تُسرّين كما نعلم
ماتعلنين ، ولولا خوفنا منك و إكبارنا إياك لقصصنا عليك القصة التى تحزنك ،
وتُجرى دموعك الحارة على خدك النقى ولكن أنّى لنا أن نبلغ منك هذه
المكانة و إنما أنت سيدة ونحن إماء ! قالت سمراء : كفّى عن هذا الحديث
ياناصحة ، فقد أنسيت اليوم أن بينى و بينكن فرق ما بين السيدة و إمائها ،
ولست أرى منكن الآن إلا نساء تَعِسات مثلى ؛ إنما نحن أخوات فى الشقاء
والبؤس . وما ينفعنى أنى حرة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم ، محتملة للذل ،
مذعنة لصروف القضاء ، لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضَرًّا ، ولا أستطيع أن أبرح
هذه الدار ! و إلى أين أبرحها ! لقد ذهبت غارة بنى أسـد بأبى وأخى ،
وأصبحت أمى وأخواتى إماء مثلكن ، لا أعرف من أمرهن شيئاً ، ولم ينهض
فتيان بنى عامر وكماتهم للثأر ! ليت شعرى ماذا يصنع أبو بَرَاء بأسنّته ! ماله

لا يلاعبها ! لقد ذهب الموت بابنى وأصبحت أسيرة فى يد عبد المطلب ، أسيرة لا كالأسرى ؛ يجفونى ولا أستطيع له بغضاً ولا قلى كما يفعل الأسرى ، وإنما أحبه ولا أجد عن داره منصرفاً . ها هو ذا قد عاد من رحلته إلى اليمن منذ ثلاث ، فلما بلغ مكة أسرع إلى هالة بنت وهيب ، فقضى عندها أولى لياليه وأول أيامه لأنها أحدث زوجاته به عهداً ! ثم أصبح فانتقل إلى نُتَيلة فأقام عندها يوماً وليلة ! ثم أصبح فانتقل إلى فاطمة فأقام عندها يوماً وليلة ! وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين ، فيلم بهذه الدار إلمامة قصيرة ، ثم يسرع إلى هالة ! فما أشد شوقه إليها ! وقد حُدِّثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون الرجال سمة ، وأبرع ما يكونون جمالاً . وحُدِّثت أن هالة أنكرته حين رأته فقد ودّعنا أبيض الرأس وعاد فاحم الشعر ؛ كأنه لم يتجاوز الثلاثين[1] . وقد أنكرته من الغد قريش كلها لما رأت من سواد لمته . ولكنه أزال عجب قريش حين أظهر لها هذا الخضاب الذى حمله من اليمن ، والذى يرد الشيب شباباً ، والذى أسرعت قريش إليه فاشترت منه واختضب به شيبها ؛ فإذا أهل مكة كلهم شباب . كل ذلك ولم أر عبد المطلب ، ولم أحس منه ذكراً لى وحنيناً إلىّ ! وماذا يصنع بى ؟ ليس لى شباب هالة ! ولا جمال نُتيلة ! ولا ولد فاطمة ! وإنما أنا عجوز فانية ، يتيمة وحيدة ، ليس لها أب ولا أم ولا ولد . أنا هذا الحمل الثقيل الذى يضيق به صاحبه ، ولكنه يأبى أن يلقيه ويتخفف منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٢ ج ١ ق ١

قالت ذلك وأغرقت فى بكاء طويل شاركها فيه إماؤها الثلاث .

ولكن « ناصحة » لم تلبث أن قالت : أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك يا سيدتى ؟ إنك إذاً لتجهلين كل شىء ، ولا تعلمين إلا أقل أمره خطراً . وإن عندى من أمر سيدنا ما لو قصصته عليك لأرضاك ، ولخفف لوعة الحزن هذه التى تحرق فؤادك الكئيب . لن ترى زوجك اليوم يامولاتى فهو عنك فى شغل ، لقد كان راضياً مسروراً حين كان يرى نساءه ينكرن سواد لمته ، ويعجبن بشبابه الجديد ، وحين كانت قريش تستبق إليه تشترى منه هذا الخضاب بما أحب من مال ، ولكنه محزون منذ أمس ، مغرق فى حزن لا قرارة له ، فهو خليق بالرثاء . إنك تحبينه ياسيدتى وستنسين إعراضه عنك وسترثين له ، وإنى أخشى أن تخِفِّى إليه حين تعرفين نبأه . قالت سمراء فى شىء من الجزع بدأ هادئاً ؛ ولكنه لم يلبث أن اشتد قليلاً قليلاً حتى بلغ أقصاه : ماذا تقولين ؟ وبم تتحدثين ؟ هو محزون ! هو خليق بالرثاء لماذا ؟ أبينى متى علمت بذلك ؟ كيف أخفيته علىّ ؟ ما الذى يحزنه ؟ ما الذى يسوؤه ؟ ما الذى يجعله أهلا للرثاء ؟ ما الذى يضطرنى إلى أن أخفّ إليه لأعزّيه وأواسيه ؟ قولى أسرعى ، لا تخفى على شيئاً . قالت ناصحة : مهلاً ياسيدتى ! ارفقى بنفسك ولا تذهبى بها فى الخيال كل مذهب ! لا بأس عليه فى نفسه ولا فى ماله ، ولكنه يمتحن منذ أمس فى بنيه ، هوّنى عليك ! إن فى هذه المحنة لعزاء لك عن فقد حارثك العزيز . أتذكرين يوم احتفر زمزم فنذر لئن أوتى من الولد عشرة ذكوراً . . . . قالت سمراء : يراهم ليضحين

بواحد ! يا بؤس هـذا اليوم ! فقد عرفت هذا النذر فكان مصدر شقائى كله ، عرفت أنه سيستكثر من النساء ، ورأيت مدية التضحية ممدودة إلى عنق قد تكون عنق ابنى العزيز . منذ ذلك اليوم كرهت النساء جميعاً لأنى رأيت فى كل واحدة منهن ضرة لى . ومنذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقيما بهذا البيت ما أقام فيه ابنى ، مفارقا لهذا البيت ما فارقه ابنى . ومنـذ ذلك اليوم لم أر ابنى فى يقظة ولا فى نوم إلا رأيت الموت له ظلا . أتمى حديثك يا ناصعة . قالت الفتاة : لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا ، وذكر أن أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء يراهم بمولد طفله حمزة ، فأقسم ليوفينّ نذره ، وليضحين بأحد أبنائه وليجعلنهم تسعة منذ اليوم ؛ حتى تتمهم له هالة أو نتيلة أو غيرها عشرة أو تزيد بهم على العشرة . ولم يكد يعقد هـذه اليمين حتى جزعت فاطمة وشاركها بناتها فى الجزع . أشفقت على الزبير وأبى طالب وعبد الله وغيرهم من بنيها . وبلغ الخبر نتيلة فخافت على العباس ، وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة ، وثارت لكل امرأة قبيلتها ، وألح الناس على الشيخ : تأبى كل قبيلة أن تكون التضحية منها ، ومضى الشيخ فى يمينه فجمع إليـه بنيه وأنبأهم بنذره ، فكلهم أقره ، وكلهم أطاعه ، وكلهم ألح عليه ليوفين بالنذر ، ولتقدّمنّ الضحية . وليس لقريش منذ أمس حديث إلا هذا النبأ ، هم يتناقلونه ويكبرونه وينكرونه ، وقليل منهم من يقر الشيخ على هذا العزم الفظيع .

ثم قالت الفتاة : ثم أقبل الشيخ ببنيه إلى الكعبة مع الصبح ، فأجال

فيهم قداحه ، فخرج القدح على أحب بنيه إليه ، وآثرهم عنده . قالت سمراء وهى مضطربة ؛ وقد سالت من عينيها دمعتان محرقتان : خرج القدح على عبد الله ؟ ! قالت الفتاة : نعم . فأخـذ الشيخ بيد ابنه يقوده إلى المذبح وفى يده المدية ، ولـكن بناته جميعاً وأمهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بنى مخزوم ويستصرخن قريشاً كلها ، ويمنعن الفتى بحياتهن . وأقبلت إحداهن إلى الشيخ ضارعة ثائرة معاً فقالت : إذا كان قلبك قد استحال إلى صخر ؛ فلا ترقّ لابنك الشاب ، ولا لأمه الشيخة ، ولا لأخواته البائسات ! وإذا كانت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت ؛ حتى جعلت للآباء على أبنائهم حق الحيـاة والموت كأنهم الرقيق أو الحيوان ؛ فدعنا نحتكم فى هذا الفتى إلى رب هـذا البيت ، فهو أوسع منك رحمة وأجدر منك أن يضنّ بهذا الشاب على الضياع ، وأن يربأ بهذا الدم الزكى أن يراق . لنحتكم إلى رب هذا البيت فى أمر هـذا الفتى ، لنقرع بينه وبين هـذه الإبل الـكثيرة التى تسيمها فى الحرم ، ولنبلغن من ذلك ما يرضى رب هذا البيت .

وكانت قلوب قريش قد تفطرت حزناً ، وتصدّعت أمى لقول هذه الفتاة وهى تبكى ، وقد التزمت أخاها تعانقه وتقبّـله وتغسل وجهه الناصع بدمها الغزير وهى تصيح : لأموتن قبل أن تموت . فما زالت قريش بالشيخ تلاينه حيناً ، وتخاشنه حيناً ؛ حتى اضطرته أن يقبل تحكيم الآلهة .

قالت سمراء وقد بلغ بها الهلع أقصاه : ثم ماذا ؟ قالت الفتاة : ثم لا أدرى

تركتهم يتأهبون لإجالة القداح بين الفتى والإبل ، وأقبلت أقص عليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق .

قالت سمراء : يابؤس لهذه الحياة ! لا يسعد فيها الناس بخير — مهما يكثر — كل السعادة ، ولا يشقى فيها الناس بشرّ — مهما يعظم — كل الشقاء . أسعيدة أنا بموت الحارث أم شقية ؟ لو قد عاش لذقت الآن ما تذوقه فاطمة من هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك ، ولكنى كنت أوثر مع ذلك أن يعيش ، فقد كان يمكن أن تخطئه القداح ، وقد كان يمكن إن لم تخطئه فى المرة الأولى أن تخرج على الإبل من دونه ، وقد كنت استمتع به أعواماً . ولكن هلم لا مُقام لنا الآن ، لنسرع إلى حيث هم لنشاركهم فيما يجدون . واحسرتاه ! إنى لصادقة الحزن ! إنى لصادقة الخوف ! إنى لشديدة الإشفاق ! إنى لشديدة الرجاء ! . ولكن فاطمة ستظن بى سوءا ، وستقدر أنى أقبلت غير بريئة النفس من الشماتة . قالت ذلك ونهضت يدفعها حزنها الخالص ، ويردّها خوفها من سوء الظن . ولكنها أسرعت مع ذلك وأسرع معها إماؤها ، ولم تكد تتقدم فى الطريق نحو المسجد حتى سمعت أصواتاً ورأت اضطراباً ، ثم تبينت فى الأصوات فرحاً ، ورأت على الوجوه بشرا ، وعرفت أن القدْح قد خرج بعد لأيٍ على مائة من الإبل ، وأن عبد المطلب يؤذّن فى الناس أنه سينحر هذه الإبل بين الصفا والمروة ، وأنها حرام عليه وعلى بنى هاشم ، مباحة لغيرهم من الناس والحيوان والطير .

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها ، وهن سائرات يحطن

بالفتى ، ويحلن بينه وبين غيره من الناس ، حتى إذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تبكيان ، إحداهما هالة بنت وُهَيب أم حمزة وزوج عبد المطلب ، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب . هنالك أقبلت سمراء هادئة باسمة إلى الفتاة فكفكفت من دموعها ، وضمتها إليها وقبّلت جبينها الطّلْق. ثم التفتت إلى عبد الله وهي تقول : هلم يافتى فقبِّل أهلك ، فمها تغلُ لها في المهر فلن تبلغ هذه الدموع التي ذرفتها حزناً عليك . ثم نظرت إلى فاطمة وهي تقول : ألا ترين أنها أحق فتيات قريش أن تكون له زوجة !

٤

الاغراء

أقبل أبناء عبد المطلب فهيئوا لأبيهم مجلسه فى المسجد غير بعيد من بئره التى كُشفت له . وأقبل الشيخ بعد قليل مشرق الوجه ، باسم الثغر ، فأسرع إليه أبناؤه يلقونه بالتحية و يقرأون عليه السلام . وأقبل عليهم يحييهم و يدعو لهم . حتى إذا أخذ مكانه أشار إليهم فجلسوا من حوله ، وأخذ يجيل نظره فيهم كأنما يلتمس بينهم غائباً ، ثم سأل : أين عبد الله ؟ قال قائل منهم وعلى ثغره ابتسامة فيها حب وفيها دعابة ، وفيها غيرة لا تكاد تبين : لم يأت بعدُ ، وما علمناه منذ حين إلا نؤوم الضحى . قال الشيخ وابتسم كالمغضَب : حَسْبُكَ ! فكلكم قد أدركه الضحى ولمّا يرتفع رأسه عن الوساد . ثم أخذوا فى حديث القافلة التى كانت تتهيأ للرِّحلة إلى الشام ، وأخذ أبناء الشيخ يتحدثون إلى أبيهم بما أعدّ أغنياء قريش من عُروض التجارة لتحمل إلى بُصْرَى وما بينها من بلاد الروم . وهم فى هذا الحديث وإذا الفتى يقبل وَسِيماً قَسِيماً مستقيم القَدِّ معتدل القامة قريب الخُطا شاخصاً بصره إلى السماء ، حتى إذا دنا من أبيه أقبل عليه فحيّاه ، وتلقاه الشيخ رفيقاً به عطوفاً عليه . ثم أذِن له بالجلوس وأدنى مكانه منه ، وأعرض عنه حيناً كأنه يسمع لحديث أبنائه عن القافلة كيف تُهَيّأ ، وممن تكون ، ومتى تفصل .

ثم التفت إلى ابنه الشاب وقال له وهو يبتسم : ما أرى يا بنى إلاّ أنك قد أحببت النعمة وآثرت لين العيش . وكلنا قد أحب النعمة كما تحبها ، وكلنا قد آثر اللين كما تؤثره ، وكلنا قد لزم أهله حتى كاد ينسى كل شىء ، ولكن الأيام تنبه الغافل ، وتوقظ النائم وتذكر الناسى . وإنى لأحب أن أنبهك قبل أن تنبهك الأيام ، وأن أوقظك قبل أن توقظك الأحداث ، وأن أذود عنك النسيان قبل أن تذوده عنك الخطوب . وخيرٌ لك يا بنى أن تترك النعمة الآن لتعود إليها بعد حين من أن تظل فيها مُغرَقا وعليها حريصاً ولها لازماً ، حتى تضيق بك وتنفر منك ، وتنصرف عنك إلى غير رجعة . وفى الرحلة يا بنى مع بنى عمك الأدنيْن رياضةٌ لك يسيرة على احتمال الصعاب واقتحام العقاب ، وتسليةٌ لك هينة عن هذه اللذة المتصلة والنعيم المقيم . وما أشك فى أنك ستترك أهلك كارهاً لذلك ضيّقاً به ، ولكنك ستستعذب الفراق وتستلذ النوى ، وتجد من ذكر أهلك على نزوح الدار وبعد المزار ، مثل ما تجد من حب أهلك والدارُ قريبة والمزارُ يسير ، فهَيِّئْ نفسك للرحيل مع العِير ، واحْرِص على ألاّ تعود أقل ثراء من أمثالك الذين سيرحلون إلى الشام من شباب قريش . وقد أجمعتُ وأجمع إخوتك أن نكل إليك ما عندنا من هذه العُروض التى تجمّعت لنا منذ أشهر لتحملها لنا إلى بلاد الروم ، فتتاجر لنا فيها ، وتقاسمنا ما تُغِل علينا من ربح . والرأى أن تسعى فى أصهارك بنى زُهرة بمثل ذلك ، فتحمل عنهم عروضهم وتقضى لهم حاجاتهم . وما أظن أنك صفر اليد ، فقد تستطيع أن تتخذ لك حظاً من

تجارة تقصُرها على نفسك ، حتى إذا رجعت إلينا كنت موفور الحظ من المال بما يجتمع لك من ربح هذه التجارة كلها . وكلنا يا بنى قد رحَل إلى الشام حيناً و إلى اليمن حيناً و إلى العراق حيناً آخر ، ومنا من أمعن فى الرحلة حتى بلغ مصر . ومنا من أغذّ [1] السير حتى عبر البحر إلى بلاد الحبشة . ومنا من أبعد السفر حتى انتهى إلى أعماق فارس . ولكنى أرى لك أن تمعن فى غير إسراف وأن تبعُد دون أن تنقطع عن جماعة من قومك . والأيام خليقة أن تغريك بالأسفار البعيدة والرحلة المتّصلة . فقم يا بنى فأصلح من شأنك ، وهَيِّء أهلك لهذا الفراق ، فما أظن أن آمنة سترضاه أو تستريح إليه . قال ذلك فى لهجة ملؤها الحنان المقنع ، والجِدّ الذى لا يحتمل الجدال ولا يبيح رجع الجواب . وكان الفتى يسمع له راضياً ، تظهر على وجهه آثار الطاعة والثقة . حتى إذا فرغ من حديثه أطرق الفتى غير طويل ، ثم رفع رأسه وهمّ أن يتكلم فلم يجد ما يقول ، فنهض مسرعاً حتى خرج من المسجد ومضى أمامه لا يلوى على شىء . وكانت شمس الضحى قد ارتفعت حتى قاربت أن تستوى فى كبد السماء ، وكانت أشعتها الحارة المحرقة قد أخذت تُلِحّ على الأرض والناس ، حتى قهَرتها وقهرتهم أو كادت . والفتى ماض فى طريقه كأنه السهم لا يلتفت يمْنةً ولا يَسْرةً ، ولا يكاد ينظر إلى أبعد من مواقع قدميه . و إنه لفى ذلك و إذا صوت عذب يأتيه من قريب بهذا البيت :

يا مسرعاً والناسُ من حوله   يَسعَوْنَ لم يأنِ لغادٍ رَوَاحْ

فيهمّ أن يقف ، ولا يكاد يفعل حتى يأخذه صوت آخر ليس أقل عذوبة

---

(١) أغذ السير وفى السير : أسرع

ولا حسن وقع فى النفس من ذلك الصوت الأول :

يا مطرقاً والأرضُ من حوله يَزِينُها حسنُ الوجوهِ الصِّبَاحْ

هنالك يقف الفتى ويلتفت صوب الصوت ، ولكنه لا يكاد يفعل حتى يمسَّه صوت آخر فيه نعومة الحرير ، وعذوبة الماء النمير :

عَرِّجْ علينا فأقم ساعةً فعندنا إن شئت رَوْحٌ ورَاحْ

هنالك وقف الفتى والتفت وهو يقول : ما رأيت كاليوم دعاء ولا إغراء ، وقد اتصل طَرْفُهُ بوجوهٍ ثلاثة حسان ، تشرق بها كُوًى ثلاثٌ فى دار فاطمة بنت مُرٍّ الخثعمية . قال الفتى : ماخطبكن ؟ قالت إحدى الفتيات : ما خطبك أنت ؟ فيم إرقالك على هذا النحو ولمَّا يَئنْ لشباب قريش أن يروحوا إلى أهلهم ؟ وفيم تركت أباك وإخوانك وأترابك فى المسجد ؟ ! هلاَّ بَقِيت كما بَقُوا وانتظرت كما ينتظرون ! قال الفتى فى صوت فيه دعابة الطامع ويأس المضطر إلى الإسراع : ما أنتِ وذاك ! إن أدَعْهم فلأمرٍ مّا ! قالت فتاة أخرى : إن تدَعْهم فلتخلُ إلينا فتحدِّثنا وتسمع منا ساعة من نهار . قالت ثالثة : هلم يافتى أقبل ، فما هذه ساعة حديث يُلْقَى من الكوَى ! إن الشمس لمحرقة ، وإن القيظ لشديد ، وإنى لأوثر ما كنتَ فيه من الإرقال آنفاً على ما أنت فيه من الوقوف الآن . قالت إحداهن وكأنها تتغنى :

عرج علينا فأقم ساعة فعندنا إن شئت روح وراح

وهمَّ الفتى أن يأبى ، ولكنهن ألححن عليه ومضين يدعونه ويغرينه حتى استجاب لهن . وما هى إلا أن دخل الدار وأغلق من دونه بابها ، وأقبل

الفتيات عليه مبتهجات له رفيقات به : هذه تمسح رأسه ، وهذه تمسّ وجهه ، وهذه تأخذ بطرف ردائه ، وهو يحاول أن يتقيهن وأن يمتنع عليهن ، فلا يجد إلى شيء من هذا سبيلا . وكانت فاطمة الخثعمية أطول هؤلاء الفتيات قامة وأوسمهن وجهاً وأعذبهن حديثاً . وكانت على جمالها الرائع وحسنها البارع ذكية القلب ، نافذة البصيرة ، ضخمة الثروة ، تعيش في مكة مترفة ناعمة ، من حولها عدد غير قليل من الموالى والأحلاف والرقيق على اختلاف أجناسه وتباين حظوظه من المهارة فى الفنون المختلفة التى كان يحسنها الرقيق بمكة فى تلك الأيام . وكانت فاطمة الخثعميّة بَرْزَة[1] متبدّية فى مكة بعض الشيء ، لا تكره أن تظهر للرجال وتأخذ معهم فى ألوان الحديث . وكان شباب قريش يحبون منها ذلك ويكْلَفون به ، ويختلفون إليها إذا كان المساء ، فيقولون لها ويسمعون منها حتى يتقدم الليل وربما أديرت عليهم فى الشتاء أقداح من خمر بَيْسان ، وفى الصيف أقداح من زبيب الطائف . ولم يكن عبد الله من هؤلاء الفتيان الذين يألفونها ويختلفون إلى مجلسها . وأين هو من ذلك ! وإنه لمن قوم حظهم من اللهو ونصيبهم من الاستمتاع بالحياة الفارغة الناعمة ضئيل ! وكان عبد الله حديث مكة فى هذه الأيام منذ همّ أبوه أن يتقرّب به إلى الآلهة وفاء بنذره القديم ، فأنقذه الفداء من هذا الموت المنكر. كان حديث مكة وحديث نسائها خاصة ، يذكرن شبابه الغضّ الذى كاد يذويه الموت ، ويذكرن جماله الفاتن الذى كاد يحتويه القبر ، ويذكرن هذا

(١) البرزة من النساء : التى تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون عنها ، أو الموثوق برأيها وعفافها . والبرزة أيضاً : بارزة المحاسن .

الخَفَر الجادّ الصارم الذى لم يكن يُعْرَف فى فتيان قريش ، ويذكرون هذه الفتاة السعيدة التى قُدِّر لها أن تكون له زوجة . وكانت فاطمة الخثعمية أكثرهن حديثاً عنه ، وأعظمهن إعجاباً به ، وأشدهن شوقاً إلى لقائه . رأته يوم الفداء جَلِداً صبوراً مبتسما للموت ، لا يظهر على وجهه أثر من آثار الجزع حين كان أبوه يقرع من دونه بالإبل ؛ فكانت القداح تأبى أن تخرج إلا عليه . ورأته بعد أن تم الفِداء ورُفع عنه نذير الموت فعاد بين أمه وأخواته مبتسما للحياة كما كان يبتسم للموت فى هدوء واطمئنان ، لا يزدهيه فرح ولا يستخفّه طرب ، ولا يخرجه عن طوره أمل فى الحياة السعيدة والنعيم المقيم . من ذلك اليوم وقع الفتى من نفس فاطمة موقع قطرة الندى من الزهرة الغضّة عند إشراق الصبح ، فأحبته وتمنّته ، وكلفت به وحَرَصت عليه . وقضت أياماً لا تتحدث إلا عنه ، وليالى لا تفكر إلا فيه ، وقد تحدّث إليها الناس من مساء ذلك اليوم بأن آمنة بنت وهب قد خُطبت له وستُزَف إليه عما قريب ؛ فرأى الناس على وجهها جزعاً بادياً وحزناً عميقاً . وكانت كثيراً ما تتحدث إلى أترابها بما تجد من حب وما تحتمل من ألم . ولست أنا الذى شبه موقع الفتى من نفسها موقع قطرة الندى من الزهرة ، إنما هى صاحبة هذا التشبيه . فقد كانت تقول لصاحبتها عاتكة بنت سَهْم : أتعرفين كيف تنعَم الزهرة حين يمسّها الندى إذا أسفر الصبح ! فكذلك نَعِمت حين مسّنى حب هذا الفتى يوم الفداء . وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تشتاق الزهرة إلى قطرة الندى إذا ارتفع الضحى واشتد عليها حر الشمس كلما تقدم النهار !

فكذلك أشتاق أنا إلى هذا الفتى كلما بعد العهد بينى و بينه . وكانت تقول لها : أتعرفين كيف تهيم الزهرة بقطرة الندى إذا أظلها المساء وأقبل الليل ! وأحست بَرْدَ السحر وعرَفت أن سقوط الندى قريب ! فكذلك أهيم أنا بهذا الفتى إذا أشرق الصبح وقرب غدوّ قريش إلى مجالسها فى المسجد ، أو إذا اعتدل النهار وآن لقريش أن يروحوا إلى أهلهم . وكانت عاتكة بنت سهم ترَثى لها وتشفق عليها . وربما بلغ منها الرثاء والإشفاق أن تسخر منها بعضَ الشيء ، فكانت تقول : ويحك يا فاطمة ! إنك لمن قوم بُدَاة جُفاة فيهم خشونة وغلظة ، وما أعرف أن تجار قريش يخافون على أنفسهم وأموالهم فى رحلة الشتاء أحداً كما يخافون هذا الحى من خثعم . ولولا خوفهم من هذا الحى و إكبارهم لبأسه و بطشه لَمَا أيسر أبوك ولما كان له هذا المال الضخم ، وهذا العدد الكثير من الرقيق والأحلاف ، ولَما اتخذ لك هذه الدار الأنيقة الواسعة فى مكة تقيمين فيها كما يقيم أغنى بنات قريش ، فكيف نبتت هذه الزهرة الرقيقة الأنيقة التى لا تشتاق إلا إلى الدماء . وكانت فاطمة إذا سمعت هذا الحديث ابتسمت عن نفس حزينة وقالت : ما أشد جهلكم يأهل المَدَر بما يُظِلّ الوَبَر من نفوس حية وقلوب رقيقة ، وأكباد يعبث بها الحب ويعصِف بها الغرام !

فلما طال على الفتاة أمر هذا الحب وثقل عليها عذابه ، رقّت لها عاتكة بنت سهم ، ورقّت لها سلمى بنت خُزَيم ؛ وقالت لها : أقلِّى عليك الخَطْب ، وهوِّنى عليك الأمر ، فليس هذا الفتى إلا غلاما من قريش له رقة قلوبهم

وقيه حبهم للحياة وكلفهم بلين العيش . وقد أصهر اليوم إلى بنى زُهرة وما أيسر أن يُصهر غداً إلى خثعم . وما نحسب أنك تكرهين أن تكونى زوجه الثانية . وما نحسب أنك تخافين أن تغلبك آمنة على قلبه ، فقد يكون لآمنة جمالها ومكانها من قريش ، ولكن لك جمالك ، ومالك ، ومكانك من خثعم . فالرأى أن نجمع بينك و بين الفتى ، وأن يحس الفتى منك حباً له وميلا إليه ، فلعل ذلك أن يُغريه بالخِطبة . وأى شىء أحب إلى أبيه و إخوته من أن يُصهروا إلى عظيم خثعم فيأمنوا شياطينها وشياطين مُرّاد ، وهذه الأحياء التى تأخذ عليهم طريقهم إلى بلاد اليمن ! وكذلك دبّر الفتيات أمرهن وجعلن يرصدن للفتى إذا غدا ، و يرصدن له إذا راح ، حتى ظفرن به فى هذا اليوم .

فلما أغلق من دونه ومن دونهن الباب لم يلبثن إلا قليلا حتى نظر الفتى فإذا فاطمة وحدها قائمة أمامه ترسل إليه من عينيها الحادّتين ناراً محرقة عَذْبة ، فيها حبٌّ لاحد له ، ورغبةٌ لاحد لها ، وحنانٌ لاحد له أيضاً . قال : يا هذه ، غُضى جفونك عنى فإنى أجد للحظك مَسًّا لاذعا . قالت : وأنت ، فامدد إلىّ عينيك فإنى أجد فيهما شفاء لما يعذبنى من سقم ، وريًّا لما يحرق فؤادى من صَدًى . قال : ما لهذا أقبلت ! فأين صاحبتاك ؟ قالت : ما أنت وصاحبتاى ! إنما كانتا صديقتين أعانتا على أمر ثم مضت كل واحدة منهما إلى وجهها . أقم معى ساعة أو بعض ساعة ، فقد طالما تمنيت هذا اللقاء ، واشتقت إلى هذه الخلوة ، وسمت نفسى إلى أن يتصل بينك و بينى الحديث . قال : يا هذه ، ما أحبّ هذا إلىّ وآثره عندى . إن فى وجهك لإشراقاً حلواً ،

وإن فى طَرْفك لسحراً فاتناً ، وإن فى صوتك لعذوبةً تخلب العقول وتستهوى الألباب ، ولكنى عن هذا كله عَجِل . قالت : فما يُعْجلك عنه ؟ وإلى أين كنت تريد ؟ قال : يُعجلنى عنه شغلٌ شاغلٌ وهمٌّ طارئٌ ، ولقد كنت أريد إلى أبى قُبَيس حيث يقيم أهلى . قالت : أقم يازين قريش ! إن أباقبيس لن يَرِيم[1] ، وإن أهلك لن يبرحوه ، وإن خير مافى الأمكنة والدور أنها ثابتة باقية لا تتحوّل ولا تزول إلا فى بطء ، وإن شر مافى الزمان أنه لايعرف الهدوء ولا الاستقرار ، ولا يحب السكون والاطمئنان ، إنما هو انتقال دائم وحركة متصلة لا تستطيع الجمع بين أطرافه بل لا تستطيع الجمع بين أجزائه . أقم ! فستبلغ أبا قبيس فى أى وقت شئت ، وستلقى أهلك فى أى لحظة أحببت ، ولكن هذه الساعة إن تفلت منك فلن تعود إليك ، ولعلك لا تحرِص عليها ولا تحفِل باستدراكها ، فاعلم أنى عليها حريصة ولها محبة ، واعلم أنى شفيقة أن تضيع فقد تعلقت نفسى بها منذ يوم الفِداء . لقد رأيتك مقبلا إلى المسجد ، ورأيتك منصرفاً عنه ، ورأيت على وجهك ابتسامة واحدة للموت وللحياة جميعاً . لم يكن وجهك مظلماً حين كنت تنتظر الموت ، ولم يزدد وجهك إشراقاً حين رُدَّت إليك الحياة . ولقد ارتسمت فى نفسى ابتسامتك هذه فلم تفارقها ، ولم أرك منذ ذلك اليوم ولن أراك إلا مبتسماً . أقم يا فتى ! إن وجهك لوضىء ، وإن جبينك لمضىء ، وإن عينيك لتسرعان إلى القلب ، وإن صوتك ليسبغ علىّ حناناً حلواً يُدنينى منك ويدفعنى إليك .

---

(١) يريم : يبرح وينتقل .

أقم ! وليكن بينك و بينى طرف من حديث . فمن يدرى ! لعل هذا الحديث أن ينتهى بك و بى إلى شىء . قال : وما عسى أن يكون هذا الشىء ؟ إن شخصك ليثبتنى فى هذا المكان ، و إنى لأجد فى قلبى شيئاً يدفعنى عنه ، و إن نفسى لمضطربة بين هـذين الداعيين الملحّين : يُهيب بى أحدهما أن أقم ، ويهيب الآخر أن انصرف . قالت : أقم يا فتى وخَلَاك ذمٌّ ، فما ينبغى وقد دخلت دارنا أن تخرج منها ، ولمّا تُصِبْ عندنا شيئاً من القِرَى . قال : لست ضيفاً ولا طارقاً ، وليست الساعة ساعة قِرًى ، دعينى أنصرف الآن كارهاً ، وما أظن إلا أنى عائد إليك إذا كان المساء . ثم همّ أن ينصرف ، ولكنها أقبلت عليه ورَنَتْ إليه بطَرْف ساحر فاتر أثبته فى مكانه ، فمسته بيدها مسًّا رفيقاً وقالت : وكذلك يذهب عبثاً ما أنفقتُ من جهـد ، و يمضى سدًى ما بذلتُ من حيلة ، وتنصرف ولمّا يتصِلْ بينك و بينى الحديث ، ولما تتصل بين قلبك وقلبى الأسباب ؟ ! أقم فلا بد من أن أسألك . ولا بد من أن تجيب ، أنظر إلى هذه الوسائد ! لقد هُيِّئَت لك منذ اليوم . فاجلس وانظر هذه الجارية قد أقبلت تحمل شيئاً من شراب . فجلس الفتى وجلست منه غير بعيد ، وأقبلت جارية سوداء تحمل إبريقاً وأقداحاً فوضعت ما فى يدها وملأت قدحين وقدمت إليه أحدهما وهى تقول : دونك شيئاً من زبيب الطائف يازين قريش . ثم قدمت إلى مولاتها قدحاً آخر وانصرفت . قالت فاطمة : أنبئت منذ حين أنك قد خطبت آمنة بنت وَهْب وأنها قد زُفَّت إليك . أسعيدٌ أنت منذ أعْرست ؟ أناعِمُ البال أنت منذ استأنفت حياتك

الجديدة ؟ قال : وما يمنعني أن أكون سعيداً ناعم البال ، وإني لأجد عند آمنة أكثر مما كنت أريد . قالت : ولكنك لا تجد عندها المال والثراء ولين العيش . قال : فإن ذلك شيء يكسبه الرجال وينفقون حياتهم في السعي إليه ، وإني لآخذ في أسباب ذلك ، فقد كنت حين رأيتني رائحاً قبل أن يأتي لي أن أروح ذاهباً إلى حيث أهيّيء للرحلة . قالت وقد ظهر عليها الخوف أمرتحلٌ أنت ؟ وإلى أين ؟ قال إلى حيث ترتحل قريش . قالت : فإن مثلك لم يخلق لهذا العناء . أقم يافتى ، فإن المال كثير ، والثراء موفور ، وإن لك من ذلك ما أحببت ، وإن لك من ذلك لفوق ماتحب . إنك لتعرف لمُرٍّ الخثعمي إبلا ترعى خارج مكة لا يكاد يحصيها العد ، وإنك لتعلم أن لمرّ الخثعميّ عند تجار قريش وصيارفهم من الذهب والفضة والعُروض شيئاً كثيراً . وإنك لتعلم أن يد فاطمة بنت مُرّ في هذا كله مطلقة ، فليس لي أخ وليست لي أخت ، فثروة أبي خالصة لي لا يشاركني فيها أحد ، وهي لمن سأختاره بعلا . أفترضى أن تكون هذا البعل ؟ قال هذا شيء تتحدث به إليّ النفس منذ رأيتك وقبل أن تذكري لي مالك الضخم وثراءك الموفور وإن فيما أرى من جمالك وعقلك وكمال خلقك وحسن منزلك من خثعم ، لمَا يحببك إليّ ويغريني بما تعرضين عليّ ؛ فهل لك في أن تهبيني سعة من وقت ، وشيئاً من مهلة ، لا لأفكر ولا لأروّي ، فقد فكرت وروّيت ، ولكن لأتحدث في ذلك إلى أبي ولأنظر كيف يقع ذلك من آمنة ، فإن عهدها بالعرس حديث . وعزيزٌ عليّ أن أسوءها ولمّا يمض على زواجنا إلا أمدٌ قليل . قالت : لك

ما شئت من سعة ، ولك ما شئت من مهلة . وعزيز عليّ أن أروّع آمنة أو أن أسوءها ، فما جنت عليّ شراً ، ولا قدّمت إليّ سوءاً . ولكنى أحببتك وآثرتك وكرهت لك ما يذهب بنضرة كثير من فتيان قريش من هذا الرحيل المتصل الذى يضيع عليهم الصيف والشتاء . ولتعلمن آمنة أنى لا أريد لكما إلا خيراً ، ولا أوثر كما إلا بأحسن ما تحبان ، ولن أكون لآمنة عَلّة[1] ، ولأكونن أقرب إليها وأعطف عليها من هالة بنت وُهَيب . فَكّرْ إذا ما وسعك التفكير ، وروِّ إذا ما وسعتك التروية ، وتَحَدَّثْ إلى أهلك وإلى أبيك وانتظر بالخطبة والزفاف ما شئت أن تنتظر . ولكن أقم عندى هذا اليوم ، فإنى أجد فى جوارك لذة وفى حديثك متاعاً . وإنى أحس أنك تجد مثل ما أجد وتحب مثل ما أحب . ثم دنت منه وأقبلت عليه بوجهها المشرق الجميل وهى تقول فى صوت هادىء عذب أدنى إلى الهمس منه إلى الجهر : هَلُمّ ، فقد خلت لنا الدار ونأى عنا الرقيب ، وقد وهبت لك نفسى فهب لى نفسك ، ولنقضه يوماً حلواً سعيداً .
هنالك ارتد الفتى عنها وقد أخذه خوف رفيق وإشفاق هادىء وهو يقول :

أمّا الحرام فالمماتُ دونَهْ   والحلّ لا حلَّ فأستبينَهْ
فكيف بالأمر الذى تنوينه

قالت : ما أشدّ ما ترتاع لما لا يروع ! إنى لأعرف فيك نُسْك أبيك . قال لا روعَ ولا نُسْك ، ولكن دعينى أنصرف ولأعودن إليك مع المساء بما ترضين وبما أنا عليه حريص . قالت : أصادقٌ هذا الوعد ، أم تَحِلّة تخرج بها مما نحن فيه ؟ قال : بل وعد صادق أنا على صدقه أحرص منك . نهض ونهضت ،

(١) العلة : الضرة

ومضى متثاقلا وتبعته وهى تقول : لقد صبرتُ أياماً وأياما ، فما يمنعنى أن أصبر بعض يوم . اذهب سالماً وعد موفوراً ، فلن أبرح مجلسى هذا حتى تعود .

وما كاد يتجاوز باب الدار حتى مضى فى سرعة تشبه العَدْو ، لا يحس وهج الشمس الذى كان يلفَح الوجوه ، ولا يكاد يرى من حوله شيئاً . قد امتلأت نفسه بما رأى وامتلأت بما سمع ، وجاشت فى قلبه الآمال العِراض . لقد كان يقيس ما كان يعده أبوه من ثراء بعد طول الرحلة وثقل الجهد ، وكثرة الاحتمال وفراق الأهل ، إلى ما رتَّبت له فاطمة فى غير نأيٍ ولا مشقة ، ولا اغتراب ولا فرقة . فكان يأخذه شىء يشبه الدُّوَار حين يرى هذا الفتى وقد أنضاه سفر غير قاصد ، ثم عاد مجهوداً مكدوداً ولم يُفد إلا دراهم ودنانير ، وهذا الفتى الذى يسعى فى مكة رخى البال موفور النعمة ، لم يلق جهداً ولم يتعرض لأذى ، وإنما قال كلمة ليس غير ، فإذا هو أكثر قريش مالا ، وأعظمهما ثراء ، وأعزها جانباً ، إليه حماية قريش حين تأخذ طريقها إلى اليمن . وأنساه هذا التفكير نفسه حتى مر بدور بنى هاشم فلم يلوِ على أحد ولم يقف عند شىء . ولولا أن صوتاً ناداه : إلى أين يا عبد الله المضى إلى غير غاية ؟ ولكنه سمع لهذا الصوت فالتفت فرأى سمراء تسعى قريبة الخطا ، كئيبة الوجه كاسفة البال . فوقف لها حتى دنت منه وهى تقول : لشَدّ ما تسرع فى العَدْو ، ولشَدّ ما تذكّرنى بأخيك . قال : ما أرى أنك تريدين هالة أو فاطمة بنت عمرو . قالت : بل إلى فاطمة أريد ، فقد مسها منذ حين ما مسنى منذ دهر ، فانصرف عنها أبوك بعض الشىء إلى عِرسه الجديدة ، ولولا أن لفاطمة فيك

وفى إخوتك عزاء عما تجد من هجر عبد المطلب لكان الخطب عليها أثقل ولها أفجع . فأنا أختلف إليها فى مثل هذا الوقت من كل يوم لأسلّيها وأسرّى عنها ، فقد أخذ عبد المطلب لا يروح إلا إلى هالة . وأنت فما أعجلك عن أبيك وعن إخوتك؟ أمشوقٌ أنت إلى آمنة ولمّا يعتدل النهار ؟ قال : إنك لتعلمين ضعف سلطان الشوق علينا آل عبد المطلب ، و إن قلب أحدنا ليتحرّق شوقا و يتفطّر جوًى فلا يبلغ منه ذلك أن يتحوّل عن مجلسه أو ينصرف عن وجه إن كان قصد إليه . ولكن عبد المطلب قد لقينى منذ اليوم بحديث أعجلنى عنه وعن إخوتى ودفعنى إلى أن أسرع إلى الرواح . إنه يريد أن أفصِل مع القافلة إلى الشام ، فلابد من أن أتهيأ لذلك وأهيّئ له آمنة ، و إنى لأخشى أن يكون موقع ذلك منها شديداً . قالت : لا بأس عليك ، إن تكن فتى من قريش فآمنة فتاة من قريش ، وما أظنها إلا هيّأت نفسها لحياتنا جميعاً وأخذت نفسها بالصبر على فراق البعل أكثر العام . اذهب مصاحباً فلن ترى من آمنة إلا ما يحب أبوكَ وما ستحب أنت بعد حين و إن كرهته الآن . وكانا قد بلغا بيت فاطمة ، فدخلت هى ، ومضى الفتى أمامه لم يعرِّج على أمه ليحييها أو ليقدم إليها بعض العزاء . فلما انتهى إلى آمنة فى بيتها قامت إليه طَلقة الوجه ، مشرقة الجبين ، وتلقّته مبتهجةً بلقائه ، ولم تسأله ما أعجله عن قومه . وهل كانت تشك فى ذلك أو ترتاب ! إنما هو الحب الذى كان يخرجه من البيت وقد خلت دور بنى هاشم من الكهول والشباب ، و يرده إلى البيت ولما ينهض كهول بنى هاشم وشبابهم من أنديتهم ومجالسهم . ولكن آمنة

رأت على وجه زوجها شيئاً غير ما كانت قد تعوّدت أن تراه : رأت حيرة لا تكاد تظهر وهمًّا لا يكاد يَبين ، فهمّت أن تسأله ، ولكنه سبقها إلى الجواب فقال : عزيزٌ علىّ يا ابنة وهب أن ألقاك بغير ما تعودت أن ألقاك به من البشاشة والبشر . ولكن حياة قريش لاتعرف البشاشة الدائمة ولا البشر المتصل . قالت : فأنت مرتحل إذاً مع القافلة ؟ كذلك يريد أبوك وكذلك يريد إخوتك وكذلك يريد مكانك من قريش . ثم كفكفت عَبْرة كانت تريد أن تنهمر ، وردّت إلى صوتها ما كان قد فارقه من الثبات والهدوء ، وقالت وهى تبتسم فى كثير من التجلد والصبر : وهل عزّت قريش وأثْرت إلا بالرحيل ! إنما عزّ قريش وثراؤها ثمرة لجهد الرجال وصبر النساء : أولئك يشقَوْن بالرحلة المتصلة وهؤلاء يشقَين بالصبر الطويل . وماذا أعددت لهذه الرحلة ؟ . قال : سنتحدث فى ذلك بعد حين ، ولكنى أريد أن تستقبلى هذا الفراق بصبر لايشوبه التصبُّر ، وجَلَدٍ لايشوبه التجلُّد ، وقلبٍ لا يُفسد عليه الحزنُ أمره . انتظرى عودتى ، فلعلى أعود موفوراً موسراً ، ولعل ذلك أن يهيء لنا حياة أيسر وعيشاً أدنى إلى اللين مما نحن فيه . فلو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردّ نفسى إليه من الاحتمال حين أرى جِيدك عاطلاً لا تزينه هذه العقود التى تزين أجياد أترابك من نساء قريش ! . ولو تعلمين ما ألقى من الأذى وما أردّ نفسى إليه من الاحتمال حين أرى أنك لا تستمتعين من طيّبات الحياة بمثل مايستمتع به غيرك من نساء بنى هاشم ! . قالت : وما ذاك ! وأين يكون الحلى ! وأين يكون النعيم من هذه الساعات الحلوة التى نقضيها إذا

كانت القائلة أو إذا جنّ الليل ! . . . وأخذ الحديث يصفو و يعذُب و يرقّ ويلين بين الزوجين ، حتى أُنسى عبد الله أمر الرحلة ، وأُنسى حديث فاطمة وما وعدته وما صوّرت له من أمانى وآمال . ولم يذكر عبد الله إلا هذا الوجه الجميل ، وهذه النفس السمحة ، وهذا الخلق الرضىّ ، وهذا الحديث العذب يقع من قلبه مواقع الماء من ذى الغُلّة الصادى . هنالك عاد إلى وجه الفتى إشراقه و بهجته ، وعاد إلى قلب الفتى غرامه وحبه . وهنالك انتصر الشباب على الحزن والسرور معاً . ثم أقبل الأصيل فأسبغ على مكة وما حولها رداء خفيفاً من الحزن . وخرج الفتى من عند آمنة راضياً ناعم البال ، ولكن صوتاً بعيداً يبلغ قلبه فيمسه مسّاً خفيفاً . خرج الفتى ليسعى فى تهيئة رحلته ، ولكن هذا الصوت البعيد أخذ يدنو من قلبه قليلاً قليلاً :

عَرِّجْ علينا فأقم ساعةً   فعندنا إن شئت رَوْحٌ وراحْ

ومع أن الفتى قد ولّى وجهه شطر بنى زُهْرة ومضى فى طريقه إليهم ؛ فقد شغله هذا الصوت عن بنى زهرة وعن عُروضهم وتجارتهم ، وشغله عن القافلة ورحلتها من غد ، وشغله عن نصح أبيه وتشجيع إخوته ، وشغله عن كل شىء . ولم لا ! لقد كان يدنو منه شيئاً فشيئاً ، وكان كل ما دنا منه ارتفع واتسع وأخذ عليه كل سبيل ، حتى لكأنه كان يسمعه من كل ناحية . و ينظر فإذا هو فى طريقه لا إلى دور بنى زهرة ؛ بل إلى دار فاطمة بنت مُرّ . و ينظر الفتى فإذا هو أمام الدار ، و إذا هو يدخل من الباب ، و إذا هو يرى الجارية السوداء تلقاه باسمة ، وتحييه قائلة : أسرع يا زين قريش فقد أبطأت وطال انتظار مولاتى

لك . وينظر الفتى فإذا هو فى ذلك المجلس الذى ترك فيه فاطمة آخر الضحى ، وإذا فاطمة قد قامت له وأقبلت عليه ، ولكنه لم يفطن لشىء ما كان ليفوته لو أن أمره كله قد كان إليه حقاً : لم يفطن لهذا الفتور السريع الذى ظهر على فاطمة حين وقع بصرها عليه . على أنه لم يلبث غير قليل حتى أحس هذا الفتورَ وأنكره ؛ فقد تلقته الفتاة فرحة بلقائه أول الأمر ، ولكنها لم تكد تُثبت بصرها فيه حتى هدأ هذا الفرح ، ودعته فى رفق إلى أن يجلس. وما كاد يستقر فى مكانه حتى أقبل عليها جذلان مسروراً وهو يقول : رأيت أنى لم أكذبك ولم أخلفك ، وإنما أقبلت مع المساء . لئن كانت الدار قد خلت لنا فى الضحى فهى الآن أدنى إلى الخلو ، ولئن كان الرقيب قد نأى عنا فى الضحى فهو الآن أمعن فى النأى ، ولئن كان النعيم قد عزّ لنا فى الضحى فهو الآن أدنى منالا . قالت وقد أطالت النظر إليه والتحديق فيه : ليتك لم تَعِد ، وليتك إذ وعدت أخلفت موعدك ! . فحدثنى ماذا صنعت منذ فارقتنى ، فإنى لا أرى فى وجهك ما كنت أراه فى الضحى من الإشراق ، ولا أرى فى جبينك ما كنت أراه فى الضحى من الضوء ، ولا أسمع فى صوتك ما كنت أسمع فى الضحى من هذه النغمات الحلوة التى كان يملؤها الحنان ! إنما أنت الآن فتى من فتيان قريش يبتغى لذة ومالا . إن فى أحداث الزمان لعجبا ! ما أسرع ما يتغير الرجال ! . قال : وأين ترين هذا التغيير ؟ وماذا تنكرين منى ؟ لقد كنت بك مشغوفا فى الضحى ، وكنت أدافع هذا الشغف ، ولقد كنت مقبلا عليك فى الضحى ، وكنت أخفى هذا الإقبال . فالآن وقد

أرسلت نفسى على سجيّتها ، وتركت قلبى يعرب عما يجد ، ويصوّر ما يحس ، تلقيننى هذا اللقاء ! هَلُمّ ! لقد خلت لنا الدار ونأى عنا الرقيب وأمكنت لنا الفرصة . قالت : لقد كنت تفكر فى الضحى أو تريد التفكير ، وكنت تروّى فى الضحى أو تريد التروية ، فالآن دعنى أفكر وهَبْ لى سعة من وقت ، فإنى لا أدرى ما الذى يصرفنى عنك ويخيفنى منك . ولو أنصفت نفسك وأنصفتنى ؛ لانصرفت عنى الآن ومضيت فيما كنت فيه من تهيئة رحالتك إلى الشام . قالت ذلك ونهضت متثاقلة ، فمضت حتى اختفت ولبث الفتى حائراً لا يدرى ماذا يأتى من الأمر . وكأنّ حاجباً قد أزيل عنه ، وأمراً قد كشف له ، فوثب ومضى مسرعاً حتى جاوز الباب وأخذ طريقه إلى بنى زُهرة . وقضت فاطمة ليلا طويلا ثقيلا . حتى إذا كان الصبح أقبلت عاتكة تسعى تريد أن تعلم علمها ، فرأت فتاة محزونة كئيبة . فلما سألتها عن خطبها قالت :

إنى رأيت مَخيلةً عرَضت ... فتلألأت بحنَاتِم[1] القطْر
فلَمَأْتُها[2] نوراً يضىء له ... ما حوله كإضاءة الفجر
ورأيتــه شرفاً أبوء به ... ما كل قادح زَنْدِه يُورى
لله ما زهْرِيّةٌ سلبت ... ثوبيك ما استلبت وما تدرى

قالت عاتكة : لقــد ظننت أن حبكن فى البادية كحبنا فى الحاضرة ، وما كنت أحسب أنه يتجاوز الشباب ويرقَى إلى السّحاب ! قالت فاطمة : لا تهزئى ، فقد ذهبت آمنة بخير ما كنت أحب .

(١) الحناتم . السحائب السود . (٢) لمأتها : أبصرتها ولمحتها .

البين

لم تُظهر آمنة ارتياعا للوداع ، ولا التياعا للفراق ؛ ولم تصعد من صدر آمنة زفرة ولا انحدرت من عين آمنة عبرة . وإنما كان وجهها هادئاً منبسط الأسارير ، وكان صوتها مطمئناً لم تفارقه عذوبته الحازمة حين أقبل زوجها عليها يودّعها آخر السحر ، وقد أخذ الفجر يتنفّس فى دعة ، ويمس بأصابعه الرفيقة ما حول مكة من الرُّبَى ، وكان عبد الله يدافع حزناً عميقاً كان يريد أن يظهر على وجهه وينطلق على لسانه ، وكان يتكلف من التجلد والتصبُّر ما لا بد منه ليكون فتى من فتيان قريش ليس للجزع على نفسه سلطان ، ولا للضعف إلى قلبه سبيل . ومع ذلك فقد اتصلت عيناه الحادّتان بوجه امرأته الجميل اتصالا طويلا كأنما كانتا تريدان أن تطبعا صورته الحلوة الهادئة فى نفس الفتى لتكون له رفيقاً مؤنساً فى سفره الشاق الطويل . ولم تجرؤ آمنة على أن تطيل النظر فى وجه زوجها كما كان هو يطيل النظر فى وجهها ، إنما كانت عيناها ترتفعان إلى وجه الفتى ثم لا تلبثان أن تنخفضا حياء واحتشاماً وصبراً . حتى إذا خرج الفتى ليلحق بإخوته الذين كانوا ينتظرونه غير بعيد ليصحبوه إلى حيث يودّع أباه وأمه ، ثم إلى حيث عسكرت القافلة تنتظر الإيذان بالرحيل ، نظرت آمنة فإذا

عيناها لا تبكيان ، و إذا قلبها لا يخفق ، و إذا شخصها كله هادئ مطمئن لا تظهر عليه آيات الجزع ولا أمارات الذهول . ومع ذلك فقد كانت نفسها تبكى بكاء مراً ، وكان قلبها يشكو شكاة الطائر المهيض ، ولكن أصداء هذا البكاء وهذه الشكاة لم تكن تتردد إلا فى أعماق الضمير ، كانت آمنة ثابتة للخطب مطمئنة له ، كأنما أذعنت للحوادث إذعاناً ، وكأنما أخذت تروض نفسها على صبر لم تعرفه نساء قريش ، وتهيئ نفسها لحزن طويل لم تألفه أترابها اللاتى لم يكدن يذقن لذة الحياة .

وما أشرقت الشمس وما ارتفع الضحى حتى كانت القافلة قد بدأت طريقها الطويلة إلى غايتها البعيدة ، وحتى كان كثير من شباب مكة وأحداثها يُشرفون من كل مرتفع ، ويمدون أبصارهم إلى حيث مضت العِير ؛ ليروا منها ما يستطيعون أن يروه ؛ قبل أن تنقطع بينهم و بينها الأسباب . وكان بيت آمنة فى هذا الوقت قد امتلأ بنساء بنى هاشم و بنى زهرة ؛ أقبلن عليها يعزّينها و يسلّينها و يعاونّها على احتمال هذا الحزن الجديد .

ولكنها لقيتهن كما تعوّدت أن تلقاهن من قبل : باسمة فى حزن ، نشيطة فى هدوء ، ولم تعنهن على أن يطلن الحديث فى الوداع والرحيل ، وفى القافلة وما يتصل بها من الأمر ، فأخذن فيما كنّ يأخذن فيه من أحاديثهن المألوفة فى كل يوم ، وكان عبد المطلب قد ذهب إلى مجلسه من المسجد كدأبه فى كل يوم ، فتلقّاه أبناؤه بالتحية وتلقاهم هو بالدعاء ، وجلس وجلسوا من حوله يتحدثون عن القافلة كما كانوا يتحدثون عنها من قبل ، وكان الشيخ يسمع لهم

و يردّ عليهم ، ولـكنه كان يجد فى نفسه حزناً عميقاً لاذعا ، لم يكن تعوّد أن يجده حين كان يرحل أبناؤه غير عبد الله مع القوافل إلى اليمن أو إلى الشام ، ولا حين كان يرحل هو تاركا أبناءه وأهله ، وكان الشيخ يحس كأن له شخصين مختلفين أحدهما حاضر بمكة يأخذ مع أبنائه وغيرهم من قريش بأطراف الحديث ، والآخر غائب عن مكة قد فصل مع العير ، وأخذ قصد الشام يصاحب هذا الفتى الذى ارتحل ولم يكن من الحق أن يرتحل ؛ لو أن عبد المطلب طاوع نفسه واستمع لصوت الضمير . وكان هـذا الشخص الغائب يرسل إلى الشيخ صـوراً قويّة متلاحقة تمثل الطريق التى تسلـكها العير والأحياء التى تمر بها ، واستقبالَ هذه الأحياء للعير واحتفاءها بها ومتابعتها لها . وتمثل له ابنه آخذاً فى الحديث مع رفاقه كاتماً ما يجد من حزن لفراق أهله و إخوته و بلده . وكثيراً ما كان هذا الشخص الغائب يسبق العير فى طريقها إلى الشام ، ويعود إلى عبد المطلب بصور هذه الطريق ، فيثير فى نفسه ذكرى ، و يثير فى نفسه أملاً ، ويثير فى نفسه إشفاقاً ، لأنه كان يستحضر ما كان يلقَى فى سفره إلى الشام من خير وشر ، ومن راحة وجهد ، وكان يرى أن ابنه سيلقى مثل ما لقى ، وسيحس مثل ما أحس ، فيبتهج حيناً ويبتئس حيناً آخر . وكان على هذا كله لا يستطيع أن يدافع خاطراً يُلِمّ به من حين إلى حين ، فيصوِّر له يوم الفداء ، و يصوِّر له هذا الصراع العنيف الذى كان بينه و بين الموت فى ذلك اليوم ، والذى كان موضوعه هـذا الفتى الذى تُرقل به مطيته الآن نحو بلاد الروم . وكان كلما

فكر فى ذلك أحس خوفاً مرًّا تظهر آثاره على وجهه المشرق الوقور ، كأنما كان يسأل نفسه : أفى الحق أن قد انتهى هذا الصراع بينى و بين الموت ؟ أفى الحق أنى قد استخلصت هذا الفتى ووهبته للحياة المتصلة والبقاء الطويل ؟ إن الدهر لكثير الغدر ، مشغوف بالخداع ، و إن من حولنا لقُوًى خفية إن يكن منها الخيِّر المسعف ، فإن منها الشرِّير الخاتل . و إن هذه القوى الشريرة لتجد لذّة سيئة فى تضليلنا ، والعبث بنا ودَفْعِنا إلى الشىء كأنه الخير كل الخير ، حتى إذا اندفعنا إليه وتورّطنا فيه ؛ انصرفت عنا ساخرةً منا ، وتكشّفت لنا الأحداث عن الشر والنكر والبلاء . ومن يدرى ! لعل قوة خفيّة من هذه القوَى الخاتلة قد خدعتنى وَمكَرت بى ، وخيّلت إلىّ أن فى حمل هذا الفتى على الرحلة مع شباب قومه وكهولهم نفعاً له و إصلاحاً ؛ على حين لم تكن تريد به إلا الشر ، ولم تكن تريد بى إلا النكر . ولعلها أن تكون قد أرصدت له فى الطريق رصداً وكادت له فى السفر كيداً . وكان الشيخ إذا ألمّ به الخاطر وانتهى به التفكير إلى هذه الصورة امتلأ قلبه بهمّ شاغل عنيف ؛ يكاد يقطع عليه حديثه مع من كان حوله من قومه ، و يكاد يُنهضه قائماً و يسعى به إلى حيث يركب أسرع نجائبه ليلحق بابنه و يردّه إلى مكة . فكان الوقار وحده يكفّه عن ذلك ، و يردّه إلى أن يأخذ نفسه بالصبر والاحتمال ، ويحتفظ بما فى قلبه من الهمّ سرًّا مكتوماً لا يظهر عليه أحدٌ غيره ، ولا يناجى به إلا ضميره .

وكذلك اتصلت حياة الشيخ منذ ارتحل ابنه مضاعفة : يحيا مع أهل مكة

ويضطرب فيما يضطربون فيه ، ويمضى مع القافلة ويشاركها فيما تجد من مشقة الرحيل وراحة المقام ، وربما شاركها فى أحاديثها وآمالها ، وربما شاركها فى خوفها وثقتها ، ثم ربما فكر فى آمنة فأطال التفكير . وماله لا يفكر فيها وقد كانت فى حجر عمها وُهَيب ، فلما زفت إلى عبد الله أصبحت فى كنفه هو ، ولا سيما بعد أن سافر زوجها وبقيت هى وحيدة محزونة ليس لها مُسَلٍّ عن الوحدة ، ولا معين على الحزن ! . لذلك كان الشيخ شديد العطف على هذه الفتاة ؛ يزورها فيكثر زيارتها ويطيل المقام عندها ، ويلح على هالة فى أن تفعل فعله فتزور آمنة وتستزيرها ، ولا تُخلى بينها وبين الوحدة ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

وفى الحق أن الأسابيع الأولى التى تبعت رحلة عبد الله قد مرّت على آمنة مرّاً سريعاً يسيراً . فما أكثر ما كان يزورها نساء بنى هاشم ويستزرنها ! وما أكثر ما كانت تجد عزاء وراحة فيما كان ينالها من بر الشيخ وأزواجه ، ومن ودّ سمراء خاصة ! . على أن حياتها كانت كحياة عبد المطلب ؛ مقسمة بين مكة وبين الطريق التى كانت تسلكها القافلة ، فكانت تحيا حياة النساء من حولها فى قليل من العمل وشىء من الحديث ، وكثير من الصمت ، وكانت تتبع عبد الله فى طريق تتخيلها ولا تحققها . وأنّى يكون لها تحقيق الطريق وهى لم ترتحل ولم تجُب أقطار الأرض ، إنما كانت تسمع أحاديث الناس عما يجدونه فى طريقهم إلى الشام وإلى اليمن فتصوّره لنفسها

كما استطاعت ، وترى زوجها فى أطوار[1] المسافرين فتبتهج لذلك قليلا وتشقَى به كثيراً . وأصبحت آمنة ذات يوم تجد فى نفسها شعوراً غريباً لا تدرى أألمٌ هو أم لذة ؟ أحزنٌ هو أم سرور ؟ . رأت فيما يرى النائم كأن آتياً قد جاءها فوقف منها غير بعيد ، وحاولت أن تتبين شخصه فلم تستطع ، وحاولت أن تحقق صوته فلم تستطع . وما كانت تدرى أكان رجلا أم امرأة ، وما كانت تدرى أكان شيخاً أم شاباً ، وإنما كانت تعلم أنه كان شبحاً مؤنساً عذب الصوت ، دنا منها حتى إذا كاد يمسها تحدّث إليها فى رفق كأنه يناجيها ويُسِرّ إليها سرًّا . فقال : أتعلمين أنك ستصبحين أمًّا ؟ . قالت : ماذا تقول ؟ لم أفهم عنك . قال : أتعلمين أنك حامل ؟ قالت لا . قال : فاعلمى إذاً أنك ستكونين أمًّا لخير مَنْ حملت الأرض من الناس . ثم نظرت فلم تر شيئاً . ثم استيقظت ونظرت من حولها فإذا الصبح قد أخذ يشرق ويضىء كل شىء . هنالك فكرت آمنة فيما رأت وفيما سمعت ، وأنكرت آمنة ما رأت وما سمعت . وسألت نفسها فإذا هى لا تعلم أنها قد أنكرت من أمرها شيئاً ، إنما هو اضطراب يسير كان يُلِمّ بها من حين إلى حين قبل العُرْس ، فلا غرابة فى أن يلمّ بها بعده . وما كانت تقدّر أن الحمل يسير إلى هذا الحدّ ، لا تشعر المرأة به ولا تجد له عرضاً من الأعراض غير مألوف ، على أنها لم تصدّق ما سمعت ، ولم تستطع مع ذلك أن تكذبه ، فظلت منه فى شك مريب ، واستشعرت

(١) أطوار المسافرين : أحوالهم المختلفة . الواحد طور وهو الحال .

له خوفاً مقلقاً وأملاً لذيذاً . وظلت فى حيرتها هذه الحلوة المرة حتى ارتفع الضحى ، وأقبلت إليها نساء بنى هاشم وفيهن سمراء وفاطمة بنت عمرو وهالة بنت وُهَيب . فقصت عليهن فى استحياء ما رأت وما سمعت ، وسألتها عن بعض الشىء ، ثم رجّحن لها صدق الرؤيا . ووصفت لها سمراء تمائم تقدمت إليها فى أن تحملها لتردّ عنها الشر ، وتذود عنها مزعجات الأحلام .

من ذلك اليوم ازدادت نفس آمنة رضًى واطمئناناً ، واحتملت بُعْدَ زوجها عنها فى شجاعة لا مرارة فيها ولا حرمان ، وأخذت تفكر فى زوجها مبتسمة له ، وتنتظر عودته القريبة فى شىء من الغبطة والسرور عظيم ، وأخذت تقدّر ابتهاجه حين يعود فيعلم من أمرها مالو علمه الآن لهوّن عليه السفر ومشقة النوَى ، وعلّقت آمنة ما وُصِفت لها من تمائم ، ولكنها لاحظت أنها ما كانت تفيق من نوم إلا وجدت تمائمها ، وقد انقطعت أسبابها وسقطت عنها . فلما تكرر ذلك أعرضت عن التمائم ولم تحفِلْ بها ، وأخذت تنتظر أعراض الحمل ، وتهيىء نفسها لمثل ما احتملت هالة من ألم حين كانت تنتظر حمزة ، ولكنها انتظرت وأطالت الانتظار ، فلم تجد شيئاً ولم تشكُ ألما ولم تَضِق بالحياة ، ولم ترغب عما كان يتاح لها من لذاتها اليسيرة . ومع ذلك فقد مضت الأيام والأسابيع ، ولم تشكّ آمنة فى أن الأحلام لم تَكْذِبها . وإذاً فممتازة هى من النساء ! يألَمْنَ ويشكون ويضقن بكل شىء ! ويزهَدن فى كل شىء ! وهى لا تألَمُ ولا تشكو ، وهى لا تضيق ولا تزهد ولا تجد ثقلا ، وهى تتحدث بذلك إلى هالة وإلى سمراء وإلى

فاطمة فينكرونه ، و يعجَبن له و يستبشرن به ؛ على أنها لم تـكن تتحدث إليهن بكل شىء ؛ وأ كبر الظن أنها كانت تُشفق أشد الإشفاق إن وصفت لهن كل ما تجد أو بعض ما تجد أن يسخرن منها و يتّهمن عقلها ، و يَظنّن بها الظنون . فقـد كانت آمنة فى حياة سعيدة لم تعرف مثلها : ما أحسّت من رضى النفس واطمئنان القلب وراحة الضمير ، مثل ما كانت تحس فى تلك الأيام ، وما ذاقت من عذوبة النوم ، ولا استمتعت من جمال الأحلام مثل ما كانت تذوق وتستمتع به فى تلك الليالى ، إن كانت لتأوى إلى فراشها فيأخذها نوم هادئ رفيق ، ثم تمثل لعينيها مناظر فيها جمال وروعة ، وتلقى فى أذنيها أصوات حـلوة كأنها غناء الملائكة ، وتقضى الليل كله فى لذة غريبة نادرة ، حتى إذا انجلى جبين الصبح أفاقت موفورة القوة شـديدة النشاط ، لا تجد كسلا ولا فتوراً ، وما هى إلا أن تستعذب آمنة أحلام الليل ، فتود لو قضت وقتها كله نائمة مغرقة فى هذه الأحلام ، ثم تود لو لم يزرها أحد ولم يتحدث إليها أحد لتستحضر فى اليقظة ما كانت تبتهج به أثناء النوم ، ولـكنها قرشيّة تعرف كيف تملك نفسها ، وتضبط أهواءها ، وتلقَى الناس بمثل ما كانت تلقاهم به من البشر الهادئ البرىء من الإسراف فى الابتئاس أو الابتهاج .

وأخذت قريش تنتظر قفول العير وتستعدّ له ، وأخذت الأسر تهيّئ لاستقبال العائدين . وكانت آمنة كغيرها من نساء قريش تنتظر رجوع زوجها ، وتتهيأ له سعيدة مرتين : سعيدة بمَقْدَمه ، سعيدة بهذا النبأ الذى

مستلقاه به إذا خلا إليها ؛ ولم يكن عبد المطلب أقل قريش انتظاراً للقافلة ، وتحدثاً عنها وتحرّقاً إلى لقاء بعض من كان فيها . وأقبل البشير فأذّن فى مكة أن مَقْدَم العِير قريب ، وخفّ شباب قريش يلقون العِير قبل أن تبلغ الحرم . واستعد كهول قريش للقاء العير ما دخلت مكة ، وازينت نساء قريش للقاء الأزواج والإخوة والأبناء ، وخرج إخوة عبد الله فيمن خرج ، وانتظر عبد المطلب فيمن انتظر ، وازيّنت آمنة فيمن ازين ، وأعدت فاطمة بنت عمرو طعاماً غير مألوف . ولكن إخوة عبد الله كانوا أسرع من عاد من استقبال العير ولم يعودوا مبتهجين ولا مغتبطين . ولم يكد يراهم عبد المطلب حتى وقع فى نفسه حزن ثقيل ، ولم يكد يسألهم عبد المطلب حتى عرف أن ابنه قد مرض فى الطريق ، فتخلّف فى يثرب ليمرّض عند أخواله من بنى النجّار . واضطرب الشيخ و بنوه بين حزنهم للمريض وحزنهم لأنفسهم . وخاف الشيخ على آمنة ، وخاف أبناؤه على أمهم فاطمة . وقضى الشيخ و بنوه ساعة كانت فيها حيرة سوداء مظلمة ثقيلة الحمل ، ثم ثاب إلى الشيخ حلمه وعاد إليه بَصَره بالأمور وحزمه فى تصريفها ، فلم يفكر فى نفسه ، ولم يفكر فى آمنة ولا فاطمة ، وإنما فكر فى المريض ، فندَب أكبر بنيه ليرحل من فوره إلى يثرب و يشهد من قرب تمريض أخيه . وأبى الشيخ أن يهمّ بشىء أو يفكر فى شىء حتى يفصِل ابنه من مكة . وما هى إلا ساعة من نهار حتى كان أكبر أبناء عبد المطلب فى طريقه إلى يثرب لا يلوى على شىء . هنالك رجع الشيخ إلى نفسه فذكر يوم الفداء ،

وذكر ضحوة ذلك اليوم الذى أغرى ابنه فيه بالسفر وحضّه عليه ، وذكر يوم الرحيل ، وذكر خوفه وإشفاقه ، وذكر القوى الخفية الماكرة التى كان يخافها ويُشفق منها . وحاول الشيخ أن يردّ إلى نفسه طمأنينتها ودَعَتَها فلم يوفّق . فينهض متثاقلاً كالمأخوذ حتى دخل على سمراء . فلما رأته سمراء لم تشكّ فى أن حادثاً قد حدث ، على أنها تلقّته مبتهجةً بلقائه فى شىء من العتب والمرارة . . ولكنه لم يلبث أن أنبأها بما علم وما فعل ، وبأنه مشفق على الفتى ، وبأنه لا يدرى كيف يلقى بهذا النبأ أمّ الفتى وزوجه . قالت سمراء وهى تبكى وقد ذكرت ابنها : فابدأ بنفسك فالقَها بهذا النبأ كما ينبغى أن يلقاها به الشيخ الوقور ، فما أحبّ لك هذا الجزع ، وما أعرف أنه يليق بك أو يجمُل منك . وما أرى أن على الفتى بأساً ، وما أظن إلا أن الفتى قد اتخذ هذه العلة اليسيرة سبباً إلى زيارة أخواله فى يثرب والمقام عندهم قليلاً . ومضت سمراء تعزّى الشيخ وتهوّن عليه الخطب . والله يعلم ما كان الخطب عليها هيّناً ولا يسيراً . ومضت سمراء تعزّى أم الفتى وزوجه وتهوّن عليهما الخطب ، وقد سبقت إليهما به الأنباء . وكانت طوالاً ثِقالاً تلك الأيام وتلك الليالى التى قضاها آل عبد المطلب ينتظرون أنباء المريض ، وكان مرّاً ذلك الحزن الذى كان يتجرّعه الشيخ إذا أمسى ، ويتجرعه إذا أصبح . ويتجرّعه كلما تقدّم النهار ، وكانت غِزاراً حارّةً تلك الدموع التى كانت تسفحها فاطمة فى غير هدوء ولا انقطاع . وكانت لاذعةً محرقةً تلك اللوعةُ التى كانت تجدها آمنة كلما خلت إلى نفسها وفكرت فى زوجها .

ولكن ! أ كانت تخلو إلى نفسها حقاً ! أ كان يتاح لها أن تفكر فى زوجها حقاً ؟ ! . يا له من جنين هذا الذى تحمله بين أحشائها ! . إنه ليصرِفها عن الحزن ، و إنه ليصرف عنها الحزن ، و إنه ليوقع فى قلبها عزاء حلوا ، و إنه ليملأ نفسها صبراً جميلاً . ومع ذلك فهذا الجنين أحق الناس بالرثاء إن حدث لمريض يَثْرِبَ حدث . أليس قد يولد يتيماً ؟ بلى ! لم يبق فى ذلك شك . ولا بد من أن تؤخذ النفوس باحتماله والصبر عليه . فقد عاد رسول عبد المطلب ينبئ قومه بأنه قد بلغ يثرب فلم ير فيها أخاه المريض ، و إنما رأى قبره فى ناحية من دور بنى النجّار .

وجلس شباب من قريش ذات ليلة عند فاطمة بنت مُرّ الخثعمية يسمُرون . فانتهى حديثهم إلى مرض عبد الله وموته فى يثرب . فلما سمعت فاطمة هذا الحديث غَشِيت جبينها المشرق سحابةٌ رقيقة من حزن ، وتحيَّرت فى عينها دمعة لم تلبث فاطمة أن كفكفتها ؛ وهى تقول فى صوت كأنه كان يأتى من بعيد : نَذْرٌ وفِداء ، ورِحلة ومَرَض ، وموت فى يثرب ! إن للقدر فى هذا الفتى من قريش لسرًّا .

ثم مضى القوم فيما كانوا فيه من لهو الحديث .

٦

القضاء

خرج تُبَّع من اليمن غازياً فى جيش لم تعرف الأرض مثله عدداً وعُدّة، وبأساً وحدّة، وغنى وثروة. فلم يدع تُبَّع فى طريقه شيئاً أتى عليه إلا احتواه، ولا بلداً مرّ به إلا أذلّه. وقد دان له النجد والغور، وأذعن له الحجاز والشام، وعَنَتْ لسلطانه مصر و إفريقيـة، وأمعن فى المغرب حتى مر بعمود هِرَقْل، ووطىء ساحل البحر المحيط؛ ذلك الذى كانت تقيم عليـه ظلمات دائمة لا تفرقها نجوم الليل ولا شمس النهـار. فلما رأى تُبَّع أن قد مَلَك مغرب الأرض عاد أدراجَه قاصداً الشرق، فأمعن فيه غزواً وفتحاً، وثلّ العروش وهزم الجيوش، وأسر الملوك واسترق السـادة العظماء، وملأ يديه من السَّبْى والمال. وما زال ماضياً أمامه يخرج من نصر إلى نصر، وينتقل من فوز إلى فوز، وجيشه المُظَفَّر يتبعه فرحا مرحا، تُغريه الحرب بالحرب، ويُطمعه الظفر بالظفر، ويُوَاتيه الحظ، حتى انتهى إلى أقصى الشرق، ووطىء ساحل البحر المحيط ذلك الذى تخرج منه نجوم الليل إذا كان المساء، وشمس النهار إذا كان الصباح.

هنالك انقلب تُبَّع راجعاً إلى اليمن، وفى نفسه حزن ألاّ يُتَاحَ له من الظفر أكثر ممـا أتيح له. وألاّ تُهَيَّأ له الوسائل ليغزو هذا البحر الذى

انتهى إليه من ساحل إلى ساحل ، ويرى هذه الطريق التى تقطعها الشمس وتقطعها النجوم حين تأوى إلى أحد ساحليه لتنام ، فتنام ولكن فى غير سكون ، وتهجع ولكن فى غير استقرار ، إنما تعبُر بها زوارق من ذهب وفضة ، وأخرى من لؤلؤ وياقوت . وما تزال هذه الزوارق تعبر فى دعة وهدوء حتى تبلغ الساحل الآخر ، فتصعد فى السماء لتبعث الضوء والحياة إلى الناس والأشياء . ونفس الإنسان واسعة الأمل بعيدة أمد الرجاء ، ولا سيما حين يُواتيها الحظ ، ويقدَّر لها الفوز ببعض ما تريد . وكانت نفس تُبّع فى أكبر الظن تؤمل فتبُعد فى الأمل ؛ كما عملت فأبعدت فى العمل ، وكانت تمنى لو أتيح لها أن تطأ أمواج هذا البحر بهذا الجيش الذى وطئت به أكناف الأرض ، ومن يدرى ! لعلها أن تظفر بزورق أو غير زورق من هذه الزوارق التى تعبر عليها النجوم . ومن يدرى ! لعلها أن تقطع طريق النجوم فى السماء بعد أن قطعت طريقها فى البحر ، وبعد أن قطعت طريق ضوئها على الأرض ؛ على أن نفس تبّع لم تكن تعرف اليأس وإن كانت تعرف الإرجاء ، فلم ييأس تبّع من غزو النجوم فى عُقْر دارها ، وإنما أرجأ ذلك إلى أن يتخذ له العدّة ، ويهيئ له الوسيلة ، ويعد له الأسباب .

عاد إذاً تبع سعيداً يرافقه الظفر والأمل . حتى إذا كان قريباً من اليمن وقف عند هذه المدينة الصغيرة التى كانت تسمى « يثرب » والتى ملكها لأول عهده بالخروج ، والتى ترك فيها أحد أبنائه يُشرف منها على بلاد العرب ، أنكر شيئاً لم يكن يقدره ولا يفكر فيه ؛ لم يخرج ابنه للقائه من

بعيد ، ولم يخرج للقائه من قريب ، ولم ير من حوله استبشاراً بمَقْدَمه ولا إكباراً لمنزله ؛ وإنما رأى حصوناً مغلقة وآطاماً قام عليها الجند كأنهم يتأهبون للقتال ، لم يحتج تبّع إلى بحث واستقصاء ليعلم أن القوم قد غدروا ومكروا ، وقتلوا ابنه غِيلةً ، وأبوا أن يتسلط عليهم أحد غيره ، أو أن يسود فيهم من ليس منهم ؛ وهم الآن يستعدّون للحرب ، ويتأهبون للدفاع عن أنفسهم مستميتين فى ذلك ، مزدرين ما سيلقَون من جَهْد ، وما سينزل بهم من بلاء .

ولم يكن من اليسير على تبّع أن يتبيّن العواطف التى كانت تثور فى نفسه ، والخواطر التى كانت تزدحم فى قلبه . فقد كان محزوناً أشدّ الحزن ، ملتاعا أشد اللوعة لفقد ابنه العزيز الذى كان يراه زينةً للملك ، وذخراً لدولته ، وقرّة لعينه قبل كل شىء . وقد كان مغضَباً أشد الغضب مُحْفَظاً أشد الحفيظة أن يثور به هؤلاء النفر من الأوْس والخَزْرج فيخرجوا عن طاعته ويجهروا بمعصيته ، ويقتلوا ابنه ، ويضربوا للأحياء من حولهم مثل التمرّد والثورة . وكان على هذا كله مُعْجباً بهذا النفر من الأوس والخزرج الذين لم يخافوه ولم يخشَوا بأسه ، ولم يمنعهم بطشه العظيم وسلطانه العريض أن يثوروا به ويخرجوا عليه ، ولم يدفعهم مَقْدَمه ومعه الظفر والأمل ، ومن ورائه هذا الجيش الضخم المنتصر ، إلى أن يسرعوا فيقدّموا له الطاعة والمعذرة ويلتمسوا عنده العفو والمغفرة . وإنما ثبتوا له كراماً ، وتلقَّوه أباةً للضيم ، حُماةً للحُرَم ، مستعدين لاحتمال المكروه .

على أنه لم يُطل الوقوف عند هذا الإعجاب بالأوس والخزرج ، والإكبار لحفاظهم وذودهم عن الدّمار . وإنما مضى يتبعه حزنه وغضبه ، فأقسم ليُدَمرنّ يثرب تدميراً ، وليُسوينّ حصونها وآطامها بالأرض هدماً وتحريقاً ، وليجعلن ما كان يحيط بها من الحدائق والرياحين ، ومن الشجر والنخيل ، صحراء جرداء كأن لم تعرف من قبل خُضرة ولا ظلا . ولم يرد أن يَستأنِى بذلك أو يبطىء فيه ، فما هى إلا أن يأمر كتائبه بالزحف ؛ مقدّراً أن الأمر لن يحتاج إلى وقت ولا إلى جهد ، ولن يكلّف جيشه الظافر مشقة ولا عناء . وأين يقع هؤلاء النفر من الأوس والخزرج من دول عظيمة أفناها ، و بلاد عريضة احتواها . وأين يقع قادتهم وسادتهم من هؤلاء الملوك الذين يرسُفون فى السلاسل والأغلال ، وقد جاء بهم أسرى من أقصى الشرق ومن أقصى الغرب ، ليجعلهم ملهى لأهل صنعاء حين يعود إلى صنعاء .

ولكن كتائبه لم تكد تتقدّم حتى تأخّرت ، ولم تكد تهجُم حتى ارتدت ، و إذا هؤلاء النفر من الأوس والخزرج أشد مضاء وأحسن بلاء مما كان يظن ، ومن كل من لقى فى فتحه البعيد من الجيوش والأجيال . لقد كان استهان أمرهم واستصغره ، لأنهم لم ينصبوا له الحرب حين مر بهم غازيا ، و إنما تلقوه مذعنين له مؤمنين لسلطانه . رأوا فيه رجلا منهم فلم يمكروا به ، ولم يكيدوا له ، حتى إذا رأوا من بغى ابنه وتجبُّره ما أحفظهم ثاروا للعزة ، وغضبوا للكرامة ، وقتلوا الطاغية وتأهبوا لحرب أبيه .

رأى تبّع هذا فازداد بالقوم إعجاباً ولهم إكباراً ، ونصب لهم حرباً

تلائم هذا الإعجاب والإكبار . ولكنه لم يلبث أن اشتد إعجابه وعظم إكباره حين أقبل الليل فإذا هو لم يبلغ من القوم شيئاً ، وإذا هم يعانون إليه أن قد أقبل الليل ، وأن حرب الليل ويل كل الويل ، وأنهم يضيفون عدوّهم فى الليل ، ويقاتلون عدوّهم فى النهار . هنالك لم يتمالك تبّع أن عطفته الرحم على قومه ، وأخذته الكبرياء بما فيهم من عزة وكرم ، وصاح : « إن قومنا لكرام » . ثم أمر من أذّن فى الجيش بالموادعة حتى يُشرق الصبح .

واتصلت الحرب طويلة مضنية بينه وبين هذا الحى من أهل يثرب : يقتتلون أشد القتال ما أضاءت الشمس ، ويتوادعون أحسن الموادعة ما أظلم الليل . حتى أخذ السأم يسعى إلى هذه النفس التى لا تعرف السأم ، وحتى همّ أن يستقبل الصباح بغارة مطبقة لا تُبقى ولا تذر ، فإمّا قهر القوم ، وإمّا قهره القوم .

وهو فى هذا النحو من التفكير والتقدير ، وإذا حاجب من حجّابه يدخل عليه فيلثم الأرض بين يديه ، وينبئه أن شيخين من هذا الحى المحالف للأوس والخزرج من يهود يستأذنان على الملك ، ويلحّان فى لقائه ، ويتقدّمان بما يتقدم به السفراء من حق الأمن والعافية والتكرمة ، فيأمر الملك بإدخالهما . فإذا كانا بين يديه لم يركعا ، ولم يسجدا ، ولم يلثما أرضاً ، ولم يعفرا خدًّا بالتراب ، وإنما هى تحية فيها الإكبار والإجلال ، وفيها عزة وأنفة ، وفيها شىء من التواضع والخشوع لم يألفها الملك من أهل هذه البلاد . فإذا أذن لهما بالجلوس

وسألهما عما أقبلا به ، قال أحدهما : أيها الملك لم نأتك سفيرين ولم نحمل إليك رسالة من عدوّك ، ولو قد عرفوا أنا نسعى إليك لحالوا بيننا و بين ذلك ، وللقينا منهم شراً . قال : فأنتما إذاً لاجئان إلىّ ، كارهان للقوم . وحدّث نفسه بأنه سيجد عندهما مايعينه على مايريد بالقوم ومدينتهم . قالا : كلا أيها الملك ! ما لجأنا إليك ولا كرهنا من قومنا شيئاً ، إنما أقبلنا ناصحين لك ، رفيقين بك ، نريد لو سمعت لنا أن ننهاك عن هذه الحرب التى لن تجدى عليك شيئاً ، ولن تُبلغك من هؤلاء الناس شيئاً . لقد أدركت وَتْرَك بمن سقط فى مَيْدان القتال من هؤلاء الناس ، فَحَسْبُك ما بلغت وانصرف راشداً . فإنك إن نصبت الحرب لهذا الحىّ ما بقى من عمرك ، وهو طويل ممدود لك فيه ، لم تجد إلى قهرهم سبيلاً . ولقد أبليت فأحسنت البلاء ، ولقد غزوت فأمعنتَ فى الغزو ، ولقد أزلتَ الممالك وأسرت الملوك ، ولقد نصبت لأقوى دول الأرض وأعظمها بأساً ؛ فلم تثبت لك ولم تمتنع عليك . ثم ها أنت ذا أمام هذه المدينة الصغيرة ، وهؤلاء النفر القليلين من قومك لا يتاح لك الظفر ولا يتأتّى لك الانتصار . ألم يكن لك فى هذا عبرة تدعوك إلى التفكير وتحملك على أن تسأل نفسك كيف دانت لك الأرض كلها وامتنعت عليك منها هذه الرقعة الضيقة ! . قال : لقد سألت نفسى وأطلت السؤال ، ولكنى لم أجد له جواباً . ولقد فرحت بكما حين علمت أنكما لا تحملان إلىّ سفارة ولا رسالة ، وقدرت أنكما ستدلاّنى على مكان يُؤْتَى منه هؤلاء الناس . قالا : لو شاء الله لأَتِىَ هؤلاء الناس من كل مكان ، فليست حصونهم ولا آطامهم بالمنيعة المؤشّبة ،

وليست السبيل إليهم بالعسيرة ولا الملتوية ، ولكن الله لا يشاء لأمر قضاه .
قال الملك : أفصحا ، فإني لا أفهم عنكما منذ اليوم . فما الله ؟ وأين يكون ؟
وكيف له أن يشاء ولا يشاء ؟ هل لكما فى أن تدلآنى عليه لعلى أتخذ إليه
من الأسباب ما يُرضيه أو يسلّطنى عليه ! فتضاحك الحَبْران وقالا : حقاً
أيها الملك إنك لا تفهم عنا منذ اليوم ، فليس الله ملكا كالملوك ، ولا قائداً
كالقادة ، ولا عظيماً كالعظماء . وما ينبغى لك ولا لغيرك من الناس أن تسأله
عما يشاء أو عما لا يشاء ، إنما ينبغى لك ولغيرك من الناس أن تعرف
سلطانه وعظمته ، ثم تُذعن له وتؤمن به ، وترضى بما يريد لا مجادلاً ولا
معانداً . قال : فمن هو ؟ وأين هو ؟ قالا : هو رب السموات والأرض ،
وهو الذى يتسلّط على كل شىء ولا يتسلّط عليه شىء ، وهو الذى يخلق
كل شىء ، وهو الذى منحك هذا الملك الواسع والسلطان العريض ؛ وهو
الذى إن شاء ردّك كواحد من رعيتك ، وهو الذى إن شاء سلبَك ما أنت
فيه وسلبك الحياة أيضاً . أرأيت إلى ما حولك كيف كان ومن أحدثه ؟ .
قال : هذا شىء قلما فكرت فيه أو سألت عنه ، وإنه مع ذلك لخليق
بالتفكير حَرِىٌّ بالسؤال . فمن يكون قد خلق الأشياء ، وقدّر لها نظامها ؟ .
قالا : فاسمع أيها الملك فإنا سنقرأ عليك نبأ الخلقِ كيف كان ، وأمرَ الخلق
إلامَ يصير . ثم قرأا عليه صحفاً من التوراة لم يكد يسمعها ويفقه بعض
ما فيها ؛ حتى لاَن قلبه وانبسطت نفسه وكُشِف عنه الغطاء ، فقال :
يا هذان إن ما تقولان لحقٌّ ، فعلّمانى علمكما ومُرَانى قبل ذلك بما أصنع

مع قومكما . قالا : أمّا قومنا فالرأى أن تدعهم ، فإن الله لم يقـدر لك أن تقهَرهم ، ولا أن تملك أرضهم ، إنمـا ادّخرهم وادّخر أرضهم لشىء سيكون فى آخر الزمان نجده عندنا مكتوباً فى هـذه الأسفار التى تتلوها عليك ، قال : وما ذاك ؟ قالا : نبىٌّ يخرج من هذا الصوب — وأشارا نحو مكة — فيمكُرُ به قومه ويأبَون عليـه ، ويكيدون له ، ويخرجونه من الأرض ، فيأوى إلى هذا البلد ، فيجد النصر والمنع ، ويجد العزّة والقوة ، وينشر دينه من هذه الآطام فيملأ به الأرض كلها ، ويخرج به الناس من الظلمات إلى النور . وما كان الله لِيُمَكّنك من أرض أعدّها داراً لنبيّه ، ومهبطاً لوحيه ، ومصدراً لنوره المبين . قال : أو تجِدان هـذا عندكما مكتوباً ؟ قالا : نعم ، ونجد عندنا مكتوباً أنك ستسمع لنا وتقبل نصحنا لك ، وتنصرف عن هذا الحىّ ، وأن قوماً من هذيل سيلقَونك إذا قرُبت من مَخْرَج هـذا النبىّ فيغُرونك به وببيت لله فيه ، وسيزعمون لك أن فى هذا البيت كنوزاً من الذهب والفضة ، ومن الدرّ والجوهر . فاحذر أن تسمع لهم أوتأتى ما يدعونك إليه . ولـكن اذهب إلى هذا البيت فأكرمه وعظّمه ، وطف به سبعاً ، وامنح أهله من العطف والبر والرعاية ما تقدِر عليه . قال : يا هـذان إنى مصدِّق لـكما ، مؤمن بمـا تقولان ، سامع لمـا تأمران به . ولـكنى لاأستطيع أن أنصرف إذا لم تصحَبانى ، فمـالى من صحبتكما بدٌّ ، ولابد من أن أعلم علمكما كله ، ولابد من أن أتخذ كما لى وزيرين أستنصحكما ، وأستعين برأيكما وفقهكما على ما يعرِض لى من الأمر . قالا : لك ما تحب من ذلك أيها الملك ، فسِرْ راشداً فنحن معك .

وأمر الملك مَن أذّن فى الجيش بأنه مرتحل مع الفجر . وارتحل الجند غير آسفين ولا محزونين . وأيهم لم تكن تضيق نفسه بهذا الحصار الطويل العقيم ، والدار قريبة وهو إلى أهله مشوق ! فلما قارب الملك مكة أقبل جماعة من هُذَيل يستأذنون . فلما أذن لهم قالوا : أيها الملك إنما سعى بنا إليك نصحنا لك ، وإيثارنا لرضاك . قال الملك فى نفسه : فهذه نبوّة الحبْرين قد صَدقت ، ثم أصغى إلى الهذليين . فقالوا : وستمر بمكة وفيها بيت يعظِّمه أهلها يعبدون ما ادّخروا فيه من مال وما كنزوا فيه من ذهب وفضّة ومن درّ وجوهر ، يطوفون حوله وينحرون له ، وقد نصبوا عليه الأوثان . قال الملك : فماذا تأمرون ؟ قالوا : ما نحب أن يفلت منك هذا الكنز ، فلو قد هدمته واحتويت ما فيه ، وأخذت أهله عبيداً لك ولأهل صنعاء ! قال الملك فى نفسه : الآن قد تمت نبوّة الحَبْرين . ثم قال للهذليين : لقد قبلت نصحكم وسمعت أمركم ، وإنى ماض فيما تريدون ، وسأعرف لكم حقكم علىّ ؛ ولكنى أريد أن تَقْدَموا معى على أهل مكة فتكونوا أول من يعمل فى هدم هذا البيت .

فلم يكد الهذليون يسمعون منه هذا القول حتى أُخِذوا ، وظهر على وجوههم الفزع والروع . فلما ألح الملك أظهروا من التلكؤ والتردد ما لم يدعْ للريب فى أمرهم سبيلا ؛ فأمر الملك بتعذيبهم حتى يعترفوا بالحق ، فلما ألح عليهم العذاب قالوا : أيها الملك ما أردنا بك إلا شرًّا ، إنا لنُكبِر هذا البيت ونعظِّمه ، ونرى له علينا حرمة ، ونعلم أن أحداً لم يحاول أن يَمسّه

بسوء إلا أهلكه الله . وقد وَتَرْتنا فى مَخْرَجِك الأول ، فقتلت الرجال ، وسُقت المال ، وسَبَيْت الحرائر ، وأذللت هذيلا ، ولم تكن قد عرفت الذل . فلما أعجزنا أن نثأر لأنفسنا بأيدينا أردنا أن نَكِل ثأرنا إلى من هو أقوى منك ومنا ، فأغريناك بهذا البيت واثقين بأن صاحبه لن يُخلى بينك وبينه ، ولن يمهلك إن حاولت الاعتداء عليه . قال الملك : إنما جزاؤكم على هذا الكيد أن تُقَطَّع أيديكم وأرجلكم من خِلاف ، ولكنى قد قسوت عليكم فى خرْجتى الأولى وأسرفت فيكم قتلاً وسبياً ، فسأهبكم الآن لأنفسكم ولأهلكم ، ولعل الله أن يجعل عفوى عنكم كفَّارة لما قدَّمت فيكم من سوء ، فاذهبوا فأنتم أحرار .

قال الحَبْران للملك : لقد أحسنت أيها الملك حين وضعت العفو عند القدرة موضع البأس والانتقام . وما نشك فى أنك تجد لهذا العفو لذة وراحة ، ولكن لذتك وراحتك لن تَعْدِل ما نجد من غبطة وسرور ، وقد أخذ دينُ الله سبيله إلى نفسك ، وبَسط سلطانه على قلبك ، فأنزل فيه اللين منزل القسوة ، والرحمة مكان العنف والشدة ، وكنا نحن وسيلته إلى ذلك . وإنا لنرجو أن يغفر الله لنا بهذا السعى بعض ما قدَّمنا من سيئة فى حياتنا . قال الملك : أوَ مثلكما يقدِّم السيئات أو يقترف الآثام ، وما رأيت خيراً منكما ولا أهدى إلى الحق ؟ ! . قال الحبران : أمعن أيها الملك فى قراءة كتب الله وتدبّرها ، وأنعم أيها الملك النظر فيما حولك من خلق الله وفيمن حولك من الناس ، فسترى أن الإنسان صغير مهما يكبُر ، ضئيل

مهما يعظُم ، ضعيف مهما يقوَ ، معرَّض للخطيئة مهما ينصَح لنفسه ، ومهما يأخذها بالمعروف ويجنّبها المنكر . قال الملك وقد كَبُرَ الحَبْرَان فى نفسه : ليتنى عرفتكما فى أوّل العمر ومبتدأ الحياة ، إذاً لاجتنبت كثيراً من الشر ، ولتنكّبت كثيراً من الذنب . ولكنى سأكون عند ما تحبان ، ولن تريا منى منذ اليوم إلا ما يُرضيكما .

وأقبل الملك على مكة فدخلها خاشعاً منيباً ، وطاف بالبيت وأعظم أمره ، ونحر للناس وأطعمهم وأذاع فيهم الخير والمعروف ، فلما كان من الغد قال للحَبْرين : إنى أُريت أنى أكسو هذا البيت . قالا : فافعل ما أمرت . فكساه خَصَفا[1] . ومضى يعظّم البيت ويُكرم أهله بياض يومه . فلما أصبح قال للحبرين : إنى أُريت كأن هذه الكسوة لا تليق بهذا البيت . قالا : فاكسه خيراً منها . فكساه وَشْياً ، وأمضى نهاره يعظّم البيت ويجزل المعروف بأهله . فلما أصبح قال للحبرين : إنى أُريت كأن هذه الكسوة لا تُرضى الله . قالا : فاجتهد فى إرضائه ما وسعك الاجتهاد . فكساه حريراً وديباجاً ، وزيّنه بالذهب والفضة والجوهر ، وفرّق العطايا بين الناس . ثم أصبح فقال للحبرين : لم أر الليلة شيئاً . قالا : فقد رضى إذاً رب البيت .

وارتحل الملك بعد ذلك إلى اليمن وقد سبقته إليها الأنباء بأنه قد ظفر ظفراً لم يظفره ملك من قبله ، وسبقته إليها الأنباء بأنه قد صَبَأ عن دينه وترك عبادة الآلهة التى كان يعظّمها ويسعى لها . وكان أهل اليمن قد تأهّبوا

(١) الخصف : سفائف تسف من سعف النخل .

للقائه فى حَفْل حافل وزينةٍ بارعة بالغة . فلما انتهت إليهم الأنباء بأنه قد صبأ[1] تنكَّروا له ، وأبَوْا إلا أن ينصبوا له الحرب ، وأن يصدّوا عن بلادهم ويردّوا عن حِمْيَر شر هذا الدين الجديد الذى جاءهم به من يثرب .

فلما بلغ الملك أطراف اليمن لَقِيته طلائع الأقيال[2] والأذواء منكرة له مُزْوَرَّة عليه . وقال قادتهم : لقد فارقتنا وأنت أبر أهل اليمن باليمن ، وأحب حِمْيَر لآلهة حمير ، وها أنت ذا تعود إلينا وقد آمنت لإلٰهٍ لا نعرفه وجحدت آلهتنا ، وقد استوزرت غريبين من عدوّنا تسمع لهما وتطيع ، وأعرضت عن رأى الأشراف والقادة من الأقيال والأذواء ، فلن نخلى بينك وبين هذه البلاد التى أنكرت أهلها وجحدت آلهتها . فارجع أدراجك فاتخذ لك ملكاً حول هذا البيت الذى لم يُرضك أن تكسوه الوشى ، حتى كسوته الحرير والديباج ، أو اتخذ لك ملكاً فى يثرب حيث دم ابنك ينتظر من يثأر له ، وحيث صَدَى[3] ابنك يدعو من يَسْقِيه . قال الملك : يا قوم لا تعجلوا ولا تُسرفوا على أنفسكم ، ولكن اسمعوا لى واسمعوا لهذين الحَبْرين ، فلو قد علمتم ما نعلم ، ورأيتم ما نرى لسلكتم سبيلنا ، ولقبلتم ديننا ، ولآمنتم بإلٰهنا الذى خلق السموات والأرض ، وآمن له من فيها من الإنس والجن ، ومن الحيوان والطير ، ومن الماء والهواء ، ومن الزهر والشجر . قالوا : ما نريد أن نسمع لك ولا لهما فانصرفوا عنا . قال الحَبْران للملك : فما يمنعك أن

---

(1) صبأ : خرج من دينه (2) الأقيال : ملوك حمير . والأذواء : ملوك اليمن

(3) كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذى لم يدرك بثأره تصير صدى — ويدعى الهامة أيضاً — فيزقو عند قبره يقول : اسقونى اسقونى حتى يدرك بثأره .

تدعوهم إلى ما يتداعون إليه إذا شجَر بينهم خلاف أو كانت بينهم فرقة ؟ . قال الملك : أوَتعلمان هـذا أيضاً ؟ قالا : نعم أليسوا يختصمون إلى النار إذا اختلفوا ! فخاصمهم إليها . قال الملك : يا قوم هـذان الحَبْران يدعوانكم إلى الإنصاف و يأخذانكم بالعدل . إنكم لتختصمون فيما بينكم فتحتكمون إلى ناركم تلك المقدّسة ، التى تخرج من أعماق الغار لها زفير وشهيق وقد ارتفع لهبها فى السماء ، فلا يكاد يراها الظالم حتى يصعَق ، ولا يكاد يراها المظلوم حتى يحسّ المَنَعة والقوّة . هلمّ فلنحتكم إليها ، فأينا استطاع أن يثبت لها و يصبر على حرّها فهو صاحب الأمر ، وأينا فزِع منها وفرّ من أُوارها فهو الظالم المعتدى . فأدار القوم أمرهم بينهم ساعة ، وقال بعضهم لبعض : لقد دعاكم الملك إلى الإنصاف ، وما ينبغى أن نأبى على ماكنا مالا يأباه أحد منا على صاحبه ، ومالا تأباه ملوك اليمن على سُوقتها ، فتعالَوْا نجبه إلى مايدعونا إليه ، وتعالوا نخاصمه إلى النار .

ثم أجمعوا أمرهم ليختصمُنّ إلى النار إذا كان الغد وليُقبلنّ كل فريق ومعه حجّته وسلطانه . وما أشرقت شمس الغد حتى كان أقيال حمير وأذواؤها قد أقبلوا فى عددهم وعُدّتهم ، وفى حَفْلهم وزينتهم يحملون أوثانهم وأصنامهم . وأقبل الملك ومعه الحَبْران قد تقلّدا مصاحف التوراة ، وكانت نارهم المقدّسة لا تُرى ولا تحَسّ من بعيد . و إنما تجيب إذا دُعيت ، وتخرج إذا نوديت . فلما دنَوْا من الغار الذى كانت تقيم فيه دعَوْا وأطالوا الدعاء ، ونادوا وألحوا فى النداء . و إنهم لفى دعائهم وندائهم ، و إذا دخانٌ كثيف ضيِّق يخرج من

الغار كأنه السهم ، فلا يبلغ الهواء حتى يمتد طولاً و يتّسع عَرْضاً ، وحتى يملأ الجو كثيفاً ثقيلاً ، قد حجب الشمس ، وكاد يأخذ أنفاس الناس . وما يزال الدخان يخرج من الغار ، ثم يمتد فى الجو و ينتشر ، وحِمْير تتقهقر كلما ألح عليها . والملك والحَبْران قد ثبتوا فى مكانهم ، لا يجدون ألماً ولا يلقَوْن ضرًّا . حتى أخذ صوت يسمع كأنه فَحِيح الحيّات . ثم أخذ هذا الصوت يعظم كلما دنا من فوهة الغار ، و إذا زفير وشهيق ، ثم لهب يندلع من الغار ، ولا يلبث أن يحيط بكل شىء ، ويلتهم كل شىء ، وحمير جادّة فى الهرَب قد تركت أوثانها وأصنامها ، وتخففت من زينتها وسلاحها ، والنار تتبعهم ملحّة فى اتباعهم ساعة من نهار ، ثم أخذت النار تتراجع شيئاً فشيئاً حتى دنت من فم الغار ، و إذا هى تقصُر وتضيق وتتضاءل حتى كأنها لسان الغار ، ثم لا تلبث أن تختفى كأن الغار قد أطبق عليها شفتيه ، و إذا الشمس مشرقة والجو صفو ، والملك والحبْرَان قائمون فى مكانهم لم يصبهم أذى ، ولم يمسسهم ضر ، ولم تتغير نَضْرة وجوههم ، ولم يفارق ثغورهم الابتسام ، وتثوب حمير إلى ملكها مسرعة مذعنة ، وقد افتقدت آلهتها وسلاحها وزينتها فلم تجد شيئاً قط ، لأن النار التهمت كل شىء .

هنالك هادت حمير وآمنت للملك والحبْرين . ومنذ ذلك اليوم استقر فى بلاد اليمن كتاب من كتب السماء .

٧

الردة

عاش تبّع ما شاء الله له أن يعيش ، ومات تبع حين قضى الله عليه الموت . وكان قد أنفق حياته منذ عاد إلى اليمن فى صلاح ونسك ، وتفقه للتوراة ونشر للدين . فلما فارق هذه الدنيا نهض بملك حمير من بعده أكبر أبنائه حسّان ، وكان تقياً ، وكان ورعا ، وكان ديّاناً ، وكان قد ورث عن أبيه وعن أجداده حباً للغزو وكلفا بالفتوح . وكان الناس يتنبئون قبل تهوّد أبيه بأنه سيكون أبعد ملوك اليمن أثراً فى الغزو والفتح ، وأعظمهم بسطة فى الملك والسلطان . فلما هاد تُبّع اقتفى حسان أثره ، فظهر عليه حب للنسك وانقطاع للعبادة ، ورغبة فى الفقه بالدين ، خدع الناس عنه وغيّر رغبتهم فيه حتى إذا نهض بأمور الملك لم يشكّ أصحابه فى أن اليمن ستنفق أياماً هادئة وادعة ، تنعم فيها بالأمن والسلم واللين ، ولكن الميل القديم الذى كان يجده حسان إلى الحرب والتسلط ، والميل الجديد الذى كان يجده إلى الفقه والدين ؛ لم يلبثا أن التقيا وامتزجا ، وأصبحا ميلا واحداً يوفّق بين هاتين النزعتين المختلفتين أشد الاختلاف ، وأصبح حسان ذات يوم ماضى العزم شديد البأس ، عظيم النشاط ، فلم يكد يخرج للناس حتى دعا إليه الحَبْرين ، وكان لهما معظّماً يستشيرهما فى كل ما يأتى من الأمر . فلما أدخلا عليه قام لهما وأدنى مكانهما ،

ثم قال : قد علمتما أنى أعظِّم من أمركما ما كان يعظِّم أبى ، وأشاوركما فى كل ما أنشط له من همّ قريب أو بعيد . وقد جعلت منذ أيام أسمع داعياً قوياً ملحاً لا يفارقنى يقظان ولا يفصِل عنى نائماً ، وهو يهيب بى فى كل لحظة أن جرّدْ نفسك وجيشك لجهاد الكافرين ونشر الدعوة إلى الدين ؛ حتى يؤمن بكتاب الله أهل الشرق والغرب ، وحتى يذعن لسلطان الله كل جيل فى الأرض ، وحتى يصبح حكم التوراة حكم الناس جميعاً . وقد أنكرت دعوة هذا الداعى أوّل الأمر فلم يزده الإنكار إلا إلحاحاً فى الدعاء . وأبَيت عليه بعد ذلك فلم يزده الإباء إلا إصراراً على ما كان يدعونى إليه ، وإنى لأتحدث إليكما الآن وصوته الملحّ الحازم يملأ سمعى وقلبى وعقلى ، ويكاد يلهينى عنكما ويصرفنى عما أريد أن أقول لكما . وقد عزمت بعد طول التفكير أن أستجيب لهذا الداعى ، وأن أخرج بالجيش غازياً فى سبيل الله ما يلينى من الأرض . فإن قضى الله لى بالنصر مضيت أمامى حتى يأذن الله لى بالوقوف . ثم سكت ينتظر جواب الحبرين وهو يقدِّر أن كلامه قد وقع منهما موقع الرضا . ولكن عظُمَ دَهشه حين سمعهما ينصحان له بالقعود ويلحّان عليه فى ألاّ يسمع لهذا الصوت ولا يستجيب لهذا الدعاء . وهما يقولان له : أيها الملك إياك والغرور الذى يصيب الملوك إذا عظُم بأسهم واشتدّت قوّتهم ، ودانت لهم الأرض بمن فيها وما عليها ، فيغريهم بالحرب ، ويدفعهم إلى الفتح ، ويحبب إليهم العدوان . قال : أعدوانٌ أن أنشر دين الله وآخذ الناس بالإذعان له والايمان به ، وأذود عنهم شر الأوثان وأطهِّرهم

من رجس الشيطان ! ! . قد دعوتكما وما أنتظر منكما إلا حثاً لى على أن أمضى فيما عزمت عليه ، فإذا أنتما تصدّانى وتخذلانى وتؤثران لى حياة الخمول والخمود والتقصير . قالا : فإنا نخشى أن يكون هذا الصوت الذى يدعوك ويلحّ عليك صوت الغرور والكبرياء ؛ لا صوت الطاعة والتقوى ، وأن يكون هذا الحديث الذى يلقيه فى رُوعك تزييناً لما ورثت عن آبائك من حب الغَلَب وبسط السلطان يدفعك إلى الحرب باسم الدين ، ويصوّر لك الفتح فى صورة الدعوة إلى الله . ونحن نجد فيما عندنا من العلم أن هذا الدِّين لا ينشر ولا يذاع على هذا النحو الذى تريد أن تنحوه ، ونجد مكتوباً عندنا فى الكتب أن الدِّين الذى سيبسط سلطانه على الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، ويملؤها عزاً بعد أن ملئت ذلا ، ويرد إلى الإنسان حريته وكرامته ، ويرقى بنفسه إلى أسمى ما تطمح إليه من الكمال ، ويحقق الأخوة بين الناس ويلغى ما بينهم من الفروق ، لن يخرج من صنعاء ، وإنما سيهبط به الوحى فى آخر الزمان على رجل بمكة من قريش ، ثم يخرج من يثرب فيطبّق أقطار الأرض . فاذا شئت أيها الملك : فاسمع لنا وأعرض عن داعيك ، فإنه لا يدعوك إلى خير . قال الملك : ما رأيت كاليوم صدًّا عن الحق ، ولا صَرْفاً عن الواجب ، ولا تثبيطاً للهمم . وهمّ أن يُعرض عن الحَبْرين ، ولكنهما قالا له : فكّر أيها الملك فيما أنت مقدم عليه ، فقد أدخل أبوك دين الله فى هذه البلاد وأذاعه فيها ، ومضيت أنت على سنته دهراً ، ولكنك لم تبلغ من ذلك ما ينبغى . فما زالت فى حمير قلوب لم

تخلص لهذا الدِّين ، وما زالت فى أعماق اليمن أوثان منصوبة تهفو إليها قلوب قوم لم تبلغهم دعوة الله بعدُ ، فثَبِّت هذا الدين فى بلادك قبل أن تخرج به إلى غيرها من البلاد . فذلك آمن لك وأحرى ألاّ تؤخذ على غِرّة وألا ينتقض عليك قوم ليس لهم من الإيمان واليقين مثل مالك ، أو يغدر بك قوم ما تزال فى نفوسهم بقيّة من حنين إلى دين آبائهم الأولين ، قال الملك معرضاً عنهما : قد سمعت قولكما وسأنظر فيه . ثم لم ينظر بعد ذلك إلا فى التّهيّؤ للحرب والاستعداد للرحيل . وانقطع الحبران عن الملك ، ولم يَدْعُهما الملك إليه ، وأذّن مؤذن الملك فى الجيش بالرحيل . وفصَل الملك عن صنعاء لم يلق الحبرين ولم يودّعهما . ومضى الملك أمامه فى طريق سهلة وشعوب سِلْم لا يلقى خوفاً ولا يتعرّض لكيد حتى بلغ البحرين .

فلما أحسّ قادة الجيش من الأقيال والأذواء أن الأمد يبعد بينهم و بين اليمن من يوم إلى يوم . وأنهم مُشْرِفون على بلاد لم يألفوها ، وأنهم يُدفعون إلى حرب لا يفقهون غايتها كما كانوا يفقهون غايات الحرب من قبل ، وأنهم سيضيّق عليهم حين يظفَرون فيما تحتوى أيديهم من سَبْيٍ ومال ، ضاقوا بهذه الرحلة ، وثقلت عليهم هذه الحرب . وطال عليهم عمر الملك ، فسعى بعضهم إلى بعض ، وتحدّث بعضهم إلى بعض ، وما هى إلا أن تجتمع كلمتهم على الكيد لحسّان والبغى عليه ، فيلقَون أخاه عَمراً . وكان خفيف الحلم سريعاً إلى اللهو متعجّلا الملك ، لم تخلص نفسه لهذا الدِّين الجديد ، ولم تَطِبْ عما كان لحِمْيَرَ من سنّة موروثة وعادة مألوفة وتُراث قديم . فلما أظهروه على ما فى أنفسهم ،

وعاهدوه على أن يملكوه إن قتل أخاه ، ولا يقتضونه على ذلك أجراً إلا أن يردّهم إلى بلادهم ، ويرفع عنهم ثِقَل هذه الحرب ، نشط لذلك وجدّ فيه. ولم يجد من خاصته وأصفيائه من يردّه عن ذلك أو يخوّفه من شرّه ، إلا رجلاً واحداً من الأذواء يقال له ذو رُعَين . فإن هذا الرجل خوّف عمراً عاقبة البغي وحذّره من العدوان على الإخوان وجَدّ فى صَرْفه عن سفك دم أخيه : يذكّره بالرّحِم حيناً ، وبشرف الملوك حيناً آخر ، وبحرمة الدين مرة ثالثة . ولكنه لا يجد منه إلا إعراضاً يكاد يبلغ الغضب ويثير الريبة وسوء الظن . فلما أيس منه دفع إليه كتاباً مختوماً وقال له : احفظ لى هذا الكتاب ، ثم أتمّ عمرو كيده ، فأغمد النّصل فى صدر أخيه وارتقى على جثته إلى العرش ، وأسرع بالجيش قافلاً إلى صنعاء معلناً إبطال ما كان أبوه وأخوه قد أقاما من معالم الدين الجديد ، مُزْمِعاً قتل الحَبْرين ، ولكنه لم يجدهما فقد هلكا بعد أن فصَل الجيش من صنعاء .

ولم يستمتع عمرو بالملك ولا ذاق لذة السلطان ، فقد أخذ الحزنُ يلزمه منذ بلغ صنعاء ، لا يفارقه ما ابيضّ النهار ، ولا يفارقه ما اسودّ الليل . وأخذ هذا الحزن يشتد ويقسو ، وأخذ هذا الحزن يعظُم ويطغى ، حتى ذاد عن نفس الملك كل راحة ، وزَدّ عن عين الملك كل نوم ، وأحاط شخص الملك بصور مُروّعة مزعجة . فكان تارةً يرى حيّات عظاماً ذوات رءوس عدّة ، يخرج من أفواهها اللهب وهى تسرع إليه فاغرةً أفواهها ، كأنما تريد أن تزْدَرِدَه ازدراداً . وكان يرى تارةً أخرى أنهاراً من الدم قويّة عنيفة ، تنحدر

ولها هدير وزئير ، كأنما تريد أن تأخذ عليه كل مكان وأن تلتهمه التهاماً .
وكان يرى تارةً أخرى أشباحا تدنو منه لتبعد عنه ، ثم ترتد إليه فتطيف به وتدور حوله وقد كشَّرت عن أنياب حادة ، ومدت أظافر دامية ، كأنما تريد أن تَنْهَسه[1] نهْساً وتمزّقه تمزيقاً . وكان فى أثناء هذا كله يسمع أنين أخيه ، ويرى الدم يتفجّر من صدره كما يتفجر الينبوع الضئيل القوى من الصخرة الصُّلبة الملساء ؛ وأخذ الملك يستشير الأطباء فلا يجد عندهم دواء ، ويستعين الكهّان فلا يلقى عندهم عوناً ، ويسأل العرّافين فلا يظفر منهم بجواب صريح . وما زال فيما هو فيه من استشارة واستعانة وسؤال ، حتى أُدخل عليه رجل حكيم من أقاصى اليمن ، وقصّ عليه الملك ما أتى من الأمر وصوّر له الملك ما يلقى من الشرّ . وألح عليه الملك فى أن يجد له من هذا الضيق مخرجا ، ومن هذا الأذى شفاء . وأطرق الرجل الحكيم غير قليل ، ثم قال فى صوت حازم وقد ظهرت على وجهه صرامة الجد والبأس : أيها الملك لأنبئنّك بالحق وإن كان من دونه الموت ، فما تعوّدت كذباً ولا ميناً : إنه والله ما قتل رجل أخاه ، ولا غمس رجل يده فى دم ذى رحم إلا سُلِّط عليه الحزن والغمّ ، ووُكِّل به الفرَق والأرَق حتى يقضى . قال الملك : انصرف راشداً فلا بأس عليك ، إنما السبيل على هؤلاء الذين كادوا الكيد ، ومكروا مكرهم السيِّئ بى وبحسّان ، ثم أمعن فى خاصته ومشيريه قتلا وتمثيلا حتى انتهى إلى آخرهم ذى رُعَيْن . فلما قُدِّم هذا القَيْل للقتل قال

---

[1] النهس بالسين : كالنهش بالشين

للملك : إن لى عندك براءة . قال الملك : وما ذاك ؟ قال ذو رعين : ذلك الكتاب المختوم الذى دفعته إليك ، وأخرج الملك الكتاب وقرأ فيه هذين البيتين :

ألاَ مَنْ يشترى سهراً بنومٍ   سعيدٌ مَنْ يبيت قريرَ عينِ
فإمَّا حميرٌ غَدَرَت وخانت   فمعذرةُ الإله لذى رُعَيْنِ

قال الملك : لا بأس عليك ! فقد نصحت وبررت وبرئت ذمتك ، فليتنى قبلت نصحك واستمعت لدعائك . قال ذو رعين : وليت أخاك قبل نصح الحبرين . وأصبح القصر ذات يوم فإذا عمرو ملقى على الأرض مضرّجاً بدمائه ، قد أغمد فى صدره ذلك النصلَ الذى أغمده فى صدر أخيه ، هنالك تفرق أمر حِمْيَرَ وانتقض سلطانها ، وعادت إلى شرّ ما عرفت فى قديم الزمان من الفساد والاضطراب .

٨

الطاغية

وكان عمرو قد أصهر إلى قَيْل من أقيال اليمن يقال له ذو الشناتر فظ غليظ القلب جافى الطبع ، سيء الخلق مدخول الضمير . على أن خصاله هذه لم تكد تبدو منه للناس حين كان قيلاً من الأقيال لا ينبسط سلطانه إلا على المخلاف الذى كان يعيش فيه . فقد كان ماهراً عظيم المهارة ، مداوراً شديد المداورة ، يلقى الرجل فيخدَعه عن نفسه و يخيّل إليه أنه أكرم الناس ، وأصدق الناس وأرحم الناس وأوفاهم وأشدهم استقامة واعتدال مزاج . لذلك انخدع فيه أقرانه من الأقيال والأذواء ، وحسن فيه رأى تُبّع حتى قدّمه وعظّمه واختار ابنته تماضِر زوجاً لابنه عمرو . وكانت تُماضِر بارعة الجمال ، ذكية القلب ، رضيّة النفس ، شديدة الحنان . أنكرت من زوجها الغدر ، ولكنها لم تجرؤ على أن تباديه بهذا الإنكار ، ولو قد فعلت لأصابها شر عظيم . فلما خضّب زوجها يده بدم أخيه نفَرت منه وازْوَرّت عنه ، ولكنها على ذلك أظهرت طاعة و إذعاناً . حتى إذا سُلّطَت على عمرو شياطين الانتقام فأخذه الفزع والجزع ، وألح عليه البؤس واليأس ، ثابت إلى تماضر رقّة قلبها ورضى نفسها وميلها إلى الحنان ، فلزمت زوجها ورفقت به ، وواست زوجها وعطفت عليه ، حتى إذا حلّ به الموت كانت وحدها التى سكبت عليه الدمع ،

وذاقت لموته الحزن والغم . وكان لها صبي لم يبلغ الرابعة ، وكان لزوجها أخ لم يبلغ السابعة ، فجمعت أخا زوجها إلى ابنها ، وقامت على تربية الطفلين ، فمنحتهما من الحب والحنان ما كان يملأ قلبها الرحب الرقيق ، ووقفت عليهما من البِرّ والرفق والعطف ما تمنحه الأم أبناءها ، وما تقدّمه الزوج إلى زوجها . ولو قد خُيِّرت فى ذلك الوقت لما تمنّت إلا أنْ تُترَكَ فى ناحية من نواحى القصر ، أو تنحاز إلى مِخْلاف من مخالف اليمن بعيد عن صنعاء ومعها هذان الصبيّان ، تسعد بهما و يسعدان بعطفها و برّها . ولم تكن تفكر لنفسها ولا لأحد الصبيين فى ملك ولا وراثة ، إنما كان همها أن تنفق نشاطها كله فى العناية بهذين الطفلين ، وأن تجد جزاءها على ذلك فى هذه النظرات الحلوة ؛ التى كانت ترتفع إليها من أعين هذين الصبيين فتملأ قلبها غبطة وحبوراً ، وفى هذه الأصوات العذبة التى كانت تقع فى أذنها موقع الموسيقى ، وتصيب من قلبها مواقع الرضى والابتهاج . ولكن أباها فكر فى الملك لها ولابنها فى ظاهر الأمر ، وفكر فيه لنفسه فى أقصى ضميره ودخيلة قلبه . وما هى إلا أن أعلن أن حماية الأسرة المالكة قد صارت إليه ، وأنه ناهض بها على أحسن ما ينهض الأوصياء بأمر الذين يقومون عليهم من القاصرين . وأظهر ذو الشناتر أول أمره سيرة حسنة ونهجاً صالحاً فى الملك . ولكن تفرّق حمير وانفصال أطراف اليمن عن صنعاء ، واستبداد الأقيال والأذواء بما كان فى أيديهم من المخاليف والقصور ، وطموح العظماء بين هؤلاء الأقيال والأذواء إلى سعة الملك و بسط السلطان ، كل ذلك أغراه بالشدة ودفعه إلى البأس .

فما أسرع ما قبل الإغراء واندفع إلى الطغيان ، وإذا هو يصطفى لنفسه من الجند والقادة قوماً يُؤْثِرهم بالمودّة ، ويختصّهم بالمعروف ويُسبغ عليهم النعمة ويجزل لهم العطاء ، ثم يستعينهم على غيرهم من الجند والقادة . وما يزال يُغرى ويغوى ، ويمكر ويكيد ، حتى تخلُص له صنعاء وما حولها من الأرض . ثم إذا هو يضرب بمن أطاعه من عصاه ، ويبعث الهيبة والخوف كما يبعث الرغبة والرجاء ، حتى يعظم أمره ويُظهر أشراف حمير له الطاعة إشفاقاً منه أو أملاً فيه . وأنفق ذو الشناتر أعواماً على هذا النحو ، رفيقاً شديد الرفق بمن رجا منه الخير وانتظر منه النفع ، عنيفاً شديد العنف على من يئس من نصحه ولم يتوسّم فيه خيراً ولا نفعاً . حتى إذا دانت له اليمن كلها وآمن له العظماء والأشراف ولم يبق له بينهم منازع أو مدافع ، أظهر ما كان قد أخفى من أمره ، وأعلن ما كان قد كتم من سره ، فاغتصب الملك لنفسه خالصاً من دون ابنته وسِبْطه ، ومن دون أهل البيت من أبناء تُبَّع وذويه . وألقى بتُماضِر والصبيين فى قصر بعيد هو بالسجن أشبه منه بالقصر ، وأقام عليهم الحرّاس والرقباء يعدّون عليهم ما يقولون وما يعملون ، ويضيّقون عليهم فيما كان ينبغى أن يتّسع لهم من سبل الحياة . وفرغ ذو الشناتر بعد ذلك للأشراف والعظماء ، فأعمل فيهم مكره وكيده ، ثم سلّط عليهم بطشه وبأسه ، وأخذ يطغى عليهم ويسىء السيرة فيهم ، فإن أذعنوا لطغيانه واستكانوا لسوء سيرته أمعن فى الطغيان وأسرف فى سوء السيرة ، وإن أظهروا نبوًّا أو همّوا بإباء الضيم بطش بهم بطشاً عنيفاً لا يُبقى ولا يذر . وما هو إلا عام وبعض عام حتى كان

ذو الشناتر قد أراح نفسه من سادة حمير وذوى المكانة والسن فيها . ثم نظر فلم ير لنفسه قريناً ولا ضريباً ، فازداد لنفسه إكباراً وبها إعجابا ، وازداد لحمير إذلالاً وعليها تسلطاً وتجبراً ، وأقبل على اللذّات بمقدار ما كان يُعرض عنها ، وتهالك عليها بمقدار ما كان يُظهر النفور منها . وما أسرع ما تجاوز فى ذلك كل حد ، وخرج على كل سنّة ، وأسرف فى الأعراض يعتدى عليها ، وفى الحرمات ينتهكها ، وفى الأموال يستصفيها ويؤثر نفسه بخيارها ، حتى خافت حمير أشد الخوف ، وضاقت به أشد الضيق ، وتمنت له أشد النُّكر ، وأظهرت له أشد الحب . فلما طال ذلك على حمير لم تزدد له إلا خوفاً ، ولم تضمر منه إلا إشفاقاً وذعراً . ولكن الشباب من أبناء السادة والقادة عجزوا عن ضبط العواطف والأهواء ، وكرهوا عيشة الذلّ والخضوع ، فجمجموا وغمغموا أول الأمر ثم انطلقت ألسنتهم بعد ذلك بالنكير واللوم ، ثم سعى بعضهم إلى بعض وأخذوا يمكرون ويدبّرون ، ولكن الطاغية كان أشدّ منهم مكراً ، وأنفذ منهم أمراً ، وأحسن منهم تدبيراً . فما هى إلا أن يستهوى فريقاً منهم بالمال ، ويغوى فريقاً آخرين بالوعد وإظهار المودة ، حتى إذا ظفر من بعضهم بالطاعة والهوى استعانهم على من لم يظفر به ، حتى استقام له أمره . وإذا هو ينتقم لنفسه من هؤلاء الشباب بما يستطيع أن ينتقم به من ضروب الكيد وألوان الإذلال . وكان كلما تقدّمت به السن واستوثق له الأمر أسرع الفساد فى خُلقه وطبعه ومزاجه : فذاق من اللذات ما يباح ، وذاق منها ما يحظر ، وجرّب من اللذات ما يُعْرَف ، وجرب منها ما يُنكر . وأصبح قصره بيئة للشرّ والإثم لم تعرف

مثلها صنعاء فيما مضى من الدهر . وأفاق ذو الشناتر من سكره ذات يوم ، فخطر له على غير انتظار ولا تفكير ذكر ابنته تُماضِر وابنها عُميَر وأخى زوجها زُرْعة ، وكان قد فارقهم منذ أعوام طوال حتى نسى أمرهم أو كاد ينساه ، فلما خطر له ذكرهم فى هذا اليوم أنكرهم ثم هابهم ، ثم اشتد خوفه منهم فاشتد مكره بهم وكيده لهم ، ولم يحتج إلى تدبير طويل حتى استقر رأيه على أن يخلُص منهم ويُزيلهم من طريقه . فأقدم وباشرَ ما أقدم ، وعزَم وياسوء ما عزم ، ثم أنفذ ويانكر ما أنفذ ! : أمر أن تقتل ابنته وسِبْطه خنقاً حيث هما فى القصر ، وأن يحمل إليه ابن تبَّع الشاب . وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى أنفذ أمر الملك ، فرأت تماضر ابنها يُصْرَع بين يديها ، ورأى زُرْعة ابن أخيه وأمّه الثانية يقتلان بمرأى منه ، وانتظر أن يسعى إليه الموت ، ولكن الموت أعرض عنه ، ولم يسع إليه إلا القيد والغلّ . فلما انتهى الفتى إلى القصر أدخل على الملك فهشّ له الملك وبشّ ، وتلقّاه بالعطف والبر ، وأمر فحطِّمت عنه الأغلال والقيود ، وأمر فأُصلح من زِيّه ورُفِّه عليه . ثم دعاه فما زال يلاطفه ويؤنسه ويؤكد له أنه لا يريد به إلا خيراً ، ولا يُعِدّ له إلا نعيما وملكا ، وأنه لم يفعل ما فعل ولم يجن ما جنى إلا ليُخلص ملك تُبَّع لابن تبّع ، هذا الذى لم يقترف إثماً ولم يقطع رحماً ولم يغمِس يده فى دم برىء ، وأنه لم يستطع ولن يستطيع أن يغفر لعمرو قتل أخيه ولا لتماضر ابنته رضاها بهذا الإثم وصمتها عليه . ولم يستطع وما كان ينبغى له أن ينقل الملك من عمرو الآثم إلى عُمَير الذى ولد فى الإثم ونُشِّىء عليه . لقد قتل عمرو حسّان ،

ثم قتل نفسه ، وقتل هو ابنه عميرا ، وخلصت بذلك حمير واليمن من هذا الإثم المنكر الذى كان يوشك أن يجر عليها شراً لا ينقضى .

والآن وقد طهُرت اليمن من هذا الرجس ، وخلّصت صنعاء من هذا الشر ، فقد آن لملك تبّع أن يؤول إلى ابنه البرىء . وإنما هى أعوام أهيئك فيها للنهوض بأمر الملك ، وأعلّمك فيها ما لم تتعلم فى أعماق ذلك القصر ، وأقرّبك فيها إلى الجند والعظماء ، وأقرب فيها الجند والعظماء إليك ، حتى إذا تم لك من هذا كله ما ينبغى ؛ أصبحتُ بعد قيلا من أقيالك وقدّمت إليك عرش أبيك وتاجه وصوجانه . وما زال يقول ذلك للفتى وكثيراً مثله ، وما زال يزيّن له من الوعود والأمانى ، والفتى يظهر أمناً بعد خوف ، وثقةً بعد شك ، ورضى بعد إنكار ، حتى استيقن الشيخ الآثم أن قد استأثر بالفتى البرىء .

هنالك أخذ يغريه ويغويه ويحبب إليه اللذة ويزيّن له الفجور ، والفتى يظهر إقداماً حيناً وإحجاماً حيناً آخر ، ويُطمعه مرة ويؤيسه مرّات ، ولا يضمر له فى نفسه إلا أقبح المكر والكيد . وأصبح ذو الشناتر ذات يوم وقد همّ بأمر عظيم ، وأصبح الفتى ذلك اليوم وقد تهيأ لأمر عظيم . وما ارتفع الضحى حتى أقبل رسول الملك يدعو الفتى إلى منادمته . فأظهر الفتى طاعة سريعة واستجابة ليس فيها تردد ولا التواء . ومضى الفتى إلى تلك الشرفة التى كان يجلس فيها الملك للهوه ويخلو فيها إلى نديمه ، وما كان يخلو قط إلى غير نديم . وصعد الفتى إلى تلك الشرفة وإن الموت لكامن بين قدمه ونعله . حتى إذا بلغ مجلس الملك حيا فأحسن التحية ، ولقيه الملك فأحسن اللقاء .

وكان بين الشيخ الآثم والفتى البرىء حديث لم يطل ، ومعاقرة لم تتصل . ثم همّ الشيخ بأمر وأقدم الفتى على أمر ، وانصرف الفتى بعد ساعة فلما رآه الجند خارجاً من عند الملك نظروا إليه مشفقين ساخرين ، وتندّروا به وإنّ قلوبهم لتتفطر حزناً وحسرة أن ينتهى ابن تبّع إلى هـذا الذلّ والهوان . ولـكنهم نظروا فإذا الفتى لا يخفض رأساً ولا يغض طَرْفا ولا يُسرع فى طريقه . هنالك تقدّم إليه أحد الجند مزدرياً مُكبِراً فى وقت واحد وسأله : كيف تركت الملك ؟ قال الفتى فى صوت حازم لا عوج فيه : دونك الملك فسله كيف تركته . فمضى الفتى فى طريقه هادئاً مطمئناً ، وأنكر الجند هذا الحزم وهـذا الهدوء ، فصعد بعضهم إلى الشرفة وما كاد يبلغها حتى صاح صيحة اضطربت لها أرجاء القصر : ألا إن ابن تبُّع قد قتل الطاغية واسترد ملك أبيه . فلما كان من غد كان زرعة قد جلس على عرش تبُّع وتسمى يوسف ، وتلقّب ذانُوَاس ، واتخذ اليهودية له ديناً وأخذ يردّ حمير إليها .

٩

البشير

أقبلن مع ضوء النهار يسعَين سعى النسيم يسبقهن عَرْف المسك ونَشْر القرَنْفُل ، ويحملن من ندى الأزهار وشهىّ الثمار ، ومن رطب الأغصان وجنى الريحان ، ما يصور الطبيعة وقد أيقظها برد السحر ومسّ الندى وغناء الطير ، فجرت فيها رِعْدة الحياة ، ثم استقبلت ضوء الصبح باسمة له مُقْدِمة عليه ، ثم منغمسة فيه تريد أن تعبُر ما بين ساحليه من مطلع الشمس إلى مغيبها . وكنّ قاصرات الطَّرْف فاترات اللحظ ساحرات العيون . وكنّ واضحات الجباه فاتمات الشعور . وكنّ مشرقات الوجوه باسمات الثغور . وكنّ أسيلات الخدود جميلات القـدود نحيلات الخصور . وكنّ عِذاب الأصوات ملاح الألفاظ فاتنات الألحان . وكنّ يتغنّين فى يونانيتهن الحلوة أُغنية الصباح ، تلك التى تعوّدن أن يحملن بها تحية النهار إلى سيدّهن الشاب الفتى المترَف كيمون بن اركيتاس . وكنّ يقلن له فى أُغنيتهن الرفيقة الظريفة : «أفقْ أيها الفتى المترَف ! تَنَبَّهْ أيها الفتى السعيد . قم أيها الفتى المجدود . أفق كيمون ، فقد وَفَتْ لك آلهة الليل بعهدها فرَعَتْك وحفظتك ، ويسّرت لك نوماً هادئاً وأحلاماً حِساناً ، ثم انصرفت عنك وقد أسلمتك إلى آلهة النهار لتفى لك بعهدها كما تعوّدت أن تفى لك به منذ ذقت الحياة . أفِقْ

فلن ترى من هذا اليوم إلا ابتساماً أجمل وأعذب من ذلك الابتسام الذى رأيته أمس والذى رأيته أول أمس والذى تعوّدته منذ عرفت الحياة . أفِقْ فستلقى مودّة وحبًّا ، وستلقى توفيقاً ونجحاً ، وسيزورك الأصدقاء مسرعين إليك ، مقبلين عليك ، وقد اتخذوا على رءوسهم أكاليل من الزهر ، وستتخذ على رأسك إكليلاً كأكاليلهم ، وستفرحون وتمرَحون وستجِدُّون وتمزَحون . أفِقْ أيها الفتى السعيد . تنبَّهْ أيها الفتى المترَف . قم أيها الفتى المجدود » . ولكنهن بلغن الغرفة التى كان يأوى اليها كيمون إذا جنّه الليل وانصرف عنه الرّفاق ، فلم يَرَيْن سيّدهن كما تعوّدن أن يرينَه كل صباح مُغْرقاً فى النوم ، أو متعلقاً بأسباب اليقظة يريد أن ينجو بها من بحر الرقاد ، إنما رأينه قائماً يذهب فى غرفته ويجىء ، مُتْعَباً مكدوداً ، مظلم الوجه كأنه قد أنفق ليله مُسَهّداً لم يذق النعاس . فلما رأينه أنكرنه وهممن أن يسألنه . ولما رآهن أنكرهن ولكنه منحهن ابتسامة فيها عطف عليهن حزين ، ورفق بهن لا يخلو من ألم ، وانصراف عنهن يشوبه شىء من التبرُّم وإحساس الشقاء . ثم أشار إليهن فلم يسعهن إلا أن يَعُدْن من حيث أتين ، صامتات كئيبات قد سُقِط فى أيديهن كأنما أتين من الأمر شيئاً عظيما .

وكان الفتى فى حقيقة الأمر ينكر نفسه أشد الإنكار ، ويضيق بما حوله كل الضيق بعد تلك الليلة الطويلة الثقيلة التى أنفقها وحيداً محزوناً ، يفكر فى تلك الدماء التى كانت تجرى قريباً من داره كأنها السيل ، وفى تلك الأشلاء التى كانت منتثرة من حول داره آخر النهار ، وفى تلك الأصوات التى كانت

ترتفع بالصلاة والدعاء قوية رائعة مبتهجة بالموت ، وما تزال فى صلاتها ودعائها قوية رائعة مبتهجة بالموت ، حتى يسعى الموت إلى أصحابها فيخرّون صَرْعى ، وتستحيل تلك الأصوات القوية الرائعة المبتهجة إلى حشرجة فظيعة مروِّعة . ويرى تلك الوجوه التى كانت تستقبل الموت وعليها ابتسامة حلوة فيها جَلَد وثقة ، وفيها يقين وأمْن ، وفيها أمل و إيمان . فما تزال هذه الوجوه تدنو من الموت باسمة له ، وما يزال الموت يدنو منها عابساً لها حتى يكون اللقاء المنكر الشنيع ، فإذا عبوس الموت قد استحال إلى ابتسام حين مسّ هذه الوجوه الباسمة . وكانت المدينة قد شهِدت يوماً من أعظم أيامها شرًّا وأشد أيامها نكراً : يوماً من أيام الاضطهاد ، جُمِع فيه النصارى من كل وجه وأُخذوا من كل مكان ، فيهم الرجال والنساء ، وفيهم الشباب والشيب ، وكلهم من ضعفاء الناس وذوى المنازل الخاملة فيهم : أُخِذوا من الدور حيث كانوا آمنين ، وأُخِذوا من الحقول حيث كانوا يعملون ، وأُخذوا من البِيَع التى أقاموها فى الأنفاق حيث كانوا يجتمعون للصلاة والدعاء . فلما حُشد منهم المئات امتُحنوا فى دينهم امتحاناً يسيراً قصيراً . فلم يكن منهم من أجاب إلى وثنية الامبراطورية الرومانية ، ولم يكن منهم من أظهر العبادة لقيصر أو الخضوع لدِين روما . هنالك أمر بهم الحاكم فقُتلوا تقتيلاً ، ونُكِّل بهم أشد التنكيل ، وعبِثت بهم السيوف والخناجر ، ولعبت فيهم السهام والحراب ، وأشرافُ المدينة المقيمون على دين الدولة ، وعامة المدينة المتعصبون لدين الدولة ؛ ينظرون إلى ذلك فرحين به ، مستمتعين بجماله البشع الفظيع .

وكان كيمون بين الأشراف فى الصف الأوّل من النظّارة سمع ورأى ، فأنكرت نفسه ما سمع وما رأى . ولكن صوته لم يستطع إلا أن يصيح صيحات الرضى ، ولكن يديه لم تستطيعا إلا أن تصفقّا تصفيق الإعجاب ، حتى إذا انتهت المجزرة وتفرّق الناس سكارى لكثرة ما رأوا وشمّوا من منظر الدم وريحه ، عاد الفتى إلى قصره ذاهلاً واجماً كئيباً حزيناً . ثم خلا إلى نفسه فقضى فى غرفته بقية النهار وسواد الليل ، ورأى فى هذه العزلة الطويلة أهوالا وأوجالا لم يكن تعوّد أن يراها . وأنّى له ذلك ولم يشهد قط ما شهد أمس من الاضطهاد ! وأنّى له ذلك ولم يشترك قط فى حرب ولم ير قط نِزالاً ولا قتالا ! . على أنه لم يستطع البقاء فى غرفته بعد أن انصرف عنه الإماء ، فخرج من داره لا يدرى إلى أين يقصد ، ولا يعرف إلى أين يريد . ومضى أمامه لا يلوى على شيء ولا ينظر إلى شيء . ولم ينتبه إلا وهو يستأذن على صديقه نكياس . فلما أذِن له دخل على صاحبه فلم ير فى وجهه إشراقاً ولا ابتساماً ، ولم يحسّ منه ابتهاجاً ولا نشاطاً ، وإنما رأى وجهاً عابساً مظلماً ، وشخصاً كئيباً فاتراً ، فابتدر صديقه قائلا : إن أمرك لعجيب ! أفترانى قد حملت إليك حزنى و بؤسى ! وتقات إليك كآبتى وشقائى ! . قال نكياس : أمحزون أنت ! أما أنا فلم أذق النوم . قال كيمون : ولم أذقه أنا أيضاً ، وكيف يذوق النوم من رأى مثل ما رأينا ، أو سمع مثل ما سمعنا ، أو شهد مثل ما شهدنا من كيد الناس للناس ، ومكر الناس بالناس ، وقسوة الناس على الناس ! . قال نكياس : هَوِّنْ عليك ! لقد نام أهل المدينة

ملء جفونهم آمنين مطمئنين وما يمنعهم أن يناموا وأن يأمنوا وأن يطمئنوا ؛ وقد كانوا يخافون هؤلاء النصارى على أمن الدولة ودينها ، وعلى نظام الدولة وسلطانها ! فقد أراحتهم سيوف الجند ورماح الشرطة وسهام الرماة من هؤلاء النصارى ، فأخلت منهم الدار وعفّت منهم الآثار ، وقدّمتهم ضحايا دامية إلى جو بيتير إله روما العظيم . قال كيمون : إن عجبي من هؤلاء النصارى لاينقضى ، كلهم كان ضعيفاً ذليلا ، وكلهم كان فقيراً معدماً ، وكلهم كان بائساً محروماً ، وكلهم كان قد تعوّد الطاعة وألف الخضوع ، فكيف قويت قلوبهم بعد ضعف ، وكيف عزّت نفوسهم بعد ذلّة ، وكيف اجترءوا على أن يعصُوا سادتهم وقادتهم ويخالفوا عن أمر الحاكم والامبراطور ! . ما هذا السحر الذى غيّرهم هذا التغيير ، وبدّلهم هذا التبديل ، ومنحهم هذه الشجاعة والعزة ، وهذا الصبر والبأس وكل هذه الخصال التى لم تكن تعرف إلا للأشراف ! . قال تكياس وما يدهشك من هذا ! إنما هو الإيمان خليق أن يحول الأشياء إلى أضدادها ، والنفوس إلى نقائضها . أوَ تظن أن أمر هؤلاء الناس هو وحده الذى يثير هذا الدهش ويدعو إلى العجب ! . أليس كل شيء الآن يتغير ويتبدّل ! ألست تحس من حولك إنكاراً لكل شيء ، وضيقاً بكل شيء ، وسخطاً على كل شيء ، واستعداداً لثورة عنيفة عامة توشك أن تشبّ فتقلب الأشياء كلها رأساً على عقِب ! إنك تعجب من الناس ! فماذا تقول إن أنبأتك بأنى أعجب من الآلهة !

قال كيمون : وأنت أيضاً تعجب من الآلهة ! أفرأيت إذاً مارأيت ، وسمعت

إذاً ما سمعت : لقد كنت أحسبه حلماً من هذه الأحلام التى تروّع الناس فى النوم إذا روّعتهم الحوادث وهم أيقاظ ، وكنت أجادل نفسى فى هذا الحلم المخيف فما أذكر أنى ذقت النوم منذ أمس .

قال نِكياس : فاقصص علىّ ما رأيت ، أحدثك بحديثى و إنه لعجيب .

قال كِيمون : طال علىّ الليل ، وثقل علىّ الهمّ ، وضاقت بى الغرفة بمافيها ؛ من الجدران القائمة ، والسقف المطبق ، والباب المغلق ، فخرجت كأنما كنت ألتمس فى الحركة فرجا من حرج ، وفى الفضاء الواسع فسحةً من ضيق ، وأشرفت أرفع طرفى إلى السماء كأنما كنت أسأل نجومها عن سرّ مالا أفهم من أمر الحياة والأحياء ، وأمدُّ عينى إلى البحر كأنما كنت أدعوه ملحًّا عليه إلى أن يطغَى بعض الشىء على المدينة ، فيغسل ماعلِق بأرضها من دماء القتلى ، و يحمل ما انتثر على أرضها من أشلائهم . و إنى لفى ذلك حائر الطرف مفرّق النفس ، كاسف البال محزون الضمير ، و إذا شىء يعرض لى لا أتبيّنه أول الأمر لأنه كان بعيداً عنى ، ولـكنه يروعنى وتقف عينى عليه ، و يدنو منى شيئاً فشيئاً حتى أتبين — وما أعجب ما أتبيّن ! — جماعة من الفرسان كأجمل وأروع وأجهر ما رأيت ، قد علَوا صهوات جياد غريبة ما رأيت قط مثلها ، ولا سمعت قطُّ عن مثلها إلا فيما أقرأ من شعر الشعراء ، ومن قصائد پندار حين كان يتغنى تلك الخيل التى كانت تسبق ألعاب أولمبيا . جياد مجنّحة كانت تعبُر إلى البحر بمن عليها من الفرسان ، لا أدرى أ كانت تركض على الماء أم كانت تطير فى الهواء . حتى إذا بلغ الجماعة شاطئ البحر وكادت حوافر جيادهم تطأ

الأرض وقفوا . وقد تبيّنت أشخاصهم فإذاهم أربعة فيهم رجلان وامرأتان . وما أقرب الشبه بين هؤلاء الأشخاص وبين هـذه التماثيل التى نراها فى المعابد لأبلّون وأرتميس ولأتينا وآريس . أكنت يقظان حين رأيت ، أكنت يقظان حين سمعت ! ولـكن أشخاصهم ما زالت ماثلة أمام عينىّ ، ولـكن حديثهم ما زال مستقرًّا فى صدرى كأنما نُقش على قلبى نقشاً . سمعت أشبههم بأبلّون يقول : ما أبشع منظر هذه المدينة التى كنا نحبها ونصبو إليها ! وما أقبح هـذه الريح التى تصعد إلينا منها ! قالت أشبه هؤلاء الأشخاص بأتنا : لقد كنا نحب أن نلمّ بهذه المدينة فنطيل فيها المقام . وكنا نستعذب حديث أهلها ونستحب أخلاقهم ، ونستلذ ما كانوا يقدّمون إلينا من الضحايا والقرابين . قالت شبيهة أرتميس : وكم كنت أحب أن أجول فى غاباتهـا وأستمتع فيهـا بلذة الصيد . قال شبيه آريس : أما أنا فـكانت تُعجبنى حصونها المحصنة ، و قلاعها المؤشّبة ، وهذا الجيش الباسل المرابط فيها والمستعد فى كل لحظة للدفاع والهجوم . قال شبيه أبلّون : فقـد آن لنا أن ننصرف عنها على ألاّ نرجع إليها ، وأن نلقى عليها نظرة وداع لا لقاء بعده . قالت شبيهة أرتميس : لم أستطع بعدُ أن أفقه ما ألمّ بأهل هذه المدينة : أفتنة أتت على عقولهم فحالت بينها و بين الفهم والتفكير ، أم قسوةٌ غلبت على قلوبهم فحرَمتها الحسّ والشعور . إنهم يظنون أنه الدّين ومايدفعهم إليه من حبنا والتعصُّب لنا ، وحماية معابدنا وأوثاننا وسلطاننا أن يطغَى عليها هذا الدّين الجديد الذى أقبل من الشرق ، ولـكنهم يكذبون ، فما أكثر من وفد علينا من آلهة الشرق

قديماً ! وما أكثر من يفد علينا منهم فى هذه الأيام ! وما أحسن ما تلقيناهم ! وما أحسن ما نتلقاهم الآن ! . لم نَضِق بهم ولم يَضِق بهم الناس . فما ضيقهم بهذا الدِّين الجديد وبهذا الإله الشرقى الجديد ! . قال شبيه أپلون : إنهم يخدَعون أنفسهم ويريدون أن يخدعونا ، ولكنهم يعلمون لو فكروا أنهم لا يثورون لنا ، ولا يغارون علينا ، ولا يغضَبون للدِّين ، إنما يثورون لقيصر ، ويغارون على روما ، ويغضبون للسياسة . ولولا أن قيصر قد ألَّهَ نفسَه وأخذ الناسَ بعبادته ، ولولا أن روما قد ألَّهت نفسها وفرضت ما لم تفرض مدن اليونان ؛ حين كان إليها الأمر من هذا الدِّين الغريب الذى تقام به المعابد لها ، ويؤمر الناس به أن يقدِّموا إليها الطاعة ، ولولا أن هؤلاء الرومان قد اتخذوا الدِّين وسيلة من وسائل السياسة ، وأداة من أدوات الحكم وبسط السلطان ، يكذبون به على أنفسهم ويكذبون به على الناس — لولا هذا كله لما أُريقت الدماء ولا انتثرت الأشلاء ، ولا أُزهقت النفوس ولا قتل الناسُ بعضهم بعضاً على هذا النحو . قال شبيه آريس : إنكم لتعلمون حبى للدماء ، ونشوتى بالقتال والحرب ، ولكنى شديد البغض لما أرى ، شديد النفور مما أجد . وكم ضِقت بما رأيت أمس من هذا التقتيل والتنكيل والتمثيل ، ومع ذلك فكَمْ شهدت من حرب وكم اشتركت فيها ! وكم أغريت بها وكم دفعت إليها ! وكم أبليت فأحسنت البلاء ! . قالت شبيهة أتنا : وأى غرابة فى ذلك ! أنا أيضاً أحببت الحرب وما زلت أحبها . ولكن الحرب شىء وهذا النكر شىء آخر ، وأين الحرب التى تصدُر عن الشجاعة والبأس ؛

من هذا الإجرام الذى لا يصدر إلا عن الجبن والبغى والعدوان . وأى فرق بين تقتيل العُزل الأبرياء ، و بين ما فعله أيَّاس حين جُنَّ جنونه ، فأعمل سيفه فى قُطْعان البقر والغنم التى لا تملك عن نفسها دفاعاً . قال شبيه أپلّون ، وما بقاؤنا فى هذه الأرض التى ليست لنا بدار بعد ما أزمع الآلهة أن يدعوا هذه الأقاليم لدين قيصر ولهذا الدين الجديد ؟ ! . لقد وقفنا فأطلنا الوقوف ، وودَّعنا فأطلنا الوداع ، وآن لنا أن نلحَق بمن سَبَقنا من الآلهة إلى تلك الأرض الموعورة التى لم تفسد عقول أهلها حيلة بروميثيوس ، ولا فلسفة سُقْراط ، ولا سياسة قيصر ، هَلُمَّ . ثم ترتفع بهم أفراسهم فى الجوّ . وما هى إلا لحظة حتى أرى سحاباً رقيقاً يمضى أمامى مسرعاً ، ثم أنظر فلا أرى شيئاً . أكنت نائماً أرى ما يرى النائم ، أم كنت يقظان أرى ما يرى الأيقاظ ! . قال نكياس : لم تكن نائماً ولا حالماً ، فقد كنت أسمع حديثك الآن وما أشك فى أنك قد كنت تقرأ ما كان قد نُقش على قلبى ، ورسخ فى قرارة نفسى . الصورة هى الصورة ، واللفظ هو اللفظ ، ومَقْدَم الفرسان ورحيلهم ووقوفهم بين ذلك كما وصفته ؛ لم تزد فيه ولم تنقص منه . ولكنى لم يطل علىَّ الليل ولم يثقل علىَّ الهمّ ، ولم يَضِق بى المكان . لقد أنفقت بقيّة النهار وأكثر الليل فى قصر الحاكم مع أغنياء المدينة وأشرافها نستمتع بلذّات هذا الحَفْل الذى دعانا إليه ؛ ولم تنشَطْ أنت له . وأشهد لقد أسرفت فى الطعام ، وأسرفت فى الشراب خاصة ، لأنى كنت أريد أن تفرق الخمر بينى و بين نفسى ، وأن تَسُلَّ الخمر ما كان

يملأ صدرى من الهمّ والحزن . ولـكن الليـل عجز عن أن يُسْلِمك إلى النوم ، وعجزت الخمر عن أن تسلمنى إلى السكر . فلما انقضى الحفل وانصرف الناس لم أستطع أن أعود إلى دارى ، فمضيت أمشى على ساحل البحر أتنسّم الهواء ، وأنظر فى السماء حتى رأيتُ مثل ما رأيتَ ، وسمعتُ مثل ما سمعتَ . وعدت و إنى لأسأل نفسى منذ ذلك الوقت : أكان حقًّا مارأيت وسمعت ، أم كان لوناً من ألوان السكر وخيالاً من هذه الخيالات التى تسلّطها الخمر على النفوس . قال كيمون : و إذاً ! قال نـكياس : و إذاً ! . ثم سكت الصديقان وقتاً طويلاً . ثم استأنف نـكياس حديثه وهو يقول : و إذاً فنحن بين اثنتين : إما أن نرحل كما رحل الآلهة ، و إما أن نقيم كما أقام الناس . وفى السياحة لذة ، وفى الخمر واللهو عزاء . قال كيمون : أما أنا فمرتحل . قال نـكياس : أما أنا فمقيم . قال كيمون : فـكن إذاً خليفتى فى مالى حتى يأتيك أمرى فيه . قال نـكياس : أجادٌّ أنت ؟ وما يمنع أن يكون مارأينا وسمعنا عبثاً من عبث الآلهة ، فقد علمت أنهم يحبون العبث بنا والسخر منا ! وما يمنع أن يكون ما رأينا وسمعنا أثراً من آثار هذه الصدمة التى دهمتنا أمس حين رأينا ماسُفِك من دماء وما أُزهق من نفوس . أقم فإنّ فى اللهو واللذة ، وفى الخمر والغناء ، وفى جمال هؤلاء الإماء اللاتى يملأن قصورنا نعيماً و بهجة ، وفى هذه الثروة التى تتيح لنا من ألوان الشرف والمجد مالا يتاح إلا لقليل من الناس ماهو خليق أن ينسينا ما شهدنا منذ أمسِ . أقم ! ولنضاعف مانحن فيه من عبث ولهو . فما أرى حياة الناس تستقيم إلا على العبث واللهو : شرب فى النهار ،

ونوم فى الليل . حتى إذا سئمنا الحياة خرجنا منها مزدرين لها . قال كيمون : أنت وما تحب من هذا ، أما أنا فمرتحل عن هذه الأرض ولو إلى حين . ثم افترق الصديقان بعد ذلك ، فلم يلتقيا ولم يعرف أحدهما من أمر صاحبه شيئاً ، أما التاريخ فقد عرف من أمر كيمون شيئاً كثيراً .

على أن الذى حدثنى بحديث كيمون لم ينس أن يصطنع الصدق والأمانة فى الحديث ، ولم يرض أن يتكلف ما يتكلفه القصاص وكثير من المؤرخين من التزيد فى الرواية ، والتحدث بما لا علم لهم به . فقد أنبأنى بأن جزءاً غير قليل من حياة كيمون لم يصل عنه إلى الرواة والمؤرخين إلا أطراف قصيرة من الحديث ، وأن التاريخ لم يعرف تفصيل حياته إلا فى آخرها حين تقضى شبابه ، وأقبلت عليه الشيخوخة بما تحمل إلى الناس من هذه الهدايا البغيضة ؛ التى تتألف من الضعف والمرض وأعراض الفناء والانحلال . ولو قد عُرف التفصيل من أمر كيمون لوجد الناس فى قراءته لذة لا يجدون مثلها كثيراً حين يقرأون حياة الشهداء والقدِّيسين . فقد انصرف كيمون عن صاحبه محزوناً مُوَزَّعاً بين اليأس الواضح البين إن أقام ، والرجاء الغامض المبهم إن ارتحل . وكان قد كره المدينة والحياة فيها كرهاً شديداً . وكان قد سئم قصره ومن فيه وما فيه ؛ سأماً ساء له خُلقه حتى أنكر نفسه ، وحتى كره ما كان يسمع من صوته وألفاظه حين كان يتحدث إلى أهل القصر من الأحرار والأرقاء . ولم يكد يتم يومه فى القصر حتى عرف أن بقاءه فى المدينة أمر لا سبيل إليه ، وأن الموت آثر عنده وأحب إليه من هذه الحياة الحمراء

اللاغطة الممزّقة التى لا يرى فيها إلا دماء وأشلاء ، ولا يسمع فيها إلا صلاة ودعاء ، وحشرجة ونداء . فلما جَنّه الليل وهدأ من حوله كل شىء وكل إنسان ، خرج من القصر ينساب كأنه الحيّة ، وينسل كأنه اللص ، وأخذ يمضى فى طرق المدينـة متنقلاً من طريق إلى طريق حتى جاوز أسوارها وأرباضها[١] ، ودَفَع[٢] إلى الفضاء الواسع ، وإلى هذا الريف الذى تسكن فيه الطبيعة إذا تقدّم الليل سكوناً رهيباً ، ولا يكاد يحس الإنسان فيه إلا هذه الأصوات الضئيلة التى تنبعث من حين إلى حين عن بعض الحشرات المنبثّة فى ثنايا العُشْب والزرع ، وعن بعض الطير المستقرّة على الأغصان حين يمر بها طائف الحلم فتهم بالغناء والتغريد ؛ ثم يقطع عليها النومُ غناءها وتغريدها ، وإلا هذه الأصوات الخفيّة التى لا تسمعها الأذن ، وإنما تسمعها النفس ، لأنها أدقّ من السمع ، وألطف من الحس ، وهى نجوى الهواء حين تتحدث أجزاؤه وطبقاته بعضها إلى بعض إذا سكن الليل وأطبق الظلام ، كأنما يقصّ بعضها على بعض أحاديث الطبيعة فى حياتها وحركتها قبل أن تنام ، وقبل أن يضطرّها الليل إلى السكون . ومع أن هذا الهـدوء الرهيب وهذا الصمت المهيب يروعان أهل المدن إذا دفعوا إليهما دفعاً على غير تعوّد لهما ، فإنهما لم يبعثا فى نفس الفتى رَوْعاً ، ولم يُدخلا فى قلبه رُعْباً ، لأن نفسه كانت مشغولة حتى عن هذا الرعب وذلك الروع بما كان يزدحم فيهما من الخواطر والأحاديث.

(١) الربض (بالتحريك) : ما حول المدينة من بيوت ومساكن

(٢) يقال : دفع فلان إلى المكان (بصيغة المعلوم والمجهول) : إذا انتهى إليه

وكان الفتى يمضى أمامه لا يعنيه أمهتد هو قصد السبيل أم جائر هو عن هذا القصد ، لأنه لم يكن فى حقيقة الأمر يعرف إلى أين يريد ، ولم يكن قد رسم لنفسه طريقاً يسلكها أو غاية ينتهى إليها ، إنما كان همه كل همه أن يفر من هذه المدينة التى جرت فيها الدماء أنهاراً ، وانتثرت فيها الأشلاء انتثاراً ، وجنى فيها بعض الناس على بعض هذه الجرائم والآثام . وكان حديث الآلهة قد ملأ نفسه دهشاً وعجباً ، واضطره إلى أن يسأل نفسه من حين إلى حين : إلى أين ذهب الآلهة ، وأى طريق سلكوا ، وفى أى مكان من الأرض أو من السماء أقاموا قصورهم الخالدة ؟ وكيف هان على زوس أن يدع أولمب وما كان له فيه من حياة فيها الجد الرائع والعبث اللذيذ . وكيف هان على أبلون أن يترك معبده الخالد فى دلف ، وكيف استطاعت أتنا أن تتعزى عن الأكروپول ، وأين يجد آريس مدناً تقتتل وتحترب كما كانت مدن اليونان تقتتل وتحترب . وكان يسأل نفسه عن سلطان هؤلاء الآلهة الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا لعدوان الإنسان على الإنسان ؛ فضلاً عن أن يمحوا هذا العدوان ويبطشوا بالمعتدين . وكان يسأل نفسه عن هذا الدين الجديد الذى يؤثره أصحابه على الحياة ولذاتها وآلامها . وعن هذا الإله الجديد الذى أخذ يغزو العالم اليونانى الرومانى ، فيحبب إلى أهله الألم والصبر والتضحية ، ويزهد أهله فى الثروة والغنى ، ويزين فى قلوبهم حب الفقر والإعدام ، وينشئهم تنشيئاً جديداً لا صلة بينه وبين ما ألف الناس منذ أنشدوا شعر هوميروس ، وتغنوا شعر سافو وپندار ، واستمتعوا بشعر سوفوكل وأرستوفان ، وتفكروا فى فلسفة

سقراط وأرسطاطاليس . وكان يسأل نفسه وهو يمضى فى طريقه لا يلوى على شىء والليل من حوله مُطبِقٌ قد غَمَرَ بظلمته المخيفة كل شىء ، أماض هو فى أثر الآلهة الذين ارتحلوا ليلحق بهم ويقيم معهم لأنه لا يستطيع أن يعيش من دونهم ، أم ساعٍ هو إلى دار هذا الإله الجديد لعله يلقى من كُهّانه وقَسَاوسته من يعلمه أسرار دينه ، فقد سئم حياة اليونان ، وتمنّى لو ظفر بلون من الحياة جديد . وكان الفتى يمضى ، وكانت هذه الخواطر تزدحم على نفسه وتضطرب فيها ، كان الليل يمضى هو أيضاً فى طريقه دون أن يتبيّن الفتى أكان سريعاً فى سيره أم بطيئاً . وإنه لكذلك يسير ويسير ، ويفكر ويفكر ، قد نسى نفسه ونسى الليل ، وإذا هو يثوب إلى نفسه لحظة فيقف ويرفع رأسه ، وإذا الضوء قد غمره وغمر الأرض من حوله ، وإذا هو ينظر أمامه فلا يرى إلا سهلاً مشرقاً ، وينظر وراءه فلا يرى إلا سهلاً مشرقاً ، وينظر من يمين وشمال فلا يرى إلا سهلاً مشرقاً . وإذا هو لا يدرى من أين جاء ولا إلى أين يريد : ينظر وراءه فلا يرى للعمران أثراً ، وينظر من كل ناحية فلا يرى للعمران أثراً ، قد انقطعت الصّلات والأسباب بينه وبين مدينته التى خرج منها أمسِ حين أظلم الليل ، فكأنه لم يعرف هذه المدينة ولم يعش فيها ولم يقاسم أهلها ما نَعِموا به من لذّات وما ابتأسوا به من الألم . وكأنه لم يشهد فيها ما شهِد ، ولم ينكر من أهلها ما أنكر ، وكأنه شىء فَذٌّ لا صلة بينه وبين شىء ، وكأنه شىء ضائع بين هذه الأرض التى لا حدَّ لها وهذه السماء التى لا حدَّ لها ، وهذا الضوء الذى يضطرب بينهما إلى

غير حد . هنالك أحسَّ الفتى راحة لم يُحْسِسها قط كأنه قد ألقى عن نفسه أعباء الحياة كلها ، هذه الأعباء التى لا تختصر حياة الفرد وما لقى فيها من شر وخير فحسب ، وإنما تختصر معها حياة هذه الأجيال التى سبقته وأورثته الحضارة أثقالها . أحس الفتى راحة قلما نستطيع نحن أن نتصوّرها ، وأحس هدوءاً ونشاطاً قلما نستطيع نحن أن نذوقهما . ووقف يستمتع بهذه الراحة ويستلذ هذا النشاط . وحاول أن يدعو إليه تلك الخواطر التى كانت تزدحم على نفسه فى ظلمة الليـل ، فلم يستجب له منها خاطر واحد ، كأنما طردها هذا الضوء المشرق مع ذلك الليل المظلم الـكثيف .

ما أجمل هذا الشعور الذى امتلأت به نفس كيمون حين أحس أنه قد خلق خلقاً جديداً ! لقد امتزجت نفسه الجديدة بهذا النور الجديد . ولقد نسى الآلهة الذين كان يمضى فى أثرهم ، ونسى الإله الذى كان يسعى ليعلم علمه . وماله ولهذا الإله الجديد ولأولئك الآلهة القدماء ، وقد استيقن أنه قد وجد فى هذه الطبيعة المطلقة الحرّة التى لا تحصر ولا تحَدّ آية أرشدته إلى إله ليس كما تعوّد أن يرى الآلهة . لاسبيل إلى أن يُحْصَر ولا إلى أن يُحَدَّ ، ولامطمع فى أن يرقَى إليه العقل ، أو يتناوله الفكر بالدرس والبحث والتحليل . إنما هو قوة يُـكْبِرها ولا يفهمها ، يجِلُّها ولا يحيط بها ، يشعُر أنها تأخذه من كل مكان ، وتأخذ كل ما حوله ، وأنه إن يمض أمامه فهو مقبلٌ عليها ، وإن يرجع أدراجَه فهو خاضعٌ لها ، وأنَّى يذهب يميناً أو شمالاً فهو فى ظلها الظليل وفى كنفها الرحب . سبحانك اللهم ! إن لم أجدك فقد وجدت آيتك ، وإن

لم أرك قد رأيت خلقك ! لك علىّ ألا أومن إلا لك ، وألا أخاف إلا إياك
ثم يمضى الفتى أمامه فى شىء من الذهول ليس إلى تصويره من سبيل ، حتى يشتد حر الشمس ويبلغ منه الإعياء ، وهو على ذلك جَلْدٌ صبور لا يحسّ كلالاً ولا فتوراً . وما يزال يمضى ويمضى ، حتى يرفع له بناء يراه فيأنَس به ويتنكّر له فى وقت واحد : تأنس به طبيعته الفانية التى قد أحست الجهد والكد وذاقت ألم الظمأ والجوع ، وتتنكر له نفسه الخالدة التى تُشفق أن يخرجها من هذه الحياة الروحية الراقية الحلوة التى لم تألفها من قبل . ويهمُّ الفتى أن يقف ، ولكن هذا البناء الذى يُرفَع له يدعوه إليه فى إلحاح أن أقبل أيها الفتى ولا تخَفْ ، فليس عليك من بأس . فيمضى الفتى صوب هذا البناء ، حتى إذا دنا منه سمع أصواتاً عَذْبة ترتّل ترتيلا عذباً فيُسرع إليها ، وما هى إلا أن يلحَق بجماعة من الرهبان يصلّون ويرتلون ، وإذا هو يصلّى معهم ويرتل . لم يُنكروه ولم ينكرهم ، كأنه واحد منهم وكأن العشرة بينه وبينهم متصلة منذ عهد بعيد . ذلك أنه قد وقع إلى دير من هذه الأديرة التى كانت تقام فى تلك الصحراء ؛ حين كان النصارى يَفِرون إلى الصحراء بدينهم من تلك المدن التى كانت تسيطر عليها آلهة اليونان والرومان ، وديانات روما والامبراطور .

ثم سكت محدِّثى ساعة كأنه يفكر أو كأنه يستريح . فلما طال علىّ صمته قلت له فى لهجة المشوق إلى ما عنده من الأنباء : هَلُمَّ أنبئنى كم لبث الفتى فى الدير ؟ وكيف كانت حياته فيه ؟ . قال محدِّثى : لو علمتُ ذلك

ما بخلت به عليك ، وقد سألت عنه أشياخنا كما سألتنى ، فكلهم أجابنى بما أجبتك به ، وكلهم قال هذه الجملة التى يقولها الرواة والمؤرخون إذا اضطرهم النسيان وضياع الحوادث إلى الإجمال والإبهام : أقام كيمون فى هذا الدير ما شاء الله له أن يقيم . قلت لمحدثى : فإنك قد علمت من أشياخك فى غير شك أطرافاً من حياة هذا الفتى بين هؤلاء الرهبان ، وعلمت منهم فى غير شك أيضاً إلى أى الأحوال صار أمره بعد أن عاشر أهل الدير وتعلم منهم دين المسيح . قال محدثى : لم أكد أعلم منهم شيئاً لأنهم كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً . وكانوا إذا انتهوا من حديث كيمون إلى حيث انتهيت ، قالوا هذه الجملة التى تشبه ما تقوله العامة حين تنسى أو حين يُعييها التفصيل : وما أسرع ما تتقدم السنُّ بأبناء الأحاديث ، فقد تقدمت السنُّ بكيمون بعد أن قضى فى الدير ما شاء الله من الدهر ، مجتهداً فى طاعة الله والفقه فى الدين ، والانصراف عن غير ذلك من شؤون الحياة . قال أشياخنا : والناس يتحدثون أن كيمون ضاق آخر الأمر بحياته فى الدير لأنه رأى نفسه قد أصبح فتنة لرفاقه وخُلطائه من الرهبان ، ورأى ديره قد أصبح فتنة لأديرة كثيرة كانت تقع على آماد بعيدة منه فى الصحراء ، وأصبح فتنة لأهل الريف الذين كانوا يقيمون على أطراف الصحراء وفى داخل الأرض الخضراء ، فقد تسامع هؤلاء جميعاً بما كان الله عز وجل قد اختص به كيمون من الكرامة ، وآثره به من الفضل ، وبما أجرى على يده من العجائب والأمور الخارقة . فقد لا يدعو لمريض أو ذى ضر بالشفاء إلا

شفاه الله من فوره . وكانت بركته قد عمّت أهل الدير ومسّت ما حوله من أرض الصحراء إلى أمد بعيد ، فإذا أهله لا يشكون جوعاً ولا ظمأ ، ولا يلقَون جهداً ولا عناء ، وإذا ديرهم قائم فى وسط جنة خضراء قد أنبت الله فيها من ألوان الشجر والزهر ، ومن فنون الحب ما فيه غِنًى عن كل جهد ، ودفعٌ لكل مشقّة ، وإذا الناس يحجون إلى هذا الدير فى كل عام مرة أو مرات فيتبركون ويلتمسون الدعاء ، ويلحّون فى لقاء كيمون : هذا يريد أن يمسّه ، وهذا يريد أن يلثمه ، وهذا يريد أن يسمع صوته ، وهذا يريد أن يملأ عينه من منظره الجميل ؛ حتى ضاق الشيخ بذلك وأشفق منه على نفسه وعلى دينه . وقد أصبح كيمون شيخاً . وما أسرع ما تتقدّم السن بأبناء الأحاديث !. فلما شق عليه ذلك أزمع أن يخلُص منه ويفر بدينه من إكرام المكرمين وإيثار المؤثرين ، كما فرّ قبل ذلك من تلك المدينة التى كان يُفْتَن الناسُ فيها عن دينهم بالتقتيل والتنكيل والتمثيل. وأصبح أهل الدير ذات يوم يفتقدون وليّهم المبارك فلم يجدوه حيث تعوّدوا أن يروه فى كل صباح ، والتمسوه فى كل مكان : فى الدير ، وفى جنة الدير ، وفى الصحرا من حول الدير ، فلم يظفروا به ولم يجدوا له أثراً . فذهبت ظنونهم وظنون غيرهم من الناس فى هذه الغيبة كل مذهب ، وأوّلوها كل تأويل ، ولكن كيمون نفسه لم يظن ولم يؤوِّل ، وإنما استعان الله على أن يخلُص من هذا الضيق ، ودعا الله أن يخفيه عن الناس حتى يبلغ مأمنه ، فاستجاب الله له . ومضى فى طريقه هارباً من الدير ، كما مضى فى طريقه هارباً من

المدينة ، لا يلوى على شىء حتى خرج من الصحراء المجدبة ، وأمعن فى أرض خِصْبة فيها خير وثراء كثير ، فمضى فيها لا يُغريه ما كان يرى من حياة الناس ونعيمهم ، ولم يمسَّ قلبه ولا حسه ما كان يرى من تلك المدن العامرة ؛ التى كانت تذكره بمدينته لأنها كانت تشبهها بما كان يقوم فيها من القصور الفخمة والملاعب الواسعة الضخمة ، وبما كان ينصب فيها من الأسواق التى تحمل إليها ألوان التجارة من أطراف الأرض ، وبمن كان يضطرب فيها من هؤلاء الشبان المُترَفين ومن هؤلاء النساء المتهالكات الساعيات باللحظ واللفظ إلى الإثم والفتون .

كان الشيخ يمضى بين هذا كله : لا منكراً له ولا راغباً فى شىء منه ، لأنه كان مشغولاً بنفسه ودينه عن هذا كله . حتى إذا قطع هذه الأرض من حَدٍّ إلى حدٍّ ، وقف عند قرية فقيرة فى طَرَف من أطرافها تمسُّ الخِصْب من ناحية ، وتمسُّ الصحراء من ناحية أخرى . أقام كيمون فى هذه القرية ، وقد أعجبه فقرها وشَظَف أهلها ، وأعجبته هذه الصحراء التى كانت تمتد أمامه من غير حد . وقد كان كيمون كَلِفاً بالصحراء لا يستطيع أن يسلوها ، لأنه لا يستطيع أن ينسى أنه وجد فيها الهدى ، وتبيَّن فيها وجه الصواب . فكان يُنفق أيام الأسبوع أجيراً لأهل القرية يعمل فيما يحتاجون إلى إقامته من البناء . حتى إذا كان يوم الأحد خرج مع الصبح فأبعد فى الصحراء حتى تنقطع الصلة بينه وبين الناس ، ثم ينفق نهاره كله فى ذكر الله ويعود إلى القرية مع الليل ، وكان كيمون رحيما للبائسين رفيقاً بأهل الضرّ : فكان إذا مر بالبائس أو المحروب

أو المريض رقّ قلبه ودعا له فى نفسه ، فما أسرع ما يزول البؤس ويُكشف الضر ويُرفع المرض!. وكان الناس ينكرون ذلك ويعجَبون له . فلما كثر ذلك واتصل وعرفه الناس أحبّوا هذا البنّاء وكَلِفوا به ، ثم استحال حبهم وكَلَفهم إلى شيء يشبه الفتنة . وأحس كيمون أنه صائر إلى مثل ما صار إليه فى الدير فارتحل عن هذه القرية تحت الليل ، وافتقده الناس من الغد فلم يجدوه . وكذلك أخذ الشيخ ينتقل من قرية إلى قرية ، ويرحل من مكان إلى مكان ، حريصاً على أن يلازم الصحراء ليقضى فيها الأحد من كل أسبوع ، يقيم فى القرية ما جهله الناس ، ويفرّ من القرية حين يحس أنهم قد عرفوه . حتى إذا كان فى قرية من قرى الشام فى آخر العمران وأوّل البادية عرفه رجل من أهلها كأنه عربى كان يسمّى صالحاً : عرفه وعرف تستّره وتنكره للناس ، فلزمه عن بعد . وخرج كيمون فى يوم من أيام الأحد فأمعن فى الصحراء كعادته وصالحٌ يتبعه عن بعد . حتى إذا انتهى إلى مكان من الفلاة قام يصلّى وصالح يلحَظه . وإنه لفى صلاته وإذا حيّة عظيمة ذات رءوس سبعة قد أقبلت تسعى إليه ، فاغرة أفواهها ولها فحيح مزعج مخيف .. فلم يحفِل بها كيمون ، ولكنه دعا الله عليها فأماتها الله فى مكانها . وجزِع صالح حين رآها تسعى إليه فصاح : إياك والحية ! . ومضى الشيخ فى صلاته حتى أتمها . ثم أقبل على صالح يسأله عن أمره . قال صالح : شهد الله ما أحببت أحداً ولا شيئاً حبى لك ، وما أردت إلا أن ألزمك وأتعلّم منك ، فأذَنْ لى فى ذلك . قال كيمون : لست أرى بذلك بأساً ، ولكنى أشفق أن تشقّ عشرتى عليك ،

خدو تك ما أحببت إن قدرت على صحبتى . وعادا إلى القرية فى المساء ، فلم يُقم فيها كيمون أياماً حتى عرف أهلها منه ما عرف أهل القرية من قبل . وجاءه رجل من أهل القرية فقال : إنى أريد أن أصلح بعض البناء فى بيتى ، فهل لك فى أن تنظر فى هذا البيت لأشاركك على ما أريد ؟ فلما انتهى معه إلى الدار أدخله فى حجرة وأخذ يتحدّث إليه عما يريد تغييره . ثم نظر كيمون فإذا الرجل يهوى إلى الأرض فيرفع ثوباً كان مبسوطاً وإذا صبى ضرير سيّئ الحال . فلما رآه كيمون رقّ له ودعا الله ، فنهض الصبى وليس به بأس . واستيقن البنّاء أن أمره قد افتضح ، فقال لصاحبه صالح ، لا مُقام لى بعد اليوم فى هذه القرية ، إنى ماض فى الصحراء ، فان شئت فاتبعنى وإن شئت فأقِم . ولم يدركهما صبح غد إلا وقد انقطعت الصلة بينهما وبين الحواضر . ولكن وحدتهما لم تطل ، فما أكثر القوافل التى تتردد بين الشام وبلاد العرب آخذة فى الصحراء كل طريق ! . مرت بهما قافلة من هذه القوافل فعدَتْ عليهما واتخذتهما بضاعةَ . حتى إذا عادت إلى نَجْران من أرض اليمن باعتهما لرجلين من أشراف المدينة . فأمّا صالح فقد نسيه التاريخ ، وأكبر الظن أنه ذهب مع الذاهبين فى تلك الفتنة المنكرة التى أظلّت أهل نجران بعد ذلك بأعوام . وأما كيمون فقد أكرم سيّده مثواه وأفرد له حجرةً فى داره . فكان يعمل لمولاه بياض النهار ، ويقوم للصلاة أكثر الليل . ولاحظ سيّده مرةً ومرة أن حجرة هذا العبد مضيئة فى الليل من غير مصباح فأنكر ذلك أوّل الأمر ، ولكنه استيقنه بعد طول الملاحظة . فلما أصبح

دعا إليه كيمون وسأله عن ذلك ، فلم يجبه بشيء . فسأله عما يصنع فى حجرته . قال : لا أصنع شيئاً إنما أصلّى وأذكر الله . قال : فحدثنى عن دينك وعن إلهك هذا الذى تعبده ، فإنى لا أراك تعكُف على نخلتنا هذه الطويلة التى نعكف عليها ولا أراك تتقدّم إليها كما نفعل بالعبادة والتكريم . قال : وما نخلتكم هذه الطويلة ؟ وأين تقع من العبادة والتكريم ؟ ! وإنما هى نخلة كغيرها من النخل ، تختلف عليها الأحداث والخطوب ، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضراً ، ولو دعوت الله عليها لأراكم فيها ما تكرهون . قال : فافعل ! فإنك إن تبلغ ما تريد دخلنا جميعاً فى دينك . هنالك دعا كيمون ، وإذا ريح عاصفة تُقبل فتقتلع النخلة اقتلاعاً ، وتجتثّها من أصلها اجتثاثاً . هنالك آمن السيد بدين العبد ، وأقبل أهل نجران على هذا الشيخ يسألونه ويتعلمون منه . ولم ينقض النهار حتى كان كيمون قد هدى المدينة كلها إلى دين المسيح . وكذلك استقرّت النصرانية فى بلاد العرب ، وهمّ أهل المدينة أن يُكرموا كيمون ويُكبروه ، ويتخذوه لهم سيِّداً وإماماً ، ولكنه كره ذلك ونَفَر منه ، وفرّ بدينه من المدينة كما فرّ به من الدير ، وكما فرّ به من القرى . فخرج مهاجراً حتى بعد عن العمران ، وابتنى لنفسه فى الصحراء خيمة أقام فيها ما شاء الله أن يقيم ، منقطعاً للعبادة والطاعة ، عاكفاً على الدِّين والذكر والنظر فى الإنجيل . والناس يَقْدُمون عليه من نجران ومن حولها ، فيعلّمهم ويبصِّرهم فى دينهم ثم يصرفهم عنه فى رفق حازم ، لا يرضى منهم لزوماً له ، ولا يقبل ما كانوا يحملون إليه من ضروب الهدايا .

وعظم أمر المسيحية فى نَجْران ، حتى لم يبق من أهلها الوثنيين رجل ولا امرأة ولا غلام ولا فتاة إلا دخل فى الدين الجديد ، واجتهد فيما كان يأخذه به من عبادة وتقرُّب إلى الله ، وحتى ضاق بذلك عدد يسير من اليهود كان مستقرًّا فى هذه المدينة ، يعمل فريق منه فى التجارة وفريق آخر فى الصناعة . فأخذ هؤلاء اليهود يجادلون نصارى نجران فى دينهم ويشددون عليهم النكير ، وينالون شيخهم ومعلمهم بألسنةٍ حِدَاد ، حتى اغتاظ لذلك النصارى فغضبوا لدينهم . وكان بين فريق منهم وبين اليهود خصام عَظُم شرُّه بعض الشىء ، وارتفع أمره إلى ملك اليمن فى صنعاء ، وهو الذى كان يُعْرَف بذى نُوَاس .

وكان ذو نواس هذا قد نهض بملك آبائه من حمير بعد فتنة طويلة ماحّة ، فجد فى جمع الكلمة وتوحيد الرأى ، وكان قد ورث يهودية أبيه تُبَّع فحمل الناس عليها حملا ، وأحيى سُنَّتها ، وأنفق فى ذلك نشاطاً عظيماً ، وأقام حكم التوراة بين أهل المدن وبين القبائل فى السهل والجبل . ثم عاوده حلم أخيه حسان فأخذ يفكر فى أن يتهيأ للخروج من اليمن بيهوديته لينشرها فى الآفاق ، ويفرضها على أهل الشرق والغرب . ولم يكن فى قصره حَبْران كاللذين كانا فى قصر أخيه . فلم يردّه أحد عما كان قد همّ به وتهيأ له . وإنه لفى ذلك ، وإذا يهودى من أهل نجران قد أقبل مسرعاً مروَّعاً حتى دخل صنعاء ، وانتهى إلى القصر ، واستأذن على الملك شاكياً باكياً مستغيثاً لليهود ، مستنجداً التوراة . فلما أذن له ومَثُل بين يدى ذى نُوَاس زعم

له أن رجلا من الروم أقبل فى قافلة من القوافل فأفسد نجران وما حولها ، وحمل المشركين من العرب والأعراب على دين المسيح ، وأن هؤلاء النصارى قد اعتزوا على اليهود وعَلَوا عليهم ، ثم بغَوا وطغَوا ، وأسرفوا فى البغى والطغيان ، حتى أهانوا التوراة ونالوا من ذاد عنها السوء ، وحتى قتلوا من اليهود نفرا ، وأخافوا من بقى منهم فى المدينة . وقد قَدِمت عليك أيها الملك فَزِعاً مستصرخا . فإما نصرتنا ، وإما حوّلتنا عن هذه المدينة التى لم يبق لنا فيها مُقام . قال الملك وقد أخذ منه الغضب ، وملكه الغيظ ، أفتُرانى آذن لغير اليهودية من الدين فى أن يستقر ببلاد العرب وأنا عظيم حمير ، ووارث تبّع ، وذو صنعاء !. ثم أذّن فى الجيش بالرحيل ، وما هى إلا أيام حتى كانت نجران قد أحيط بها . ودعا الملك إليه جماعةً من قوّاده وعظماء جنده ، فأمرهم أن يجمعوا له أشراف المدينة وأهل الرأى والمكانة فيها . فلما حشدوا له حشداً خيَّرهم بين اليهودية والموت . ولم يَدَعْ لهم مخرجا من هذين الأمرين ، ولم يُمهلهم ليفكروا أو ليدبّروا أمرهم بينهم . وما كانوا فى حاجة إلى التفكير ، وما كانوا فى حاجة إلى التَّروية ، فقد ملكت النصرانية عليهم قلوبهم وعقولهم واختلطت بدمائهم . فما أسرع ما أجابوا : أيها الملك ، إذا لم يكن بُدٌّ من الاختيار فإنا نختار الموت . فلما رأى الملك منهم ذلك أمر منادين أن يؤذّنوا فى المدينة : ألاَ إن الملك قد خيَّر أشرافكم بين اليهودية والموت ، فآثروا أن يموتوا ، فأيُّكم اختار اليهودية وأشفق من الموت فله أن ينحاز إلى الجيش . وطال نداء المنادين وتأذين المؤذنين ، فلم ينحَزْ إلى الجيش أحد . هنالك

أمر ذو نُوَاس فاحتُفرت الأخاديد[١]، وجمع فيها الحطب والخشب، وألقى فيها الزيت، وأُضْرِمت فيها النار، ودُفع أهلُ نجران إليها دفعاً. وهنالك أطلق ذو نواس أيدى حمير فى أهل نجران، ينالونهم بالقتل والمَثُلة[٢]، ويحتازون من أموالهم ونسائهم ما يشاءون. وهنالك جرت الدماء أنهاراً، وانتثرت الأشلاء انتثاراً، وارتفع اللهب إلى السماء بنفوس الشهداء.

وفى أثناء هذا كله كان شيخ فانٍ ضعيف قد خرج من خيمته وأشرف من مكان مرتفع، فأخذ ينظر إلى النار ترتفع فى السماء، وإلى الدماء تجرى على الأرض، وأخذ يسمع أصوات المصلِّين وهم يُقبلون إلى الموت، وأصوات المعتدين وهم يدفعونهم إليه، وأخذ يذكر عهداً بعيداً بعيداً جدًّا، ويستحضر صورة منكرة منكرة جدًّا، رآها أثناء الشباب فى مدينة من مدن البحر جرت فيها الدماء وانتثرت فيها الأشلاء، واضطرمت فيها النار، وصلى فيها الشهداء، وسخر فيها المعتدون. وأخذ الشيخ ينظر إلى هذه الصورة البَشعة أمامه، ويرى تلك الصورة البشعة وراءه، ويقارن صورة إلى صورة، ثم تحدَّث إلى نفسه فى صوت هادىء رقيق: لقد ضاقت نفسى الشابة بتلك الصورة ففرَرت من المدينة وخرجت إلى الله عن أهلى ومالى، وما كانت الحياة قد هيَّأت لى من لذة وأعدَّت لى من نعيم. وإنى لأنظر إلى هذه الصورة فأحبها وأشتهيها، وأُفتَن بها وأُدْفَع إليها. ماذا!! لقد انحسرت عنى

---

(١) الأخاديد: جمع أخدود، وهو شق مستطيل فى الأرض.
(٢) المثلة « بفتح الميم وضم الثاء أو سكونه »: العقوبة.

الشيخوخة انحساراً ، وارتفع عن الضعف ارتفاعاً ، وأصبحت شاباً قوياً شديد النشاط كما كنت منذ أكثر من خمسين عاماً . ماذا ! إنّ هذه النار المضطرمة لتعجبنى ، و إنّ هؤلاء الذين يُقبلون إليها ليدعوننى . ماذا أرى ! هذه النار ولا أُسرع إليها ! وأرى هؤلاء الناس ولا أدخل فيهم ! إنى لأجيل طرفى فى السماء من أمام ومن وراء ، ماذا ألتمس ! لن أرى آلهة اليونان كما رأيتهم من قبل ينظرون ثم ينكرون ثم يرتحلون . إنما كان آلهة اليونان باطلا كلهم . وقد مات الباطل ، وما ينبغى له أن يُبعث من جديد . ثم يسعى كيمون هادئاً متّئداً ، حتى إذا دنا من النار استحال سعيه عدواً ، واتئاده حركة عنيفة ، و إذا هو ينضمّ إلى الناس ، و إذا صوته يمتزج بأصواتهم ، و إذا هو يدخل معهم فى هذا الموت ، ليصل معهم بعد ذلك إلى دار الخلود .

قلت لمحدثى : وكم كان عدد الشهداء من أهل نجران ؟ قال تحدّث الناس أن ذا نواس أفنى منهم قريباً من عشرين ألفاً ، وأن رجلاً واحداً جَدّ فى الهرَب حتى أعجز الطالبين فنجا ومعه إنجيل قد مسّته النار ، فانطلق به إلى النّجاشىّ يستعينه على الثأر . وكانت هذه القصة آخرة المُلْك الحميرى ؛ بل آخرة الملك العربى فى بلاد اليمن .

١٠

راهب الإسكندرية

أقبل أهل الدير على راهبهم الجديد يحدثونه ويسمعون منه ، وكان شيخاً قد تقدَّمت به السن ، ولكنه احتفظ بقوة ونضرة قلما يحتفظ بهما الشيوخ إذا قاربوا السبعين . وكان وضيء الوجه ، مشرق الجبين ، منطلق اللسان ، عذب الحديث فى يونانيته الإسكندرية . وكانت تظهر على وجهه وفى حديثه آثار النِّعْمة والغنى ، وحياة الرجل الذى لم يذق بؤساً ولا فقراً ولا هواناً . وكان قد أقبل على هذا الدير الصغير الذى كان يقوم فى طَرَف من أطراف الصحراء مما يلى الشام ؛ حيث تمر القوافل الآتية من بلاد العرب والذاهبة إليها . وكان مَقْدِمه على الدير حديثًا لم تمض عليه إلا أيام قليلة . وكان قد أقبل يحمل مالا كثيراً فيه ذهب وفضة ، وفيه جوهر وعُروض . فلما بلغ الدير استأذن على رئيسه فأذِن له . وهنالك قدَّم إليه ما كان يحمل من المال وقال : اتخذ من هذا المال ما تُصلح به من أمر الدير وأهله ، فإن بقى منه فضل فأنفقه فى وجوه الخير والمعروف ، فإنى قد خرجت لك عنه كما خرجت لله عن لذات الحياة كلها ، ووقفت ما بقى لى من العمر على الطاعة والعبادة والتفكير فى الدين ، ولست أسألك إلا أن تؤوينى فى هذا الدير لأنقطع لعبادة الله وانتظار أمره . قال رئيس الدير : أما أنت فقد قبلناك على

الرّحب والسعة ، وما ينبغى لنا أن نرُدّ طارقا يريد أن يشاركنا فيما نحن فيه من ذكر الله والإحسان إلى الناس . وأما مالك فإنّا نقبله شاكرين لله أن ساقه إلينا ، فإن حاجتنا إلى المال فى هذا المكان المنقطع الذى نحن فيه لاتنقضى . وسترى أن أيامنا ولياليها لا تخلو من هؤلاء الطارقين الذين تنقطع بهم سبل الصحراء فنؤويهم ، ونُعينهم ونحملهم ، ونبذل ما نملك من الجهد لنُبلغهم مأمنهم . والناس يعينوننا على هذا المعروف بالقليل والكثير ، فنقبل منهم ما يبذلون وننفقه فيما ترى . ثم أوصى به من أهل الدير من علّمه ما للجماعة من نظام . فلم يكد يمضى بينهم أياماً حتى ألِفوه وكَلِفوا بحديثه وعلموا أن عنده شيئاً ، وأنه ليس كغيره من هؤلاء الذين تدفعهم قوة إيمانهم أو يدفعهم يأسهم مما كانوا يبتغون من المنافع والآمال واللذات إلى الدير . إنما كان رجلا فذاً تدل مظاهره وأحاديثه على أن له نبأ لا كالأنباء ، وأملاً لا كالآمال . فأخذوا كلما فرَغوا من أعمالهم وطعامهم وصلاتهم حين يقبل الليل يطيفون به ، ويسمُرون معه ، فيتحدّثون إليه ويستمعون له . وهم فى هذه الليلة يسألونه عن أمره كيف انتهت به الحياة إلى الدير ، وكيف طابت نفسه عن هذا المال العريض والثراء الضخم ، فنزل عنه كما ينزل عن أيسر الأشياء . قال : إن قصتى لا تخلو من عجب ، وقد تسمعونها فتنكرون منها الشىء الكثير ، ولكنى مع ذلك سأحدّثكم بها لا رغبةً فى أن أثير العجب فى نفوسكم ، ولا فى أن أُعينكم على إنفاق الوقت ، ولكن نصحاً لكم وإشفاقاً عليكم ، فقد أرى أن أمرى يثير فى نفوسكم حبًّا

للاستطلاع قوياً متصلاً ، يوشِك أن يصرِفكم عن بعض ما ينبغى أن تفرغوا له ، وما أريد أن أكون مصدر خطيئة مهما يكن أمرها يسيراً . ثم أطرق غير طويل كأنه يفكر ويستحضر أول قصته ، ثم قال : كنا ثلاثة شركاء نصرّف بين أرجاء الأرض العريضة تجارة واسعة . وكنا قد اقتسمنا الأرض بيننا أثلاثاً ، فرغ كل واحد منا لواحد منها يدبّر شأنه ، ويصرّف التجارة فيه إيراداً وإصداراً . وكنا نلتقى من حين إلى حين ليُلقى بعضنا إلى بعض ما انتهت إليه تجارته من ربح ، ولننظّم فيما بيننا أمر هذه الثروة التى كانت تنمو فتسرع فى النمو ، وتَطَّرِد زيادتها الغريبة من عام إلى عام . وكان أحدنا قد اتخذ مستقرّه فى روما يدير منها تجارة القسم الغربى من الأرض ، وكان الآخر قد اتخذ مقامه فى قسطنطينية يدير منها تجارة هذا القسم من أقسام الدولة فى بلاد اليونان وتراقيا وما إليها حتى يصل إلى بلاد السيتيين . وكنت أنا قد اتخذت الإسكندرية لى داراً ، وكنت من أهلها . وكانت إلىّ تجارة الهند وهذه البلاد التى يسكنها البدو والتى تسير منها القوافل فتخترق الصحراء على ظهور الإبل والتى يسمونها بلاد العرب . وكانت تجارتنا الواسعة تضطرنا إلى علم دقيق بأمور الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وبأمور الأقاليم والأقطار ، وما تستطيع أن تعطى وما تستطيع أن تأخذ . وكان هذا العلم يدفعنا إلى نشاط شديد عند رجال المال والزرع ، وإلى اتصال شديد برجال الدين والسياسة والحكم . فأما صاحبى فى قسطنطينية فقد كان واسع الحيلة حسن المَدْخَل إلى نفوس الناس حتى استطاع أن يجعل

لنفسه فى بلاط قيصر مكاناً ممتازاً . وأستطيع أن أقول : إنى جَهَدت ووُفِّقت فى الجهد حتى كان حكام مصر وبطارقتها وقادتها أصدقاء لى ، لا يكاد أحدهم يصل إلى الاسكندرية حتى تنشأ بينه و بينى أسباب المودة والألفة ، وما هى إلا أن أصبح من خاصّته وأصفيائه المقرّبين . ولم يكن صاحبنا الغربى أقل منا مهارةً ، ولا أضيق منا حيلةً فى التعرُّف إلى من فى الغرب من العظماء السادة ومن الأشراف والملوك . وكانت أمورنا تجرى على خير ما نحب ، إلا من ناحية واحدة كانت تكلفنا عناء وجهداً لا آخر لهما ولا غناء فيهما . وكانت هذه الناحية هى ناحيتى أنا ، فقد كنا نلقى مشقّة وعناء فى تدبير تجارة الهند والشرق ، لا نستطيع أن نصل إلى مصادرها ، ولا أن نأخذها من أهلها لبعد الشقة وضعف الأداة ، وانقطاع سلطان الدولة عند الصحراء . فكنا نتلقّى هذه التجارة كما يتلقّاها الناس الآن من هذه القوافل التى تحملها إلينا ، فتقطع بها الصحراء وتُنفق فى ذلك من الجهد ، وتحتمل فى ذلك من المشقة وتبذل فى ذلك من النفقات ما يدفعها إلى أن تغالى فى البيع ، وتشتط فيما تطلب من الربح . وكنا نذْعِن لشَطَطها كما يُذْعِن الناس الآن ، لأننا لم نكن نجد كما لا يجد الناس الآن بدًّا من هذا الإذعان . وكنا نسعى فى بلاط قيصر وعند حكام الإسكندرية ونلحّ فى السعى ، نريد أن نحمل الدولة على أن تبذل شيئاً من الجهد لتبسُط سلطاننا على الصحراء أو على البحر ، فلم يكن سعينا ينتهى إلى شىء . و إنا لفى ذلك و إذا فرصة تسنح ، وظروف تتهيأ ما كنا لنحسب لها حساباً ، وما كان ينبغى لنا أن نهملها

وقد سنحت وأمكنتنا من العمل : أقبلت سفينة البريد ذات يوم من قسطنطينية وفيها رسول أرسله صاحبي إليَّ ؛ ينبئني بأن كتاباً ذا خطر قد أرسل إلى الحاكم ، ويتقدَّم إليَّ في [1] أن أتلطَّف حتى أعرف من أمر هذا الكتاب ما يعنى تجارتنا ، وألّا أقصّر إذا عرفتُ ذلك فيما ينبغي أن أتخذ من الوسيلة لتستفيد تجارتنا أعظم الفائدة . فلما قرأت هذا الكتاب عُنيت بما فيه ، ولم ألبث أن زرت الحاكم ، ولم أنصرف عن مجلسه حتى علمت جليّة الأمر ، وحتى قَدَّرت لتجارتنا نموًّا لا حد له . ذلك أن السفينة كانت تحمل إلى الحاكم كتاباً من ديوان قيصر يأمره فيه أن يهيِّئ أسطولاً لا يقل عن مائة من السفن ليبحر إلى بلاد النجاشي ، وعرفت أن مصدر هذا الأمر إنما هو اعتداء اليهود في أقصى البلاد العربية على إخواننا في الدين ، وتحريقهم بالنار وأخذهم بألوان العذاب ، حتى بلغ الذين قتلوا منهم عشرين ألفاً أو يزيدون . وقد لقيت عند الحاكم أخا لنا في الدين من أهل تلك البلاد ، قد استطاع أن يُفلت من اليهود ومعه مصحف من مصاحف الإنجيل قد مسته النار ، فلجأ إلى النجاشي يطلب منه الغوث ، وأظهر النجاشي حفيظة وغضباً للدين ، ولكنه عجز أن يُغيثه ، لأن جنده على قوته وكثرته لم يكن يستطيع أن يعبر البحر إلا على السفن ، ولم يكن عند النجاشي من السفن قليل ولا كثير .

هنالك أرسل النجاشي هذا العربي النصراني إلى قيصر يستنجده ويستعينه ، ويطلب إليه السفن لتجيز جيشه إلى عُدْوة [2] اليمن : ولم يكد

(١) تقدم إليه بكذا أوفي كذا : أمره به وأوصاه . (٢) العدوة : الشاطئ

قيصر يرى مصحف الإنجيل وقد مسّته النار ، ولم يكد قيصر يسمع قصة النصارى وقد خُدّدت لهم الأخاديد وحُرّقوا فيها تحريقًا ، ولم يكد قيصر يسمع قصة ذلك القدّيس اليونانى الذى حمل إلى العرب دين المسيح ، فذاق فى سبيل ذلك الموت محرقاً بتلك النار التى حرقت غيره من المؤمنين ، حتى ثارت حفيظته وموْجِدته ، وأمر من فوره أن يكتب لحاكم الإسكندرية فى تسيير هذا الأسطول مهما يكلفه ذلك من النفقات ، فلما عرفت من الحاكم ومن هذا العربى جليّة الأمر لم أُطل التفكير ، وإنما عدتُ إلى الحاكم بعد ساعات وقلت له : لا عليك ! إنى أريد أن أنهض بهذا الأمر ، وأن أجِدّ فيه وحدى ، وأن أريح الدولة مما قد تتكلف فى سبيله من الجند والمال والمشقة ، فهذا النجاشى لا يريد إلا سفنًا تجيز جنده إلى اليمن ، فدعنى أهيِّئ هذه السفن . قال الحاكم وهو يبتسم : لا أرى بذلك بأسًا ، فهو يريح الدولة ، وهو ينفعك وينفع صاحبيك ، فما أرى أن هذه السفن ستعود فارغة ، أرى أن قوافل الصحراء ستتعب فى عبورها إلى الشام فى العام المقبل ، وما أرى إلا أن أهل البادية سيحسون لذع الجوع . قلت : وإن أهل مصر والإسكندرية سيجدون الثروة والغنى إن وُفِّقنا فى هذه الرحلة ، وإن أصحاب هذه السفن إن عادت سالمة موفورة سيعرفون للدولة ورجالها ما ينبغى من الحق . قال الحاكم : فهو ذاك . ولست أستطيع أن أصور لكم تلك الخواطر التى لم تكن تحصى ، والتى كانت تضطرب فى نفسى اضطرابًا كاد يذهلها عن كل شىء ، فقد كنت أرى نفسى قائداً عظيماً على رأس أسطول

ضخم ؛ يبعد فى البحر ليرفع أعلام قيصر على أرض لم تبلغها جنودنا من قبل . وكنت أرى نفسى سائحًا عظيماً يسجل فى كل يوم ما شهد وما رأى من غرائب البر والبحر ، ومن أطوار الناس وضروب الحيوان والنبات ، وكنت بين نفسى و بين إكسينوفون ، وأرى أن الكتاب الذى سأكتبه عن هذه الرحلة لن يكون أقل جمالا ولا روعة ولا خطراً من كتاب إكسينوفون بعد أن عاد من رحلته المشئومة . وكنت أرى نفسى ثائراً للدين ، منتقما للنصرانية ، مؤيداً للمسيح ، ظافراً بإكبار القسس والرهبان والبطارقة فى جميع أقطار الأرض . ثم كنت أرى نفسى بعد هذا كله مثرياً عظيما قد ملك البحر ، وقاد مائة سفينة فارغة ثم عاد بها مثقلة بخير ما تنتج الهند و بلاد البحر السعيدة و بلاد الأثيوبيين من ضروب التجارة والعُروض ، حتى إذا انتهى إلى مصر نشر تجارته هذه فى الشرق والغرب ، وغمر الأرض كلها بهذه البضاعة ، فيَسَّر على الناس من أمرهم كل عسير ، وأتاح للأغنياء المترفين والفقراء البائسين من وسائل الترف واللذة ما لم يكونوا يحلمون به ، وربح من هذا كله مالا لم أكن أفكر فى إحصائه وتقديره ، لأن ذلك كان يسلِّط على رأسى شيئًا من الدُّوار لم أكن أستطيع أن أثْبُت له .

ومنذ ذلك اليوم أعرضت عن كل شىء إلا تدبير هذه السفن وتهيئتها للرحيل . فما أكثر ما اشتريت من سفن ! وما أكثر ما ابتنيت منها ، وما أسرع ما بثت أعوانى فى أقطار مصر يجمعون لى من أنواع التجارة والعروض ما كنت أريد أن أحمله ! فلم تطب نفسى عن ذهاب السفن

فارغة إلى بلاد النجاشي . ولم تمض ستة أشهر حتى أقلع الأسطول العظيم بعد أن بارك عليه رجال الدين ، وبمشهد حافل من رجال السياسة والأعمال ، ومن جماعات الشعب الذين كانوا ينظرون إلينا مبتهجين مستبشرين ، والذين لم يملكوا أنفسهم أن دفعوا في الجو صيحةً هائلة ملؤها البشر والإعجاب حين اندفعت سفننا تشقُّ عُبَاب الموج . وقضينا في البحر أياماً طوالا تطيب لنا الريح فيها أحياناً ، وتتنكر لنا فيها أحياناً أخرى ، ونحن على كل حال مبتهجون مستبشرون ، نستمتع بما نرى من جمال الطبيعة في هذا البحر الذي لم يألفه اليونان ، ولم يُذلِّلوه لسفنهم بعدُ . ولست أريد أن أسوءكم بأن أصوِّر لكم حياتي في تلك الأيام التي قضيتها قائداً عظيما للأسطول العظيم ، والتي كنت أراها أسعد ما كان ينتظر الإنسان من دهره ، فأصبحت أراها الآن أيام شقوة ونقمة وتعس . وأستغفر الله جاهداً مما حملت فيها من أوزار وأثقال ، وأعتقد أني مهما أتكلَّف من مشقَّة في العبادة ، ومن حرمان في ذات الله ، فلن أكفِّر عن بعض ما جنيت فيها من إثم وذنب . وحسبي أن تعلموا أني كنت كغيري من أهل طبقتي ومنزلتي في الإسكندرية وغيرها من المدن ؛ التي كانت تزهر فيها الحضارة ويسود فيها سلطان الفلسفة والعلم ، رقيقَ الدين . قد اتخذت من المسيحية ستاراً لا يكاد يُخْفِي ما بقي لي من عادات آبائي الوثنيين ، فقد كنت أحب اللذة وأتهالك عليها . وقد كنت أبسُط سلطان عقلي على كل شيء فينتهي بي إلى الشك في كل شيء ، وكنت أحب وثنيَّة اليونان القدماء ، ولكني لا أُومن بها ، وأتكلف

مسيحيه اليونان المحدَثين ، ولـكنى لا أطمئن إليها . وكنت قد اتخذت لنفسى ديناً قد اتخذه أشرافنا وسادتنا لأنفسهم فى هذه الايام . وقوام هذا الدين الشك فى كل شىء ، والإيمان بإلٰهين اثنين ؛ هما اللذة والغنى . وعلى اللذة والغنى وقفت حياتى فى الإسكندرية ، وعلى اللذة والغنى وقفت حياتى حين كنت قائداً عظيما لأسطول عظيم . فكم اصطحبت من القِيان والمغنِّين والشعراء والمضحكين ! وكم حملت من الكتب والنبيذ ! وكم أنفقت من الحيلة لأتخذ من ألوان الزهر والشجر ما يستطيع الاحتفاظ بجماله ونضرته على بعد العهد واختلاف الجو والإقليم . وتستطيعون بعد ذلك أن تصوِّروا لأنفسكم كيف قضيت تلك الأيام الطوال منذ أبحرت من مصر إلى أن بلغت بلاد الاثيوبيين .

هنالك استقبلنا الناس استقبال الفاتحين الظافرين ، فقد كانوا يتحرّقون غيظاً على هذا الملك العربى اليهودى ومَنْ حوله من اليهود . وكانت قلوبهم تَدْمَى حزناً على إخوانهم المسيحيين الذين فُتِنوا عن دينهم ، واستشهدوا فى سبيل هذا المسيح . ولم تكن النار التى كان يُثيرها الغيظ والحزن فى صدورهم أقل من النار التى أذكاها ذلك الملك العربى اليهودى ، وحرّق فيها إخوانهم فى الدين . وما أظن أن أحداً كرِه البحر وضاق به ، وتمنى لو غار ماؤه والتقى ساحلاه ، كما كره أولئك الناس بحرهم ذلك الذى كان يحول بينهم وبين عدوّهم من اليهود . على أننا أنفقنا أياماً قبل أن نجيز بالجند إلى بلاد العرب ، فلم يكن بُدٌّ من أن ألقى الملك وأقدّم إليه تحية قيصر وهديّته .

ولم يكن بدٌّ من أن أُصَرِّف تجارتى وأستوثق لما حملت من العرُوض . وما هى إلا أيام حتى كانت السفن قد شُحنت بالجنـد وما يحتاج إليه من عدة وسلاح وفِيلة ، ولم يكن عبور البحر عسيراً ، ولم يكن النزول إلى أرض اليمن شاقًا ، ولم يحتج الجند إلى كبير قتال ، فإن الملك العربى لم يكد يرى هذا الجيش الضخم مجهَّزاً بما كان قد جُهِّز به من العُدَّة والسلاح ، ولم يكد يرى هذه الفيلة المروِّعة المخيفة حتى خاف وارتاع ، ووجه فرسه نحو البحر فاقتحمه ولم يعرف الناس له خبراً ، وتفرَّق من كان حوله من الجند وعلى رءوسهم أقيال اليمن وأذواؤها ، وخَلَصت الطريق لنـا إلى صنعاء فدخلناها ظافرين ولم ناقَ كيداً ، ولم نستقر فى صنعاء حتى وجهنا الجنـد إلى تلك المدينة الشهيدة فنبلُغها بعد أيام ونرى من آثارها وأطلالها ما يمزِّق الأفئدة ويذيب النفوس . فما أسرع ما يعمل الجند ! وما أسرع ما يَسْخَر اليهود ! وما أسرع ما تقام المدينة ، وما أسرع ما تقام فيها البِيَع والكنائس ، وما أسرع ما ينادى فى الناس إن مدينة المسيح قد رُدَّت إليه ، وإن أهلها الذين فرّقهم الخوف آمنون ! . وما أسرع ما حُمِل كثير من أهل اليمن على النصرانية حملا ! وما أسرع ما دخل كثير من أهل اليمن فى النصرانيـة راغبين أو راهبين ! . ونعود إلى صنعاء وقد ثأرنا للدِّين ، وأقمنا نجران على خير ما كان ينبغى أن تُقام عليه مدينة من المدن .

وأخذت بعد ذلك أفكر فى العودة إلى مصر ، وأخذت قبل كل شىء أفكر فيما ستشحن به السفن من التجارة والعُروض ، وجعلت آتهيأ لذلك

وأهيىء له ، وتحدثت فيه إلى قائد الجيش فلم يمانعنى ولم يأبَ علىَّ ، بل تقدَّم فى ذلك بخير ما أحب . ولـكنه طلب إلىَّ ألا أعود بالسفن كلها إلى مصر ، فقـد تطرأ الطوارىء وتعرِض الأحداث ويحتاج جنـد اليمن إلى العبور إلى بلادهم ، أو يحتاج أهل الحبشة إلى العبور إلى إقليمهم الجديد ، فلا بدَّ لهم من سفن مهما تـكن قليلة يستعينون بها على مثل هذه الشؤون ، فدع لنا بعض أسطولك ونحن نعوِّضك عنه بما شئت من المال والعُروض .

وكذلك تمَّ الاتفاق بينه وبينى على أن أنزل له عن ثلث الأسطول وأعود بثلثيه ، وقد حمَّلتهما ما استطاعا حمله من تجارة تلـكم الأقطار . ويتم كل شىء ، وتُقْلع سفن الأسطول كلها إلا سفينة القائد العظيم ، فإنهـا تنتظر أن أصل إليها لتأخذ طريقها إلى مصر . ولـكن حَدَثاً يحدُث فيغير كل شىء ، ويقطع بينى وبين الأسطول كل سبب ، ويصرفنى عن التجارة كارهاً أعواماً طوالا . ماذا أقول ؟! بل يصرفنى عن نفسى أعواماً طوالا .

فقد كان قادة الجند منذ استقرَّ لهم الأمر فى هذا الإقليم الجديد يختلفون بينهم اختلافًا شديداً : أيكتفون بهذا الفتح الذى وُفِّقوا إليه ، وهذا الثأر الذى ظفروا به ، فقد أرضوا الملك حين بسطوا سلطانه من وراء البحر ، وأرضوا الله حين انتقموا لعباده الشهداء ، أم يحملون الناس على دين الملك حملا ، ويمحون اليهودية والوثنية من هذه الأرض محوا ؟ . فأما قائد الجيش أرياط فقد كان صاحب سياسة وكيد ، وكان يرى الرأى الأوَّل وينظر إلى هذا الإقليم على أنه مستعمرة قد ضُمَّت إلى أملاك النجاشى ، فيجب أن تُستغل أرضُها وأن

يُستذل أهلها ، ويسخَّروا لخدمة سادتهم الفاتحين ، وأما غيره من زعماء الجيش ، ولا سيما عظيمهم أبرهة ، فقد كانوا أصحاب نُسك وطاعة ودين ، وكانوا يضعون النصرانية فى المكان الأول ، ولا يكادون يحفِلون بالسياسة واستعمار الأرض ، وكانوا يريدون أن يفرِضوا النصرانية على اليمن فرضاً ، وتقدموا فى ذلك إلى قائدهم أرياط فأعرض عنهم وأبى عليهم ، وما هى إلا أن ينقُضُوا عليه الجيش ، وما هى إلا أن ينظر الرجل فإذا هو مضطر إلى أن يضرب بعض الحبشة ببعض ، ويُعجبنى أنا ما أرى ، فأبقى لأشهد عاقبة هذا الخلاف . ولست أدرى كيف استحالت مسيحيتى الرقيقة إلى إيمان قوى متين . والحق أنى سألت نفسى فأطلت السؤال عن مصدر هذا التبديل الذى أخذت أحسه منذ وطأت قدماى أرض اليمن . وأكبر الظن أن منظر تلك المدينة البائسة التعسة وما كان قد أصابها من الخراب والدمار ؛ لأن أهلها ثبتوا على دينهم ، ثم ما نالها فى وقت قصير من التجديد والعمران ؛ لأن قوماً آخرين قد أرادوا أن يثأروا لدينهم — أكبر الظن أن هذا كله قد أثار فى ضميرى على غير شعور منى إعجاباً بقوة هذا الإيمان الغريب ؛ الذى يحمل ألوفاً من الناس على أن يستقبلوا الموت ، ويتهافتوا فى النار فرحين مبتهجين كأنهم الفَرَاش ، والذى يمحو مدينة من الأرض محواً ، ثم يقيمها رفيعة العماد ، شاهقة البنيان ، معمورة بالناس ، كأن الدهر لم ينلها بمكروه . فانصرفت نفسى شيئاً فشيئاً عن هذه الحياة التى كنت أكبرها والتى أصغرها هؤلاء المؤمنون . ومهما يكن من شىء فقد أخذت أحس حبًّا لهذه الأرض

الجديدة ، وميلا إلى البقاء فيها ، عطفاً على هؤلاء الزعماء الذين كانوا يريدون أن يُعلوا كلمة الحق ، ويأخذوا الناس بدين المسيح راضين أو كارهين . وإنى لفى هذا كله وقد اشتد الأمر بين الجيشين المختصمين ، وإذا رسول أبرهة يقبل على أرياط ليبلغه أن صاحبه يكره أن يقتتل الجيشان وأن تسفك دماء الأبرياء ، ويقترح عليه المبارزة فأيهما ظفر بصاحبه كان الأمر إليه . فيرى أرياط فى هذا الاقتراح قصداً ورفقاً وإنصافا ، فيقبله ويجيب إليه . ويزداد فى نفسى الحرص على البقاء لأشهد عاقبة الأمر ، وقد شهدتها فأكبرتها : التقى الخصمان وبطش أرياط بعدوّه ، ولكن الحربة لم تقتله وإنما شقّت جبهته وأنفه وشفته . ويسرع عبدٌ لأبرهة فيضرب أرياط فيُرديه ، وتجتمع الحبشة على هذا الزعيم الذى كان يريد أن يكسب أهل اليمن لدين المسيح .

هنالك وقع فى نفسى أن هذه العاقبة ليست من عمل الإنسان ولا من المصادفة ، وإنما هى شىء قضاه الله لأمر يراد ، فتشتد فى نفسى الرغبة فى أن أطيل البقاء بهذه الأرض لأشهد الصراع المحتوم بين المسيحية من ناحية ، واليهودية والوثنية من ناحية أخرى . وكنت مع ذلك أُنازع نفسى نزاعاً شديداً ، ولكنى لم أكد أتحدّث إلى أبرهة حتى استقر رأيى على البقاء ، فأرسلت رفيقاً لى إلى سفينة القائد ليقدم بالأسطول على مصر ، وقد أوصيته ، وأحكمت أمرى له إحكاماً . ثم أبقى لأرى ما كان الله قد قدّر لى أن أراه .

وهنا أذّن مؤذّن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حُجراتهم فتفرقوا ، وكم كانوا يودّون لو مُدّت لهم أسباب السمر والحديث .

وأنفق أهل الدير بقية ليلهم بين جاهد فى العبادة ، ومغرق فى النوم .
وأنفق أهل الدير بياض نهارهم بين مصلٍّ لله ، ومحسن إلى الناس . فلما جَنَّهم الليل وهدأت من حولهم الأشياء واتخذت الصحراء جلالها الرهيب ، عادوا إلى مجلسهم يسمُرون ، وسألوا صاحبهم أن يتم عليهم مابدأه أمس من الحديث . فقال : تمَّت عزيمتى بعد طول التردد والتفكير على الأوبة إلى مصر ، وانتصر فى نفسى حب الوطن على حب هذه الأرض الجديدة ، وظهر فى نفسى حب اللذة والغنى على هذا الميل الجديد إلى النسك والجهاد فى سبيل المسيح ، فأقبلت على أبرهة من الغد أُودِّعه قبل الرحيل . ولكنى لم أر قائداً ظافراً ، ولا ملكاً منتصراً ، ولا رجلاً يزدهيه الفوز ويحيى نفسه الأمل ، وإنما رأيت رجلاً متهدماً محزوناً كئيباً قد فكر حتى عجز عن التفكير ، وقدّر حتى أعياه التقدير . فأسلم نفسه لقضاء الله فيه كأنه الغريق أعيته مكافحة الموج ، فاستسلم له وانتظر الموت . ولم أكد أتحدّث إليه حتى عرفت مصدر ماهو فيه من همّ وغمّ ، ومن كآبة وبؤس . فقد كان مستيقناً أنه أغضب الله ، وأحفظ الملك ، وأساء إلى الناس . ألم يكن قد بغى على قائده واعتدى عليه فى غير حق ولا إذعان لما تقدّم به الملك إلى الجند من الطاعة لقائده ، والنصح لخليفته فيه ؟ فكيف استباح لنفسه أن ينتصف لرأيه بيده ، وأن يفرض هذا الرأى على الجند فرضاً لا يرجع فى ذلك إلى أمر من الملك ، ولا ينتظر فى ذلك رأى الملك بعد أن يرفعه إليه ! . وكيف استباح لنفسه أن يقتل رجلا من النصارى ويسفك دمه ظلماً وبغياً ، لالشىء

إلا لأنه لم يوافقه فى الرأى ، ولم يشاركه فى الهوى . وقد كان هذا الرجل مع ذلك نصرانياً مثله يؤمن بالمسيح ويصلى لله ، وقد ثأر للدّين من عدوّه ، ورد المطرودين من النصارى إلى وطنهم ، فآمنهم وأظلّهم بسلطان واسع رفيق من الرحمة والعدل والإنصاف . ثم هو لم يقف من العدوان والإثم عند هذا الحد ، ولكنه ابتهج بما أتيح له من الانتصار والظفر ، فلم يكد يرى خصمه صريعاً تحت قدميه حتى التفت إلى عبده الذى قتل أرياط شاكراً له ، مغرقا فى الثناء عليه ، قائلا له : احتكم فأنا زعيم لك بكل ما تريد . وقد احتكم العبد ، فأسرف على نفسه وعلى مولاه ، وطلب إلى سيّده أمراً عظيما : طلب إليه أن يحكمه فى أبكار اليمن كافة ، فلا تُزَفّ واحدة منهن إلى عروسها حتى تمر به قبل الزّفاف . ولم يشعر أبرهة بعظم هذا الأمر الذى طلبه إليه العبد ؛ لأن نفسه كانت ثَمِلةً بهذا الفوز ، معرضة عن كل شىء غيره ، فأجاب العبدَ إلى ما أراد . ولم يقدّر أنه قد عصى الله بهذا الإثم الذى اقترفه ، وأقدم على إذلال أمة لم تعرف الذل ، وما كان لها أن تعرفه . ولكن أمر هذا العبد لم يكد يعرف فى الناس حتى انتهى إلى نتيجته المحتومة ، فلم يحى العبد بعده يوماً كاملا : لم يكد يلقاه أوّل من عرف هذا النبأ من حِمْيَر حتى عدا عليه فقتله . فكان أبرهة إذاً حين لقيته مُتعباً مكدوداً ، مضطرب النفس ، حائراً غارقاً فى ندم عميق . وجعلت أرده إلى نفسه قليلاً قليلاً ، وأجدّ لا فى تهوين الأمر عليه ؛ فلم يكن أمره هيّناً ولا يسيراً ، بل فى التقريب بينه وبين الرشد والصواب ، لعله يعود إلى التفكير والتقدير ولعلى أستطيع أن أعينه على أن

يجد لنفسه مخرجاً من هذا المأزق الذى اضطُرّ إليه . فقد كان عظيماً حقاً أن تذهب كل تلك الآمال والأمانى ؛ التى ملأت نفس هذا الرجل وأصحابه من قوّاد الجند ، ودفعتهم إلى ما دفعتهم إليه لينشروا كلمة الله ، وليديلوا[1] للنصرانية من وثنية الوثنيين ، ويهودية اليهود . وما زلتُ به ألاينه حيناً وأخاشنه حيناً آخر ، حتى هدأت نفسه بعض الشىء ، واستطعنا أن ننظر إلى الأمر فى روِيّة وتبصُّر ، وأقنعته بأن يبدأ بما لابدّ من الابتداء به ، فيُرضى هؤلاء الناس الثائرين الذين أحفظهم وأثار فى نفوسهم الحمية حين حكَّم عبداً من عبيده فى أعراضهم وكرامتهم . وما هى إلا أن يسمع لى ويقبل رأيى ، وإذا هو يدعو إليه من حضره من أشراف حمير ، فيعتذر إليهم ويُثنى عليهم ويهنئهم بما أظهروا من عزة وإباء للضيم ، ويقسم لو قد عَرَف نية العبد لما حكّمه ، بل لا كتفى بما يكتفى به الناس فى مثل هذه الحال ، فأعتق العبد وأغناه وردّه إلى بلاد الحبشة راضياً مسروراً . فأمّا وقد قتل هذا العبد نفسه فلا عليكم ولا علىّ ، فقد ظهر لى أنكم أحرار كرام ، وسيظهر لكم أنى حرٌّ كريم ، وأن المودة بينكم وبينى لن تسوءكم ، ولكنها ستسركم وتقِرّ أعينكم ، وستشعرون بأنى لا أملك بلادكم لنفسى ولا للنجاشى مولاى ، وإنما أملكها لكم قبل كل شىء : أصلح من أمرها وأمركم ، مستعيناً بكم على هذا الإصلاح . فمن رأى منكم أن يشير علىّ بشىء فليفعل مشكوراً ، واثقاً بأنى سأقدر نصحه ، وأسمع لمشورته ما وجدت إلى ذلكم سبيلا .

(١) يقال : أدال الله فلانا من فلان إذا أظفره به وجعل الكرة له عليه .

وكان لهذا الكلام اللين الرفيق موقعه فى نفوس هؤلاء الأشراف من حمير ، الذين كانوا ينتظرون غضب أبرهة عليهم وانتقامه منهم . فلما رأوه مُلايناً مُحاسناً ، لاينوه وحاسنوه ، وأظهروا ثقة ورضًى واطمئناناً ، ووعدوا بالنصح له والطاعة بأمره ، كما كانوا يفعلون مع ملوكهم من أبناء تُبَّع . وبالغ أبرهة فى استرضائهم ، فأجزل العطاء ونظّم الصلة بينهم و بينه على خير ما يحبون . ثم خلا إلىّ فقال: لقد جئتنى مودّعاً فيما أذكر لأنك تريد العودة إلى بلادك. قلت : نعم ، فقد طالت غيبتى عن الوطن والأهل والمال . قال : فإنى مع ذلك لن آذن لك فى الرحيل . قلت : وما ذاك ؟ قال : ذاك أنك رددتنى إلى نفسى وأشرت علىّ فأحسنت المشورة ، وما أرى أنى أستطيع فراقك منذ اليوم ، فأنا فى حاجة إلى رأيك وتدبيرك ، ومعونتك لى على ما سيعرِض من الخطوب والأحداث ، وقد رفعتَ عنى بعض الثقل ، وفرّجت عنى بعض الحرج ، وأصلحت ما بينى و بين أهل هذه الأرض . ولكن الملك واجد علىّ ، وناقم منى ، ليس فى ذلك شك ولا ريب ، ولابدّ من أن يُصْلَح ما بينى و بينه على أىٍّ نحو من الأنحاء ، وليس لى غنًى عن نصيحتك قبل أن تستقيم بينه و بينى الأمور . وهَبْها استقامت على ما أحب وأهوى ، فإن بينى و بين نفسى خصومة عنيفة لا أقوى على حملها وحدى ، فأعِنِّى على نفسى ببقائك معى ، فلعلك إن فعلت أن تعيننى على أن أنفق حياتى فى إصلاح ما بينى و بين الله ؛ بعد أن أثِمت فأسرفت فى الإثم ، وعدوت فأسرفت فى العدوان .

وكنت كلما هممت أن أجيبه مضى فى حديثه ملحاً فيه ، ولم يمكّنى من الكلام . وكان يقول : لقد أقدمتُ على ما أقدمتُ عليه من الأمر وإن فى نفسى لآمالا كباراً ، فلم أكن أريد أن أكسب هذه الأرض وحدها لدين المسيح ، وإنما كنت أريد أن أنشر هذا الدين فى جميع هذه الأقطار التى لا تصل إليها أيدى الملوك ، ولا ينبسط عليها سلطان قيصر وكسرى والنجاشى . فما يمنعك أن تعيننى على ذلك ، وتشاركنى فيما سأبذل فيه من جهد ، وما سأحتمل فيه من عناء ، وما سألقى عليه من أجر وجزاء ؟ ! وكان يقول : ولست أرى على تجارتك بأساً ، وإنما أرى لها الربح كل الربح والنمو كل النمو ، فما يمنعك أن تقيم هنا حتى تنظم الصلة بين بلادنا وبلادك فتكسب أنت ، ونكسب نحن ، ويستفيد الناس جميعاً ؟ !

كل هذا الحديث المختلف أثّر فى نفسى ، وغيّر رأيى وعزيمتى وأغرانى بالبقاء ، وفتح لى أبواباً من الأمل والنشاط لم أقدّر قطّ أنّى سألِجُها فى يوم من الأيام . فقد رأيتنى محتكراً لتجارة الهند وبلاد العرب ، ورأيتنى وزيراً لملك إلاّ يكن عظيما الآن ، فسيكون عظيما من غير شك بعد وقت قصير . ورأيتنى سفيراً مقيما لقيصر عند هذا الملك وعند النجاشى ، أستطيع أن أسيّر سياستهما فيما يُرضى مصالح الروم ومرافقهم وتفوّقهم السياسى على عدوّهم من الفرس . وما هى إلا أن أقبل الإقامة مع أبرهة ، ولو إلى حين .

وتمضى أيام ، وإذا أنباء النجاشى تصل إلينا مخيفة مروّعة . فلم يكد يعلم بما كان من اضطراب الجند وقتل قائده أرياط ؛ حتى أقسم لا يستقر

قبل أن يسفك دم أبرهة و يطأ أرضه . و يخلو إلىّ أبرهة للتشاور والتدبير ؛ فيتفق رأينا على أن نحل الملك من قَسَمه بحيلة من الحيل ، وفن من فنون المكر ، فإن أفلحنا فذاك ، و إلاّ نصبنا له الحرب ، وقطعنا ما بينه وبيننا من صلة ، وأنّى ليده أن تمتد إلينا والبحر بيننا و بينه ، والسفن خالصة لنا من دونه ! . ثم يفتصد أبرهة و يضع دمه فى قارورة ، و يملأ جراباً من تراب اليمن ، و يرسل دمه وتراب اليمن إلى الملك معتذراً إليه ما وسعه العذر ، مجدّداً طاعته ، مؤكداً وفاءه قائلا : « هذا دمى فليسفكه الملك ، وهذه أرضى فليطأها الملك ، تَحِلّةً له من قسمه ، وله علىّ بعد ذلك ألاّ أورد ولا أُصدر إلا عن أمره ورأيه ورضاه » .

وقد أعجبت الملك حيلتنا هذه ، فيرضى عن قائده و يُقرّه على عمله . ونفرغ نحن لما كنّا ندبّر من الشؤون . وكانت عظيمة حقّا تلك الشؤون التى كنّا ندبّرها ، فلم نكن نطمع فى أقل من أن نردّ إلى بلاد اليمن يمنها القديم ، وثراءها الذى بعُد صوته فى الآفاق ، وفى أن نجعلها خالصة للنصرانية ، وفى أن نبسط سلطانها على بلاد العرب كافة . وكنت أداعب فى نفسى حلماً لذيذاً ، لم يلبث أن أصبح أملا تدفعنا إليه ظروف الحياة دفعاً . فقد كنت أفكر فى أن أنشر سياسة قيصر وسلطانه مع دين المسيح ، وفى أن أصل بين ملك قيصر فى الشام وحلفاء قيصر فى اليمن ، وفى أن أخضع ما بين هذين القطرين من الأرض لسلطان إن لم يكن خالصاً لقيصر ، فهو شركة بينه و بين حليفه النجاشى ، وهو على كل حال معين لقيصر على عدوّه كسرى . ولم أكن

أصارح أبرهة بهذه الأحلام والآمال ، حتى اضطرتنى الظروف إلى أن أصارحه بها ذات يوم ، حين أقبل السفراء من عند كسرى فأنبأوا بأن الحرب قد شبَّت بين الفرس والروم ، وطلبوا إلى أبرهة أن يُعين على الروم بما يملك من قوة وتأييد . هنالك صارحت صاحبى ، ولم أجد مشقة فى إقناعه برأيى وحمله على ما كنت أريد . ألم يكن يجمع بيننا و بينه الدين !

على أننا فرغنا قبل كل شىء لأمور اليمن ، فجدَّدنا من عماراتها المتداعية ، وأقمنا سدودها المتهدمة ، ونَظَّمنا مجارى الماء فيها تنظيما حسناً ، واجتهدنا فى نشر الدين ما وسعنا ذلك ؛ لا نَشُقُّ على الناس ولكن نأخذهم باللين والرفق . وأقمنا كنيسة فى صنعاء لم يعرف أهل هذه البلاد مثلها ضخامة وفخامة ، وجلالا وجمالا وزخرفاً ، جلبنا لها المرمر من أطراف الأرض ، ودعونا لها العمال من قسطنطينية ، وحلّيناها بالذهب والفضة والجوهر ، وحرقنا فيها من الطيب والبخور ما كان ينتشر عَرْفه إلى أماكن بعيدة حول صنعاء ، ورتّبنا لها القسس والأحبار ، ورغّبنا الناس فى أن يختلفوا إليها و يصلُّوا فيها ، وقدّرنا أن نقيم أمثالها فى أماكن مختلفة من هذه البلاد . ولكن العرب أهل وثنية ولجاج فى الوثنية ، كانوا يكبرون من أمر أبرهة و يُعظمون سلطانه و يبتغون عنده المعروف ، ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له . وكان الذين يختلفون إلى كنيستنا قليلين مهما يكثروا ، وكانوا جميعاً من ضعفاء الناس وفقرائهم وأصحاب الحاجة منهم . على أننا لم نستيئس وأخذنا نهيىء أمورنا ، ونرغّب الوفود فى طاعتنا . حتى لقد دعا أبرهة إليه

عظيما من عظماء العرب فى هذا الإقليم الذى يسمونه تِهامة ، فأكرم مثواه وأعظم أمره ، وتوّجه ملكا على قومه ، وردّه عزيزاً مكرماً . وفى ذات يوم رُفع إلى أبرهة أمران ضاق بهما أشد الضيق ، وخرج لهما عما كان قد أَلِف من الحلم والأناة ، أصبح سَدَنة الكنيسة فرأوا أنفسهم أمام أمر عظيم ، رأوا كنيستهم قد لُطِّخت بالقاذورات ، وألقيت فيها الجيف ، وانتهكت حرماتها . فثاروا بذلك ورفعوه إلى أبرهة ، وزعموا له أن هذا الإثم لا يمكن أن يجنيه إلا رجل من هؤلاء العرب الذين يأتون من تهامة ، حيث يقوم لهم بيت هناك يقدّسونه ويحجّون إليه ويسمونه الكعبة . والعرب كلها تحج إليه ، وتُعظم أمره ، وتعظم الذين يعيشون حوله من هذا الحى الذى يُسمى قريشاً ، والذى يتّجر بين بلادنا و بلاد الشام . فلما سمع الملك ذلك غضب أشد الغضب ، وأقسم ليهدِمَنّ هذا البيت ، وليحمِلَنّ العرب على أن يحجّوا إلى كنيسته بالسيف ؛ بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . ولم يكد النهار يتقدّم ، حتى رُفعت الأنباء إلى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذى أرسله إليهم ملكا . فطار طائره ، وثار ثائره ، وأذّن من فوره بالتجهّز للحرب ، والاستعداد للرحيل . وأرسل إلى النجاشى ينبئه بذلك ، ويسأله أن يمدّه بالجنود والفِيَلة . وما هى إلا أيام حتى تهيأ له جيش ضخم قوى ، وحتى فَصَلنا عن صنعاء يملؤنا الأمل وتزدهينا الكبرياء . وكنت أتحدث إلى أبرهة بأننا سنقطع هذه الطريق على طولها فى غير مشقة ولا جهد ، وبأننا سنصل بين الشام واليمن ، وبأنى سأستقبله ضيفاً فى بلاد قيصر ، كما

استقبلنى ضيفاً فى بلاد النجاشى . وكان جيشنا يعظُم ويضخُم كلما تقدمنا فى الطريق بمن كان ينضم إلينا من أذواء اليمن وأقيالها . ولكن طريقنا لم تخل مع ذلك من العقاب[1] ، ولم تكن أمناً كلها ، فقد نصب لنا الحرب جماعة من أقيال اليمن على رأسهم رجل يقال له ذو نَفَر غيرةً على وثنيتهم ، وحفيظةً لبيتهم ، ذلك ودفاعاً عن حلفائهم من قريش . ولكنا هزمناهم فى غير مشقة ، وأخذنا رئيسهم أسيراً . وهمّ الملك أن يقتله ، ثم رق له وعفا عنه ، واستبقاه فى أسره . ومضينا أمامنا لا نلقى كيداً حتى كدنا نبلغ تهامة اليمن ، وإذا حىٌّ من أحيائها قوى عظيم البأس متسلّط على الأرض ، متحكم فى الطريق وفى القوافل التى تقطعها ، يقال له خَثْعَم ، قد جَمَع لحربنا ، وغرّه عدده فخيِّل إليه أنه سيقهرنا كما تعوّد أن يقهر الناس من قبل . ولكنا قهرناه فى أقصر وقت وأيسر جهد ، وأخذنا رئيسه رجلا يقال له نُفَيْل بن حَبيب أسيراً . وهمّ الملك أن يقتله ولكنه استعطف وغلا فى الاستعطاف حتى ظفر بعفو الملك ، وتقدَّم مع الأدلاَّء ، ليسلكوا بنا طريق هذا البيت الذى كنا نقصد إليه . ونمضى فى طريقنا لا نلقى كيداً ، وقد هابتنا العرب ، وخلّت لنا الطريق ، وأعظمت أمرنا إعظاماً . حتى إذا دنونا من مكة ، وبلغنا مدينة عظيمة هناك يقال لها الطائف ؛ تقوم على مرتفع من الأرض عظيم ، ومن حولها النخيل والكروم والحدائق فيها أنواع الفاكهة والثمر ، كأنها مدينة من مدن

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهى طريق فى الجبل وعر ، ويكنى بها عما يعترض الانسان من المشاق والمصاعب .

الساحل الشامى قد نقلت إلى تلك الأرض المقفرة المجدبة فأقامت فيها مشرقة زاهية كأنها الابتسامة الجميلة فى الوجه المظلم الكئيب ، هنالك خرج إلينا أهل هذه المدينة فقدّموا الطاعة وأظهروا الخضوع ، و بعثوا معنا رجلاً منهم يسلك بنا إلى مكة أقرب طريق . ونمضى أمامنا حتى نبلغ مكة ، فينيخ الجيش ليستريح قبل أن يأخذ فى الهجوم . و يأتى سفراء القبائل إلى الملك من كل مكان ، يقدّمون إليه طاعتهم و يعرضون عليه ثلث أموالهم ، و يطلبون إليه أن يدع بيتهم هذا لا يمسّه بسوء . فلا يسمع الملك منهم ، ولا يحفل بهم . ثم يرسل الملك طلائعه فتغير على ماحول مكة من الأرض ، وتستاق كل ماتجد فيه من مال . حتى إذا كان الغد أرسل الملك جماعة من أصحابه إلى مكة ، وكلّفهم أن يسألوا عن سيّدها وعظيمها . فإذا لقوه أنبأوه بأن الملك لا يريد قتالهم ولا حربهم و إنما يريد أن يهدم هذا البيت ، فإن خلّوا بينه و بين البيت فهم آمنون ، و إلا فليأذنوا بحرب تسحقهم سحقاً . وأمر الملك سفراءه أن يأتوا بعظيم قريش إن أظهر الموادعة والميل إلى السلم . و يمضى السفراء ثم يعودون ومعهم رجل عظيم وسيم جسيم ، لم أر قط أجمل منه ، ولا أملأ للعين ، ولا أوقع فى القلب ولا أشد مهابة وجلالاً . حتى إذا بلغوا به سرادق الملك دخلوا يستأذنون له . و يسأل الملك عنه فيقال له : هذا عبد المطلب سيّد قريش وصاحب عيرها ، أعظمها شرفاً ، وأعلاها مكانة ، وأكرمها نفساً ، وأسخاها يداً ، يطعم الناس فى السهل ، و يطعم الوحوش فى رءوس الجبال . وكنت عند الملك حين أدخل عليه هذا الرجل . ورأيت الملك ينظر

إليه فيكبره ويعظمه ، ويلقاه بالتجلة والكرامة ، ويهمّ أن يجلسه معه على السرير ، ولكنه يشفق أن تنكر الحبشة ذلك ، فينزل عن سريره ويجلس مع هذا الرجل على البساط . ثم يكلّف الترجمان أن يسأله حاجته . فما أشدّ ما عجب الملك حين فسّر الترجمان له جواب سيد قريش. قال: حاجتى أن تردّ إلىّ مائتين من الإبل أخذتها طلائعك فيما أخذت أمس من المال . قال الملك مستهزئاً : لقد أعظمتك حين رأيتك ، فإنى لأصغر من شأنك الآن . لقد كنت أظن أنك ستحدّثنى فى بيتك هذا الذى أريد أن أهدمه والذى هو دينك ودين آبائك ، وشرفك وشرف آبائك ، فإذا أنت تحدثنى فى مائتين من الإبل !. قال سيد قريش فى صوت الهادىء الواثق المطمئن : أنا رب الإبل ، فَلأحدِّثك فيها ، فأما البيت فإن له رَبًّا سيمنعه . قال الملك : لن يمنعه منى . قال سيِّد قريش : فأنت وذاك . وأمر الملك أن تردّ إلى الشيخ إبله ، فرُدَّت إليه . ولكنى تبعته لأرى ما يكون من شأنه ، فإذا هو لا يقبض هذه الإبل إلا ليرسلها هَدْياً إلى هذا البيت ؛ الذى لم يرِدْ أن يتحدث إلى الملك فيه . ويمضى هذا الشيخ إلى قومه من قريش ، فيأمرهم أن يتفرّقوا فى الشعاب وعلى رءوس الجبال هرباً من الملك ، وإشفاقا من مَعَرّة الجيش ، ويقوم أمام بيته هذا الذى يعظمه وقد أخذ بحلقة بابه ومن حوله نفر من قومه ، ويقول كلاماً حسن الانسجام ، شديد الوقع فى النفس ، سمعته فأحببته ولكنى لم أفهمه ، على أنى كنت قد أخذت أحسن هذه اللغة . ثم يرسل حلقة الباب ويمضى مع من كان يصحبه من قومه فيتحصّن فى شعْب من

الشعاب . وأنظر أنا إلى هذه المدينة ، فإذا هى قد خلت من أهلها ، وقامت بيوتها هادئة ساكنة ، يظلها حزن عميق فيه هيبة وجلال ، قامت يظلها هذا الحزن ، ولكنى لم أكن أرى فى هذا الحزن خوفاً ولا إشفاقاً من معاول الهادمين . وأصبحنا وقد أمر الملك بدخول المدينة ، فيهمُّ الجيش أن يتحرك وفى مقدمته فيل عظيم ، ولكنى أرى دليلنا نُفيل بن حبيب الخثعمى يدنو من الفيل فيأخذ أذنه ويُسِرّ فيها كلاماً ، ثم يرسلها ويشتد هارباً فى الجبل. وتثير حركة هذا الرجل فى نفسى شيئاً من العجب . فما علمت أنه يعرف منطق الفيلة ، وما علمت أن الفيلة تعرف منطق العرب. عجبت، وليت عجبى لم يتجاوز هذه القصة . ولكنى رأيت بعد ذلك مايقضى على كل عجب : رأيت بعد ذلك أشياء ماقدّرت قط أننى سأرى بعضها . رأيت بعد ذلك أشياء وَدِدت لولم أرها قط . وإنى على ذلك لسعيد أشد السعادة ، مغتبط أشد الغبطة ، لأنى رأيتها . فهى التى هدتنى إلى الحق ، وهى التى كشفت عن نفسى الغطاء . رأيت الفيل قد بَرَكَ ، حتى إذا دنا منه ساسته لينهضوه نهض معهم ، حتى إذا وجّهوه إلى مكة برك من جديد . ويجدُّ ساسته بعد ذلك فى إنهاضه فلا يبلغون منه شيئاً ، يحثّونه ويؤذونه ويضربونه ويبلغون به أقصى ما يهيج الفيل ، فلا ينهض ولا يهمُّ بالنهوض ، حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام أو نحو اليمن أو نحو الشرق نهض ومضى مُهَرْوِلاً ، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك ولم يتقدم أمامه أصبعاً . ونحن ننظر إلى هذا وقد ملأنا العجب ، وأخذ الدهش من نفوسنا كل مأخذ ، وبدأ الخوف يلعب بقلوبنا ، وبدأ الذعر يطاق بعض الألسنة

بالرغبة عن دخول المدينة والانصراف عن هذا البيت ، و إنا لفى ذلك ننظر إلى الساسة وهم يعالجون الفيل ، و إذا الجوّ يظلم شيئاً فشيئاً ، و إذا سحاب كثيف يبدو لنا من بعيد ، قد أقبل إلينا مسرعاً من ناحية البحر ، فلا نكاد نطيل النظر إليه حتى نتبين ، ويا هَوْل ما نتبين ! لسنا نرى سحابا كالسحاب ، ولا غماما كالغمام ، و إنما نرى سحاباً حياً يخفق بأجنحته خفقا ، ويبعث منظره فى نفوسنا روعاً يخرجنا عن أطوارنا ، وينتهى بنا إلى شىء يشبه الذهول . إنى لأرى الآن هذا السحاب حين كان يُقبل علينا أسراباً من طير صغار ، لها مناقير الطير وأكف الكلاب ، حتى إذا دنت منا ، أخذت تحصب الجيش بحجارة دقاق كانت تحملها فى مناقيرها وأرجلها ، ولم تكن هذه الحجارة تبلغ دقة العدسة ولا عظم الحمصة وإنما كانت شيئاً بين بين ، وكانت على دقتها لا تمس شيئاً إلا هشّمته تهشيما ، ولا تمس رجلا إلا ألقته صريعاً . وسلوا ما شئتم عن خوف الخائفين وذعر المذعورين ، وانصراف أصحاب الفيل عن الفيل ، وتحوّل الجيش عن مكة إلى غيرها من الوجوه جادًّا فى الهرب ، وهذه الأسراب من الطير تتبعه تحصبه بهذه الحجارة ، وتملأ الجوّ من حوله بصياح مخيف . ولست أدرى كيف انتهى أمرنا ، ولا كيف نجونا من هذه الطير . ولكنى أرانى مجدًّا فى الهرب ، ومن حولى قوم يجدون مثلى فى الهرب ، وقد حملوا رجلا مريضاً سيىء الحال . حتى إذا انقطعت أصوات الطير . ونظرنا فلم نر فى السماء شيئا ، أخذت أسأل عن نفسى ، وعمن حولى ، وعن الجيش ، وأخذت أسأل عن هذا المريض الذى أراه محمولا

يتأذى فإذا هو أبرهة ، قد مسه حجر من تلك الحجارة فصُرِع ، وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط قليلا قليلا ، لا يسقط جزء منها إلا تبعه صديد منكر قبيح . كم تأذى هذا الرجل ، وكم احتمل من ألم فى نفسه وجسمه ! وكم ذاق مرارة الندم ولذع الحسرة واللوعة ! إنى لأراه حين بلغنا صنعاء وأدخل إلى قصره ليمرّض فيه وقد هزل ومسه الضر ، حتى لكأنه فرخ من فراخ الطير . على أن حياته لم تمتد فى قصره وإنما ألح الألم عليه إلحاحاً شديداً ، وأقبل أحد ابنيه صباح يوم فنعاه إلىّ . فلما سألت كيف مات علمت أن صدره انفجر عن قلبه انفجاراً .

وكان حديث الشيخ قد ملك على هؤلاء السمّار نفوسهم وقلوبهم ، فأغرقوا فى شيء من الوجوم لم يحسّوا معه أن صاحبهم قد قطع الحديث واندفع فى تفكير عميق بعيد . ولست أدرى كم أنفقوا من الوقت فى هذا الوجوم الصامت ، ولكنى أعلم أن رجلا منهم شاباً لم تكن قد تقدمت به السن بعد ، خرج من هذا الصمت وأخرجهم منه ، حين قال بصوت متهدّج تقطّعه العبرات تقطيعا : « إن لهذا البيت فى مكة لشأنا » . قال الشيخ : نعم إن لهذا البيت فى مكة لشأنا . وإن هذا الشأن هو الذى اضطرنى إلى أن أعود من اليمن مسرعاً ما وسعتنى السرعة حتى أبلغ مصر وأنتهى إلى الإسكندرية . وأقسم ما حفلت بأهلى ولا بوطنى ولا بشركائى فى التجارة ، ولا أتحت [1] لأحد منهم أن يسألنى من أمرى عن قليل أو كثير ، وإنما

---

(١) أتاح فلان الشيء : هيأه

فرّقت فيهم مالى تفريقا ، وحملت منه ما استطعت حمله ، ومضيت إلى الشام يحسبنى الناس تاجراً يبتغى الربح ، وإنما كنت سائحاً أبتغى هذا الدير لأدخله ، فأخرج من الحياة ولذّاتها ، وآمالها وغرورها ، وأفرغ للعبادة وطاعة الله . و إنى لأرجو إن امتدت بى الحياة أن أعود إلى هذا البيت فى مكة ، لا غازياً ولا باغياً ولا قاصداً إلى شرّ ، بل تائباً ثائباً منيباً مستغفراً من هذا الإثم الذى شاركت فيه . و إلى أن يتيح الله لى هذه الأوبة إلى مكة إن كان قد قدر لى أن أراها مرة أخرى ، فسأقيم معكم ألقى من تلقون من هؤلاء الذين يأتون من مكة و يعودون إليها ، فأتحدث إليهم وأسمع منهم ، وأنالهم بما أستطيع أن أنالهم به من إحسان . وأذّن مؤذن أن قد آن لأهل الدير أن يأووا إلى حُجراتهم ، فتفرّقوا وما فى نفوسهم رغبة فى سمر ولا ميل إلى حديث ، وما منهم إلا من يفكر فى هذا البيت الذى أحجم عنه الفيل ، وحمته طير أبابيل ، ترمى عدوّه بحجارة من سجّيل ، فإذا هم كعصف مأكول .

١١

اليتيم

قضى أهل مكة أيامهم فرحين مبتهجين يملؤهم الفخر ، ويزدهيهم النصر ، ويتحدثون بحديث الفيل إذا أضحوا ، ويتذاكرون انهزام الحبشة إذا أمسوا . حتى كاد يشغلهم ذلك عن تجارتهم ويصرفهم عن مرافقهم . وتسامعت العرب بهذه الآية الكبرى التى أظهر الله بها كرامة هذا البيت ، ورفع الله بها مكانة الذين يقومون حوله من قريش . فازداد العرب لقريش حبًّا وإكراماً ، وأخذت تستوثق الأمور لأهل مكة على من دنا منهم ، أو نأى عنهم فى تهامة ونجد والحجاز . ولكن شيخاً من قريش لم يشغله فخر ، ولم يزدهه نصر ، ولم تصرفه أحاديث الناس من حوله عن حديث نفسه المتصل وحزنها المقيم ، وهو عبد المطلب بن هاشم . ولكن امرأة من قريش لم يأخذها عجب ولم يملكها تيه ، ولم تشارك نساء قريش فيما كن يتخذن من زينة ، وينصرفن إليه من لذات الحياة ، إنما كانت تؤثر العزلة وترغب فى الخلوة إلى نفسها . تتحدث إليها وتسمع منها ، لا تجد فى هذا الحديث حزناً صريحاً ، ولا سروراً صريحاً ، وإنما هو شىء بين بين : فيه راحة من لذع اليأس ، وفيه صارف عن نشوة الأمل ، وهى آمنة بنت وهب .

كان الشيخ يذكر ابنه فيشغله الحزن المُمِضّ العميق عما كانت فيه

قريش من بهجة وسرور ، ومن غبطة وحبور ، وكان الشيخ يفكر فى قصة الفيل وانصراف المغيرين عن مكة ، ثم يرى فخر قريش وتمدّحها واستعلاءها على العرب ، فيبتسم فى نفسه ساخراً منها عاطفاً عليها . فلم تصنع قريش شيئاً إلا أنها لاذت بشِعَاف[1] الجبال ، وفرّت إلى حيث كانت تهيم الوحوش، وخلّت بين طاغية الحبشة و بين البيت . فلم ترده إذاً ، ولكن الله ردّه ، ولم تحطمه إذاً ولكن الله حطمه . وهى على ذلك تفاخر وتكاثر ، وهى على ذلك تستكبر وتستعلى . وكذلك الإنسان يغره بنفسه الغرور ، فيضيف إليها مالم تفعل ، ويحمل عليها مالم تأت من الأمر .

كان الشيخ يسخَر فى نفسه من قريش ، ويعطف فى نفسه على قريش ، يلتمس لها المعاذير فى هذا الضعف الذى يصيب الناس، فيخدعهم عن أنفسهم ويُكبرهم فى أعينهم ، ويخيّل إليهم أنهم شىء ، وماهم بشىء أمام هذه القوة القاهرة التى تَغلِب ولا تُغلَب ، والتى تَقْهَر ولا تُقْهَر ، والتى لاتريد إلا بلغت ماتريد . هذه القوة التى أخرجت من البحر طيراً لم يرها الناس من قبل، فسلطتها على جيش لم ير الناس مثله من قبل ، فما هى إلا أن حلّقت فوقه ساعة من نهار حتى انهزم وانحطم ، وأصبح كعصف مأكول ، وسلم البيت من عادية المعتدى ، وأمن البيت طغيان الطاغية . هذه القوة التى ظن هو أنه قد استنقذ منها ابنه فحماه من الموت ، وضمن له حياة كحياة الرجال : فيها ما فى حياة الرجال من سعادة وشقاء ، ومن راحة وتعب ، ومن جد وسعى ، ومن اضطراب

(١) شعاف الجبال : رءوسها واحدها شعفة « بالتحريك »

بين اليمن والشام ، ومن استقرار فى الظواهر والبطحاء . ألم يصارع الموت عن ابنه صراعاً ؟ ألم يشتر ابنه من القضاء شراء ؟ فما هذا الجهاد بالقِداح بينه وبين القضاء المسلَّط . يفادى ابنه بالإبل فيشتط عليه القضاء ، ولا يرضى حتى يبلغ المائة . وفيمَ كان انتصاره ؟ وفيمَ كان ابتهاج بنى هاشم ؟ وفيمَ كان ابتهاج قريش بانتصار الحياة على الموت ، وإفلات الشباب من مدية المضحِّى !

وكان الشيخ يضحك فى نفسه ضحكاً حزيناً يوشك أن يكون يأساً مهلكاً وثورة جامحة ، لولا أنه كان ذا قلب تعلَّم كيف يطمئن للأحداث ويذعن للخطوب ، ويصبر على النائبات . كان الشيخ يضحك فى نفسه ضحكاً حزيناً مؤلماً حين كان يفكر فى غرور قريش ، وتقديرها أن الله قد رد طاغية الحبشة ، وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبابيل ، تكريماً لها وإيثاراً ، وحين يفكر فى غروره هو حين كان يقدّر أن الله قد أنقذ ابنه من مديته وفداه بمائة من الإبل إيثاراً له بالعافية ، واختصاصاً له بالكرامة . كلا ! كلا ! لم يهزَم الفيل وأصحاب الفيل إكراماً لقريش ، وإنما هى آية أجراها الله لأمر يعلمه هو ، ولا يعلم الناس منه شيئاً . ولم ينقذ الله عبد الله من الموت ويُفادِه بمائة من الإبل إكراماً له ، أو إكراماً لأبيه ، وإنما أنقذه من الموت وفاداه بالإبل لأمر يريده هو ، ولا يعلم الناس منه شيئاً . وإلا فيمَ نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل ؟ أليس غريباً أن ينجو من الموت فيتخذ له زوجاً لا يقيم معها إلا وقتاً قصيراً ، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود إليها كما يعود الناس إلى أزواجهم ! . ولكن

رفاقه يعودون وهو لا يعود . إنما يتخلّف فى يثرب ليموت عند أخواله من بنى النجّار . وقد عرفت زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حملها أمانة ما زالت تحملها فى جوانحها ، حتى إذا جاء أمر الله أدّت هذه الأمانة . ومن يدرى لعل عبد الله لم يوجد إلا ليودع هذه الأمانة عند زوجه . ومن يدرى لعل آمنة لم توجد إلا لتؤدّى هذه الأمانة إلى الناس ؟

وكان الشيخ إذا فكر فى هذا كله لم يملك نفسه أن يرى ابنه شديد النشاط ، عظيم القوة ، رائع الشباب ، بارع الجمال ، يستقبل السفر بأمل لا حدّ له ، ثم يراه نحيلاً ، هزيلاً ، شاحباً ، متهالكا ، محزوناً يمرض على فراشه عند بنى النجار . ثم يراه وقد دنا منه الموت مكابراً مكاثراً ، فاستلّه من الحياة ، أو استلّ الحياة منه ، كأنما يثأر لنفسه من تلك الهزيمة التى أصابته يوم الفداء ، فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يخرجه منه إلا اضطراب الناس من حوله ، و إلحاح الناس عليه ، وفيهم أبناؤه و بناته ، فيما كان يشغلهم من الأمور .

وكانت آمنة ترى نساء قريش ونساء بنى هاشم من حولها ، يبسمن للأيام و يبتهجن للحياة . فيعجبها ذلك منهن ، ولا يداخلها حسد لهن أو ميل إلى مشاركتهن . كانت تحس إحساساً قويا ، ولكنه غامض ؛ بأن الأيام قد وفّتها حظّها من الغبطة ، وقسطها من النعيم ؛ فى ذلك الوقت القصير الذى قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء إلى أن فقدته بعد الرحيل . وكانت تريد أن تسعد بالتفكير فى هذا الجنين الذى تحسّه يضطرب فى أحشائها ، ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها ، وأنه قد حُرِم السعادة بهذه النعمة ،

فتكره أن تستأثر من دونه بالخير ، وتتحدّث إلى نفسها بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لذّة لا يستبدّ بها الفرد ، وإنما هى مشتركة بين اثنين ، فإذا ذهب أحدهما ثقلت على الآخر وشقّ احتمالها عليه ، وكانت مصدر ألم وحزن . ولكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممضّ الذى كانت تقدّره وتنتظره ، كأنما خُلقت نفسها مذعنة ، وكأنما فُطِر قلبها على الرضى ، وكأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل ، سواء رضى الناس أم سخطوا ، وأن احتماله مع الرضى والاطمئنان خير من السخط الذى لا يُجدى ، والثورة التى لا تفيد

على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنة نحو ذلك اليوم المشهود ، حتى يغمرها شىء يشبه نسيان النفس ، والانصراف عن الشعور الواضح بالحياة ، والتفكير الجَلِىّ فيها ، وكانت تنفق نهارها ذاهلة أو كالذاهلة ، وتنفق ليلها فى نوم هادئ حلو الأحلام . وما أكثر ما كان يزورها من حلم ! وما أكثر ما كان يلِمّ بها من طيف ! وما أكثر ما كان يُلقَى إليها من حديث ! حتى إذا كانت ذات ليلة تهيأ للخروج من ذهول النهار والدخول فى هدوء الليل ، أحسّت بعض ما يحس النساء حين يدنو منهن المخاض .

هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بنى هاشم ، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالى ، أنكرن فيها كل شىء ، وأُعجبن فيها بكل شىء . أنكرن حتى أنفسهن ؛ فقد رأين ما لم ير أحد ، وسمعن ما لم يسمع أحد ، وأحسسن ما لم يحس أحد . ولم تكن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً . فقد

كانت ترى وهى يقظة غير نائمة؛ أن نوراً ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها، ويزيل الحجب عن عينها . وكانت تنظر فترى قصور بُصْرَى فى أطراف الشام ، وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تَرْدِى[1] فى أقصى الصحراء . وكانت لا تتحدّث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول ، وأن يَظْنُنّ بها الظنون . وكانت هذه من صاحباتها لا تمدّ طَرْفها إلى شىء حتى تراه نوراً كله ، لا ظلمة فيه وإنما هو مشرق مضىء ، أو هو الإشراق الخالص. وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر ، فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض ، وتمد إليها أشعة قوية نقيّة باهرة ساحرة ، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيَّل إلى الرائية أنها توشك أن تمسّها وتقع عليها .

وكانت هذه الأخرى من صاحباتها ترى ظلمة مظلمة قاتمة ، وتأخذها رِعْدة قوية منهكة ، ويلمّ بها شىء كأنه النوم ، تسمع أثناءه صوتاً مهيباً رهيباً يسأل : إلى أين ذهبتَ به ؟ فيجيبه صوت مهيب رهيب : إلى المشرق ، ثم ينجلى عنها ما ألم بها فتُفيق ، ثم يعاودها ما كانت فيه ، فإذا ظلمة مظلمة قاتمة ، وإذا رعدة قوية منهكة ، وإذا غاشٍ يغشاها كأنه النوم ، وإذا هى تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل : أين ذهبت به ؟ فيجيبه صوت مهيب رهيب : إلى المغرب ، ثم ينجلى عنها ما هى فيه فتفيق . وكذلك لم تدنُ السماء من الأرض كما دنت فى هذه الليلة . وكذلك لم ير الناس من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء فى هذه الليلة . ولم تكن آمنة على هذا كله تجد

(١) تردى : تسرع بين العدو والمشى الشديد .

ألمًّا قليلاً أو كثيراً ، إنما كُشِف عنها كل حجاب ، ورُفع عنها كل غشاء ، وخُلِّى بينها و بين عالَم من الجمال الذى يُرَى ، ومن الجمال الذى يُسْمَع ، لا عهد للناس بمثله . ثم ترى و يرى صاحباتها كأن شهاباً انبعث منها فملأ الأرض من حولها نورا يَبْهَرُ الأبصار ، ثم ترى فإذا ابنُها قد مسّ الأرض يتّقيها بيديه رافعاً رأسه إلى السماء ، محدقا ببصره فيها كأنما يلتمس عندها شيئا . ثم تسرع صاحباتها إليه و إليها ليؤدِّين له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة ، وما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة . فإذا هى لا تحتاج إلى شىء ، و إذا هو لا يحتاج إلى شىء . و إذا هن يتناولن أجمل صبىّ ، وأروع صبىّ ، وأبرع صبىّ ، و إذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليداً لا كالولدان .

ثم يشرق الفجر وتبسط الشمس رداءها النقى على بطحاء مكة وما يحيط بها من الجبال . و يرتفع الضحى ، و يضطرب الناس فى أمورهم وقد قضوا ليلا جاهلا غافلا لم يشعروا فيه بشىء ، كأن لم يكن فيه شىء . ولو قد كُشف عنهم الغطاء ، ولو قد أزيلت عن قلوبهم الحجب لرأوا وسمعوا . ولكن الله قد جعل لكل شىء قدرا ، فهو يظهر آياته لمن يشاء ، ويخفى آياته على من يشاء . وعبد المطلب جالس فى الحِجْر وحوله أبناؤه وجماعة من قريش ، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث . وهو يسمع إليهم بأذنيه ويعرض عنهم بنفسه . يفكر فى فقيده الذى لا يستطيع أن ينساه . و إنه لفى ذلك و إذا البشير يُقْبِل عليه مسرعاً ، حتى إذا انتهى إليه حيّاه وقال : لقد

ولد لك غلام . فهلم فانظر إليه . فلا يسمع هذه البشرى حتى يحس أن الله قد أخلفه من فقيده ورفق به فى مُصابه ، وادّخر له عزاء عن محنته . فيسأل : أهو ابن عبد الله ؟ فيجيبه البشير نعم . فينهض مسرعاً ، وينهض معه بنوه ويمضون لا يلوون على شىء حتى يبلغوا بيت آمنة . فإذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن ، وردّه إلى غبطة وسرور بَعُد عهدُه بهما .

ثم يسمع حديث النساء فلا ينكر منه شيئاً كأنما كان ينتظره ، وكأنما كان منه على ميعاد . ثم يرفع الصبىّ إليه فيقبّله ويقول : لأسمينّه محمدا . قالت آمنة : لقد أتانى آتٍ فى النوم فأمرنى أن أسميه أحمد . قال عبد المطلب : فهو محمد وهو أحمد ، وما أرى إلا أنهما بعض أسمائه .

قلت لمحدّثى : قد زعموا أن عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة ونحر الإبل لأهل الشّعاب ، ونحر الإبل على رءوس الجبال ، ليطعم الناس وليطعم الوحش . قال : وهل كان عبد المطلب إلا نعمة للناس ونقمة على الإبل ! .

ولكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك ، ولم يعد إلى المسجد مع العصر ، حتى رأى أندية قريش متجمعة فيه ، تلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريف أذاعه فى مكة رجل من أهل الظواهر ، فشُغل به الناس وتناقلوه . وكان هذا الرجل طَلِبَة أهل المسجد ، يتنقّل بحديثه من ندىّ إلى ندىّ ، فلا يكاد يتم حديثه إلى قوم حتى يدعوه إليهم قوم آخرون ليسمعوا منه

ويسألوه . وكان يستجيب لمن يدعوه ولا يزهد فى أن يعيد قصته مرة ومرة ، وكأنه قد أحس لنفسه خطراً ، وكأنه قد رأى نفسه مطلوباً بعد أن لم يكن من قبل إلا طالباً ، وكأنه قد كَبُر فى نفسه ، فكان يقول ويطيل فى القول ، وكان يفصِّل ويُغرق فى التفصيل ، وكانت أفناء قريش تسمع له ، فمنها من يعجب ، ومنها من يرتاع ، ومنها من يلقى الحديث بالإغراق فى الضحك ، ومنها من يلقى الحديث بهز الرءوس . وكان هذا الرجل يقصّ قصصه فيقول : ما كنت أعلم أن لليل أسراراً ليست للنهار . وما كنت أعلم أن للصحراء أنباء ليست للمدن والأرض العامرة . وما كنت أحسب أن فى هذا الهواء الذى نتنسّمه وفى هذا الفضاء الذى يحيط بنا أرواحاً تتناجى، وأحياء تتجاذب الحديث ، حتى رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت ، فتبينت أن حياتنا غرور وأن علمنا جهل ، وأن أحاديثنا لهو وهُرَاء . والناس يتعجّلونه فيقولون له : هات ما عندك من النبأ ، حتى إذا فرغتَ من قصته فقل ما شئت . وهو يقول : لقد جننى الليل وإنى لفى طريقى من الطائف إلى مكة فلا أحفِل بذلك ولا آبه له ، ولا أفكر فى أن آوى إلى حىّ من هذه الأحياء التى تنشر بيوتها فى الطريق لأنتظر مشرق الشمس ، ولكننى أمضى أمامى لا ألوى على شىء ولا أرهب شيئاً . وماذا أرهب والطريق آمنة واضحة يسلكها الناس إذا أصبحوا ، ويسلكونها إذا أمسوا ، يسيرون فيها مع ضوء النهار ويسيرون فيها مع ظلمة الليل، قد عرفوها فهم لا يحتاجون إلى مرشد ولا دليل ، فأمضى أمامى مجداً فى السُّرَى ، أريد أن أفجأ أهلى مع الصبح ، وإنى لفى بعض الطريق

وقد سكن من حولى كل شىء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتى تمس الأرض مساً رفيقاً ، وإلا هذه الأنات التى ترسلها المطايا إذا جهدها السير وحنت إلى الراحة ، وإلا ما كنت أناجى نفسى به من حديث أهلى إذا طلعت عليهم مع ضوء الشمس ، وكان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئاً نقياً فملأ نفسى أمناً ودعة وهدوءاً . وإنى لفى ذلك ، وإذا غمغمة تصل إلى من بعيد فلا أحفل بها ولا ألقى إليها بالاً ، وإنما أمضى فيما أنا فيه من الاستمتاع بلذة هذا السُّرَى ، ومسّ أخفاف مطيتى للأرض ، وحنينها إلى مابعُد عهدها به من الراحة ، وأحاديث نفسى عمن فارقت فى الطائف وعمن سألقى فى مكة .

ولكن الغمغمة تدنو منى أو أنا أدنو منها ، وإذا هى تشتد شيئاً فشيئاً وإذا أصواتها تمتاز وتستبين ، وإذا أنا أسمع أحاديث قوم يتهامسون ، وإذ أنا أنظر فلا أرى أحداً ، والقمر مع ذلك مشرق مضىء ، والفلاة مع ذلك مبسوطة لا عوج فيها ولا ارتفاع ، والحديث مع ذلك من حولى واضح يملأ الهواء ، وقلبى مع ذلك يضطرب ويمشى فى صدرى رعباً . وأنا أذهب بمطيتى إلى أمام وأرجع بها إلى وراء ، وأذهب بها عن يمين وأذهب بها عن شمال ، وأرفع بصرى إلى السماء ، وأخفض بصرى إلى الأرض ، فلا أرى شيئاً ولا أتبين شيئاً إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشى الأرض برداء نقىٍّ رقيق ، وهذه النجوم التى لا تحصى وقد تألقت فى السماء كأنها المصابيح ، وانطلقت فى طريقها مسرعة كأنها تستبق ، وهذه الأحاديث الواضحة تتحدث بها جماعات لا أراها ، ولكنها لا تستقر ، إنما يمضى بعضها فى إثر بعض ، وإنى

لأسمع قائلاً يقول: «أنظروا إلى السماء، فما أرى أنها كعهدنا بها من قبل، إن نجومها لتتألق فى قوة لم نرها قط، إنها لتستبق فى سرعة لم نرها قط، إنها لتدنو من الأرض حتى إن نارها لتوشك أن تحرقنا. إن التصعيد فى السماء لعسير. وفيم نصعد إلى السماء وإن السماء لتهبط إلينا! إن البقاء على الأرض لعسير، وأنّى لنا الثباتُ بهذا الضوء الذى لا يخفى عليه شىء، حتى أشباحنا الخفية التى لا تراها العيون! النجاء النجاء! إن للغيب لعجباً، وإن فى الأرض لحَدَثاً، وإن الزمان ليستدير، وإنا لا ندرى أشرٌّ أريد بالناس أم خير».

وإنى لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى، فيبهرنى ما أسمع ويسحرنى ما أرى. وأشغل به حتى عن أن أسائل نفسى أين أكون، وما تكون هذه الأصوات، ولكنى أحس أصواتاً أخرى كأنها تُهيب بأهل تلك الأصوات التى كنت أسمعها قائلة: النجاء النجاء! ولكن إلى أين! إنكم لتفرّون من مكة كأنَّ شيئاً أزعجكم عنها وقد كنتم فيها آمنين، وقد كنا نفرّ إليكم لأن شيئاً أزعجنا عن دورنا، وأخرجنا من مأمننا، واضطرنا إلى أن نهيم فى الأرض لا ندرى ماهو، ولا ندرى من أين جاء. إنا لنتسامع من أطراف الأرض بأن حَدَثاً قد حدث، وبأن كائناً قد كان. إنا لنتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض، فسقطت شُرُفاته وتهدّم بنيانه. وإذا أصوات أخرى تصيح منتشرة فى الفضاء. وإنا لنتسامع بأن نار الفرس قد خَبَتْ فجأة لأول مرة منذ ألف سنة. وإذا أصوات أخرى تصيح: وإنا لنتسامع بأن بُحَيْرة ساوة قد جَفَّت، وما عهدناها إلا غزيرة جمة الماء. وإذا

هذه الأصوات كلها تملأ الأرض ، رقيقة خفيفة ، خائفة ، قلقة : النّجاء ! النّجاء ! إن للسماء لخبراً ، و إن الأرض لتستقبل يوماً لم تستقبله من قبل ، و إن لهذا اليوم فى حياة الأرض لشأناً لا ندرى أخيرٌ هو أم شرٌ ! النجاء النجاء ؟

وقد فقدت صوابى وأضللت عقلى فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئا ، ولا أسمع شيئا ، كأنما انتزعتُ من الحياة انتزاعا . ثم يمسنى برد السَّحَر فأفيق وكأنما ثُبْتُ إلى نفسى من سفر بعيد . وأنظر حولى فأرى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها ، وأرى الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودّعها محزونا ، وأرى النجوم تنهزم فى السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً ، وأرى ناقتى مذعنه لحكم السُّرَى تمضى أمامها كأن شيئاً لم يكن من حولها . وأبلغ أهلى مع الصبح ، فيستقبلوننى دهشين كما كنت أقدِّر ، ولكنى لا أستمتع بهذا الدهش كما كنت أريد .

و يتفرق الناس عن هذا الرجل وقد سمعوا منه ، و إن بعضهم ليسأل بعضا : ماذا يقول وماذا رأى ؟ و إن بعضهم ليقول لبعض : لقد أخذه النوم فعبثت به الأحلام ، و إن بعضهم ليقول لبعض : لقد مرّ بجماعة من جن الصحراء كانوا يسمُرون . ويسمع عبد المطلب هذا كله فتثور فى نفسه خواطر لا ينكرها ولا يعرفها ، ولكنه لا يطيل الوقوف عندها ، لأنه مشغول عنها بمَقْدَم حفيده اليتيم .

١٢

الحاضنة

وعطف الله على هذا اليتيم قلوباً مُلئت حبّا ، وفاضت حناناً ورحمة ، قلّما يظفر بمثلها المنعّمون المُترَفون من أبناء الأغنياء ، وأصحاب الثراء الواسع والجاه العريض . هذه الأَمَةُ الحبشية قد وَرِثها اليتيم عن أبيه الفقيد مع خمسة أجمال أوارك[١] وقطعة من الغنم . كانت حين أقبل اليتيم إلى هذه الأرض فتاة فى ريعان الشباب ومبتدأ الحياة ، لم تنسَ وطنها القديم ولم تألف وطنها الجديد ، لم تسلُ عن حرّيتها ولم تأنَسْ إلى رِقّها . نفسها معلّقة بين لونين من ألوان الحياة ، كان أحدهما صفواً كله ، وهو لون الحياة العزيزة فى بلد عزيز وبين قوم أعزّة كرام . وكان الآخر يوشك أن يكون كدراً كله ، لا تنظر إلا رأته مظلماً حالكا ، لا يبسم فيه أملٌ ، ولا ينبعث منه ضوء ، وهو لون الحياة الذليلة فى بلد نازح ، وبين قوم غرباء لا تعرفهم ولا تألفهم ، وإنما دفعتها إليهم خطوب الحياة دفعا ، وألقتها إليهم صروف النوى إلقاء . فهذا شبابها يذبُل ، وقد كان يريد أن يزْهر ويتألّق . وهذه آمالها تُبْتَر بَترا ، وقد كانت تريد أن تمتد وتنبسط . وهى ترى هذا كله خاشعة خاضعة ومؤمنة مذعنة لم تختر منه شيئا ، ولا تستطيع أن تغيِّر منه شيئا . وهى قد وَطّنت

(١) الأوارك من الابل : التى ترعى الأراك . واحدها آركة .

نفسها أو وطّنتها الأحداث على أن تكون أمَة طيّعة تخدُم سادتها فى نصح أو فى غش ، ولكنها تُظهر لهم الطاعة والخضوع على كل حال . وهى محزونة النفس كاسفة البال ، لا تبتسم إلا متكلفة ، ولا ترضى إلا متصنّعة ، ولا تطمئن إلى هؤلاء الذين من حولها ينظرون إليها نظرات مهما يملأها العطف والرفق ، فهى نظرات السادة الذين يملكون ويستعلون ويستطيعون أن يتصرّفوا فيها كما يحبون ، كما يتصرفون فى الأشياء : لهم أن يبيعوها وإن لم تؤثر أن تباع . لهم أن يَهَبوها وإن لم تحب أن تُوهَب . لهم أن ينقلوها من يد إلى يد ، ومن مكان إلى مكان ؛ ولعلها أن تكون مُؤْثِرة لهذه اليد التى بسطت عليها ، منكرة لهذه اليد التى يراد أن تنقل إليها . ولعلها أن تكون قد ألفت هذا المكان الذى استقرت فيه وكرهت غيره من الأمكنة ، ولكنها لا تستطيع أن تريد أولا تستطيع أن تنفذ ما تريد. وأى قيمة للإرادة إذا عجز صاحبها العجز كله عن أن ينفذها ويُجرى أحكامها ! إنما الإرادة العاجزة أقبح صور الذل ، وأشنع ألوان الرق ، وأبغض ما يلقى الإنسان فى الحياة . أنظر إلى هذه الأمَة الناشئة لم تتعود الرق بعدُ ، ولم تطمئن إليه ، نفسها ثائرة مظلمة ، وقلبها جامح مكظوم ، وهى مبغضة لكل إنسان ، ضيِّقة بكل شىء ، أنظر إليها تشهد ما شهد غيرها من النساء فى تلك الليلة الفذّة ، فتضطرب نفسها الناشئة لما رأت ، ويبتهج قلبها الحزين لما شهد ، ثم لا تكاد ترى هذا الوليد اليتيم حتى يُلقى الله حبه فى قلبها ، وحتى يعطفها الله عليه ، وحتى يجعله لها قرّة عين ، وحتى يصبح

وجهه الصغير المضيء ابتسامة فى حياتها المظلمة ، ويصبح شخصه الضئيل العظيم منقذاً من هذا اليأس القاتم ، وعزاء لها عن هذا الشقاء العظيم . وإذاً هى تألف الطفل وتكلَفُ به ، وإذاً هى تحضُن الطفل وتحنو عليه ، وإذاً هى تؤثره من المحبة والبِرّ ، ومن المودة والعطف ، ومن الحنان والرفق بكل هذه الكنوز التى لا تفنى ، والتى تحتويها قلوب النساء ، والتى كانت تريد أن تغيض لأن خطوب الحياة قد فرضت عليها الرقّ والذل فرضاً . إن هذا اليتيم لينزل من قلبها الحزين منزل السرور ، ومن نفسها الكئيبة منزل الابتهاج ، إنها لتجد فيه كل ما فقدت من أمل وكرامة وعزّة وحرية ، إنها لتريد أن تختص به من دون الناس جميعاً ، إنها لتريد أن تخصّه بنفسها من دون الناس جميعاً ، وإن الله ليحقق لها من هذا كله أكثر ما تريد ، إنها لتقف نفسها على الطفل أياماً ، حتى إذا أقبلت الظئر [1] فانتزعته منها ومن أمه انتزاعا ، ورحلت به إلى البادية ، ضاقت بالظئر وكرِهت هذا الرحيل . ولو قد أتيح لها أن تنفذ ما كانت تريد لاستبقت الظئر معها فى مكة ، أو لرحلت هى مع الظئر إلى البادية ، ولكن متى أتيح لأَمةٍ أن تُنفذ ما تريد ! ولها على ذلك أسوة بهذه الأمّ الحرة الكريمة التى تسلم ابنها إلى الظئر ، لا تستبقيها معها فى مكة ، ولا ترحل هى مع الظئر إلى البادية !

فلتفارِقْ صَفِيّها دهراً طويلا أو قصيراً ، كما تفارق الأم طفلها دهراً طويلا أو قصيراً . ولتصبِرْ على هذا الفراق . وهل خلق الرقيق إلا للصبر والاحتمال !

(١) الظئر : التى ترضع غير ولدها وتعطف عليه

وينفق الصبيّ عند الظئر ما شاء الله أن ينفق من وقت ، لا يزور أمه ولا حاضنته إلا لماما . وكلتاهما تسعد بهذه الزيارة القصيرة . وكلتاهما تشقى باستئناف الفراق . وكلتاهما تذعن لما لا بدّ من الإذعان له . ثم يعود الصبيّ الناشىء من البادية إلى مكة فيقيم إقامة ملؤها الرحمة والعطف بين هذه القلوب الكريمة التي تحبه وتحنو عليه : قلب أمه الحرة المحزونة ، وقلب حاضنته الأمَةِ الفتاة ، وقلب جدّه الشيخ الوقور . كلهم سعيد بالعطف على هذا الطفل والرعاية له . والطفل ناعم بعطفهم عليه ورعايتهم له .

ثم ترحل أمّ الطفل به إلى يثرب لتزيره أخواله من بني النجّار ، فترحل الحاضنة معها . وينعم الطفل بحنان هذين القلبين الكريمين . حتى إذا بلغ يثرب رأى أرضاً لم يكن قد رآها ، وقد قدّر له مع ذلك أن يقيم فيها حيًّا وأن يقيم فيها ميتاً . وقد سبقه أبوه إلى زيارتها ، وقد سبقه أبوه إلى أن يؤثرها له داراً تؤويه . هنالك رأى الطفل قبر أبيه . هنالك لعب الطفل مع أطفال مثله سيكونون له أصدقاء وأنصاراً حين يجِدّ الجِدّ ، وحين يبلغ الكتاب أجله ، وحين يتم في الأرض ما قُدِّر في السماء . حتى إذا قضى الطفل وأمّه وَطَراً من زيارة الأرض الموعودة ، عاد بين أمّيه الكريمتين إلى موطنه بمكة . ولكن قضاء الله يجب أن ينفذ ، وحكمة الله يجب أن تبلغ ، وإرادة الله يجب أن تكون . فلا يكاد الطفل يبعد عن يثرب حتى تُلِمّ العلّة بأمّه كما ألمّت بأبيه قبل أن يصل إلى الدنيا . ولا يكاد الطفل ينتهي

إلى الأبواء[1] حتى ينزع الموت منه أمّه أو ينزعه من أمّه ، كما نزع الموت منه أباه ، أو كما نزعه من أبيه .

وكذلك أُدِّيت الأمانة إلى الأرض ، وذهب عبد الله وذهبت آمنة بعد أن أدّياها . وأصبح الطفل كما أراد الله له أن يكون يتيما ، قد فقد أمه وفقد أباه ، وليس له من يؤويه إلا الله الذى قد وعد بإيوائه وكفالته ، وحفظه وحمايته من العاديات .

لقد خَلَص الطفل لحاضنته من دون الناس . فلتقف عليه نفسها كلها ، ولتقف عليه حبها كله ، ولتخلُص له كما خلص لها . وانظر إليها تعود بالطفل إلى جده وأعمامه وحيداً فريداً ، ليس له من يرعاه أو يكلؤه إلا قلبها العظيم الكريم .

من ذلك الوقت أصبحت للطفل أمًّا ، رعته صبيًّا وشاباً ، فرغت له ولم تُشغَل عنه بأحد ولا بشىء . حتى إذا بلغ سنّ الرجال واتخذ له أسرة ، وأوى إلى زوجه خديجة بنت خُوَيلد ، نظر إلى هذه الأَمَة التى نَشَّأته ونعّمته بحبها وحنانها ، فأعتقها وردّ إليها حقها الكامل فى الحياة الحرة الكريمة .

هنالك اتخذت لها زوجاً من أهل يثرب كان مقيما بمكة ، فعاشت معه ما شاء الله أن تعيش ، ورحلت معه إلى يثرب . حتى إذا مات عادت إلى ابنها الأول ومعها ابنها الثانى أيمن بن عُبَيد ، فعاشت فى كَنَف هذا اليتيم

(١) الأبواء : قرية بين المدينة ومكة ، بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا .

وعاش معها ابنها سعيدين ناعمين . ثم يتم الله نعمته على هذا اليتيم ويختاره لما قُدِّر له من الكرامة واحتمال الأعباء الثقال ، فلا تشغله نعمة ولا محنة ، ولا راحة ولا جهاد عن أمّه هذه . وانظر إليه يتحدّث عنها إلى أصحابه فيقول هذه الكلمة التي ملؤها البرّ والحنان والوفاء : « إنها بقيّة أهل بيتى » . وانظر إليه حريصاً على أن تحيا وتنعم بالحياة ، حريصاً على ألاّ يكون حظها من السعادة فى هذه الدنيا أقل من حظ غيرها من الحرائر . انظر كيف يلتمس لها الزوج فيقول لأصحابه : « مَنْ سرّه أن يتزوّج امرأة من أهل الجنة فليتزوّج أمّ أيمن » . هنالك أسرع مولاه زيد فاتخذها له زوجا .

إيه أيتها الأمّ الكريمة الرحيمة ! لقد منحت ابنك صبيًّا وشابًّا كل ما كنت تستطيعين أن تمنحيه من الحب والودّ ، ومن العطف والحنان . وهاهو ذا الآن قد بلغ ما قدّر الله أن يبلغ من ارتفاع المكانة ، وعلوّ المنزلة ، وجلال الخطر ؛ انظرى إنه ليُؤْذَى فى سبيل الله ، إنه ليُمْتَحَن فى نفسه وفى عشيرته وفى أصحابه ! إنه ليلقى فى ذلك أشد الجهد ، ويحتمل فى ذلك أعظم الثقل ، ويستقبل ذلك بأحسن الصبر . أنظرى إليه وانظرى إلى نفسك ؛ إنك لتحيِّينه وتكبرينه وترحمينه ! لقد استجبت له حين دعا ، وآمنت به حين أنذر وبشّر . أنظرى ! إن قومه ليأتمرون به ليقتلوه أو يخرجوه أو يُثْبِتوه[1] ، وإن الله ليأذن له فى الهجرة ، وإنه ليترك مكة طريداً ليعود إليها منتصراً

(١) ليثبتوه : ليسجنوه أو يوثقوه أو يثخنوه بالضرب والجرح ، من قولهم : ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح . (عن الكشاف)

مظفَّراً . أنظرى إنه ليقيم الآن فى يثرب بين أنصاره الذين آووه ، و بين رفاقه الذين لعب معهم صبيًّا ، وأنت ترمُقينه وترعَينه من قريب حيناً ، ومن بعيد حيناً آخر . أنظرى ! أتستطيعين فراقه ! لقد ضقت بالظئر حين نقلته إلى البادية . كلا ! كلا ! إن أصحابه ليهاجرون ليلحقوا به و يعيشوا معه ، فكيف لا تهاجر أمّه ! ومتى صبَرت أمٌّ مثلها على فراق ابن مثله !

هاهى ذى قد تركت مكة مهاجرة إلى الله ورسوله ، وإلى ابنها وصَفِيّها . إنها لتقطع الطريق بين مكة والمدينة يؤنسها مايملأ قلبها من الإيمان ، وما يعمُره من الحب . إنها لتحتمل مشقة الطريق وجهد السفر صابرة عليهما . وما كان أصْبَرَها على المشقّة والجهد . إنها لتستلذ المشـقة والجهد ، وتستعذب الألم والضراء . إنها لتسافر صائمة . إنها لتستأنس فى رحلتها بهذين الصديقين اللذين يحبهما المؤمنون : الظمأ والجوع . وأنعِمْ بهما رفيقين ! وأنعم بهما مُعِينين على الهجرة فى سبيل الله ! إنها لتقطع أكثر الطريق وتصبح من المدينة غير بعيـد . إن النهار ليتقدّم بطيئاً مسرفاً فى البطء ، و إن الشمس لترسل على الأرض أشعة من اللهب ، و إن الأرض لتضطرم من شدة القيظ ، و إن الجوّ ليتوهّج من هـذا اللهب الذى يضطرم فيه . و إن هذه المرأة الضعيفة لتسعى فى هـذه النار المحرقة إلى حيث تنعَم بالحياة : فى ظل ابنها وصفيّها ، ومخرجها من الرق إلى الحرية ، ومُخرجها من الظلمة إلى النور . إنها لتسعى ما وسعها السعى . ولـكن الأمد بعيد ، والجهد شديد ، والماء منقطع ، والظمأ محرق ، وجسمها ضعيف لا يثبت لهذه العاديات التى

لا تثبت لها أجسام الناس ، ولـكنها تسعى لا يائسة ولا بائسة ولا مستسلمة ، حتى يبلغ الجهد بها أقصاه ، وحتى يتراءى لها هذا الشبح المنكر المخيف ، الذي يتراءى لمن تنقطع بهم أسباب الحياة فى الصحراء : شبح الموت . ولـكنها مع ذلك لا تيأس ولا تستسلم ولا تفارق ما ألفت من الرضى ! أنظرى أمامك ماذا ترين ؟ إنه رِشاء أبيض ناصع البياض ينزل إليك من السماء ، وقد عُلِّقت فيه دلو قد مُلِئت ماء ! مَنْ أرسل إليك هذه الدلو ؟ مَنْ قَدَّم إليك هذا الماء ؟ لم أرسلت إليك هذه الدلو ؟ لم قدِّم إليك هذا الماء ؟ هلُمَّ اشربى ، فإنما تذوقين اليوم هذا الماء العذب ماء الخلود الذى ستشربينه بعد حين طويل أو قصير ؛ حين يُسكنك الله دارك من الجنة . أرأيت أن ابنك لم يكن متكلفاً ولا مغرِّراً حين قال لأصحابه : « من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوّج أم أيمن » ! اشربى من هـذا الماء ، فلن تظمئى بعد هذه الشربة أبداً ، وتشرب أمّ أيمن من هذا المـاء ، وتنفق أم أيمن بعد هذه الشربة أعواماً طوالا ، فيها الشدة واللين ، وفيها البؤس والنعيم ، وفيها الجهد والعناء ، ولـكنها لا تعرف الظمأ ولا تحسه ولا تشكوه ، وكيف يظمأ من شرب من ماء الخلود !

أسرعى الآن يا أمّ أيمن إلى يثرب ، فإن ابنك ينتظرك فيها ، وقد أمن بعد خوف ، واطمأن بعد قلق .

وتبلغ أمّ أيمن المدينة ، فيلقاها ابنها حفيًّا بها عطوفا عليها ، وتلقاه هى بما عوّدته أن تلقاه به ؛ من هذا الحبّ السمح والعطف الباسم . وتقضى معه

أيامها فى المدينة ، لا تكاد تفارقه إلا حين لا تستطيع أن ترافقه . انظر إليها يوم أُحُد وقد شهدت الحرب مع المسلمين ، وإنها لتطوف بالماء تسقى الجرحى ومن مسّهم الجهد . ولم لا ؟ لقد عرفت مُرّ الظمأ وبرد الرىّ . ومن يدرى لعل هذه القَطرات التى كانت تصبّها فى أفواه الجرحى قطرات قد مستها رحمة الله ففقدت جوهرها الفانى ، واستحالت إلى هذا الجوهر الخالد الذى شربت منه أم أيمن حين تدلّت إليها الدلو من السماء . وانظر إليها وقد شهدت خَيْبر مع ابنها تُواسى المسلمين وتمنحهم من عطفها ورعايتها ورحمتها فضل ما يمتلئ به قلبها الساذج الكريم . وانظر إليها فى أيام السلم تغدو على ابنها وتروح إليه ، فيلقاها مبتسما دائما ، مبتهجاً دائما ، مداعباً لها من حين إلى حين . تسأله مرّةً أن يحملها فيقول لها : أحملك على ولد الناقة فلا تفهم منه . فتقول : يا رسول الله ، إنه لا يطيقنى ولا أريده . فيقول متضاحكا : « لا أحملك إلا على ولد الناقة » . وكان ابنها يمزح ولكنه لم يكن يقول إلا حقًّا . وكان يحب أن يداعبها ويعبث بها فى رفق ، فهو يقول لها ذات يوم : « غَطِّى قِنَاعَك يا أم أيمن » . وتلقاه يوم حنين قبل الموقعة فتريد أن تدعو للمسلمين بخير فتقول : « سبَّت الله أقدامكم » . فيقول ابنها : « اسكتى يا أم أيمن : فإنك عسراء اللسان » .

وقد سمع الله لها فثبّت أقدام المسلمين . وقد امتحنها الله فاختار ابنها أيمن وآثره بالشهادة يوم حُنين .

إيه أيتها الأمّ الرءوم ! إنك لتمنحين ابنك وصفيّك اليوم شيئاً جديدا

لم تمنحيه من قبل . إنك لتبذلين فى سبيل الله وفى سبيله دم ابنك العزيز . ولكنك تلقين الثُّكل صابرة آملة راضية ، كما لقيت الظمأ من قبل صابرة محتملة واثقة . ولئن فقدتِ أيمنَ يوم حُنَين ؛ فإن لك خلفاً منه فى ابنك أسامة بن زيد ، أثير النبى وحبيبه ، وقائد جيش المسلمين بأمر النبى وإن كان بعدُ لَحَدَثاً ناشئاً . هذا جيش ابنك أسامة مرابطاً يتأهب للرحيل ، وهذا ابنك وصفيُّك فى بيته قد ثقُل عليه المرض ، وفُتحت له أبواب السماء ، وأقبلت عليه الملائكة أفواجاً تحمل اليه رَوْحَ الله ورحمته وتبشره بجوار الله . انظرى ! لقد اختار الله لنبيه جِواره الأعلى ، وصعِدت نفسه الكريمة إلى حيث أريد لها أن تكون مع الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وأصفياء الله وأنبيائه . ماذا ! إنك لتبكين . وما يبكيك يا أمّ أيمن ؟ قالت لمن ألقى عليها هذا السؤال : إى والله ! لقد علمت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ، ولكنى إنما أبكى على الوحى إذ انقطع عنا من السماء .

نعم ! لقد قُبِض ابنك وانقطع الوحى ، وستحتملين ذلك دهراً : ستشهدين خلافة أبى بكر ، وستشهدين خلافة عمر ، وستبكين مرة أخرى حيث يموت عمر ، وستسألين عن هذا البكاء فتقولين : « الآن وَهَى الإسلام » وستستقبلين خلافة عثمان ، وقد طال صبرك على انقطاع الوحى ، وشوقك إلى أخبار السماء ، وسيسعى إليك الملك رفيقاً بك عطوفاً عليك ، وسيقبض نفسك الكريمة إلى حيث تسعد بجوار ابنك الكريم .

تحدَّث ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر : قال خاصم ابن أبى الفرات

مولى أسامة بن زيد — الحسن بن أسامة بن زيد ونازعه. فقال له ابن أبي الفرات فى كلامه : يا ابن بركة (يريد أم أيمن) فقال الحسن : اشهدوا ، ورفعه إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم؛ وهو يومئذ قاضى المدينة ، أو وال لعمر بن عبد العزيز وقصّ عليه قصّته : فقال أبو بكر لابن أبي الفرات : ما أردتَ إلى قولك يا ابن بركة ؟ قال : سميتها باسمها . قال أبو بكر : إنما أردتَ بهذا ، التصغير بها ، وحالها من الإسلام حالها ، ورسول الله يقول لها يا أمّه ويا أمّ أيمن ! لا أقالنى الله إن أقلتك ، فضربه سبعين سوطاً [١]

(١) طبقات ابن سعد الجزء الثامن صفحة ١٦٤

١٣

المرضع

أقبل المراضع إلى مكة عجافاً نحافاً ، تحملهن حُمُرٌ عجاف نحاف ، ويصحبهن أزواجهن قد مسّهم الضر ، وأعياهم الكسب ، واشتدت عليهم السنة ، وجَدَبت بهم الأرض ، فما يجدون إلى أمن ولا دعة ولا حياة سبيلا . وقد أقبلوا كدأب أهل البادية إلى مكة ، يلتمسون الرضعاء من أبناء السادة والمُتْرَفين فى قريش ، ويبتغون بذلك فضلا من مال ونافلة من نعيم ، وحظاً من هذا البر الذى تطمع فيه المراضع عند أهل الرضعاء . فلما ألقوا رحالهم ؛ انحدر المراضع إلى مكة يعرِضن أنفسهن على دور الأغنياء وأهل الثراء ، ومنازل السادة وأصحاب الشرف من أهل البطحاء . وأسرع أزواجهن إلى المسجد يطوفون ويلقَوْن سراة الناس من قريش ، فيسمعون منهم ويتحدثون إليهم ، ويستعينون بهم على احتمال أثقال الحياة فى تلك البادية النائية : بادية بنى سعد بن بكر . وما هى إلا طوفة فى الضحى على بعض المنازل والدور حتى آب المراضع موفورات محبورات ، قد وجدت كل واحدة منهن رضيعاً من أسرة كريمة موسرة ، فامتلأت يدها بالمال ، ونفسها بالأمل ، وقلبها بالغبطة والأمن على قوت العيال ، إلا حليمة بنت أبى ذؤَيب ؛ فإنها عادت إلى زوجها كئيبة محزونة لا تحمل إلا ابنها الهزيل النحيل الذى يصيح فى

غير انقطاع ، ويبكى فى غير هدوء لشدة ما مسّه من ألم الظمأ والجوع .

ولقى الأعرابى امرأته الشابّة محزوناً مثلها ، كئيباً مثلها ، لا يؤذيه ما يحس من الجوع والظمأ كما يؤذيه ما يسمع و يرى من بكاء الطفل وتوجُّع أمه البائسة . قال : إنى لأرى أترابك من المراضع يرجعن موفورات محبورات يحملن الرضعاء . فما بالك تعودين لا تحملين رضيعاً إلا هذا الطفل ؟ ألعلك قد دللت الناس على مكانتنا من البؤس ، وحظنا من الفاقة حين احتملت هذا الطفل الذى لا ينقطع له صياح ؟ ألعلك قد أيأست الأمهات وأخفت الآباء ألاّ يلقى أبناؤهم عندك ما يرويهم من ظمأ أو يشبعهم من جوع ؟ ليتنى لم أنحدر مع الناس إلى المسجد ، وليتنى بقيت هنا أحفظ عليك هذا الطفل حتى لا يسمع الأمهات والآباء له بكاء ولا شكاة ، وحتى لا يرى الآباء والأمهات عليه بؤساً ولا ضرًّا . قالت : والله ما صدّ عنى الآباء والأمهات ، ولقد أسكتّ هذا الطفل فما بكى ولا شكا ، وما أحس أحد علىّ ولا عليه ضرًّا أو شرًّا ، و إنما صددت أنا عن رضيع صدّ عنه الأتراب من قبلى . قال الأعرابى : وفيم صَدُّكنّ عنه واجتنابكنّ له ؟ قالت : يتيم ليس له أب يرعاه أو يكلؤه ، إنما هو إلى أمّه وجدّه . وماتصنع أمّه ومايصنع جدّه ؟ وماذا تنتظر من برّ الأمهات بالمراضع ، ومن برّ الجدود بالحَفَدة و إنهم لكثير ؟ ! قال : صدقت ، وما لإرضاع اليتامى والمساكين أقبلنا من ديار بنى سعد . و إنى لأجد فى نفسى إشفاقاً على هذا اليتيم ورحمة له . ولكن ماذا نصنع به فى تلك الأرض النائية إذا لم يصل إليه و إلينا من برّ أهله ما يقيمه و يقيمنا و يُصلح

من حاله ومن حالنا ! . قالت : لقد رأيته فأحببته ، ونظرت إليه فرَقَّتْ له ، ولقد آنست من أمّه دعة ولينا . ولقد نازعتنى نفسى إلى أن أحمله لولا أنى أشفقت مما تقول ، ولولا أنى ذكرت الجَدْب وشدة السنة وانقطاع المادّة ، وأشفقت عليه مما نحن فيه . قال الأعرابى : فسنقفل إذاً كما أقبلنا ويقفل القوم راضين . وإنى والله يا ابنة أبى ذؤيب ما أدرى أتُبلغنا أتانُنا وشارفُنا[1] ديار بنى سعد ، وإنك لتعلمين أن أتاننا منهوكة مكدودة وأن شارفنا ما تبِضّ قطرة من لبن . قالت : فلنقم فإن الأطفال يولدون . ولعل الله أن يرزقنا بين اليوم وغد رضيعاً نجد عند أهله ما يُرضينا .

وهمّ المراضع بالقفول ، وأخذت بنت أبى ذؤيب تنظر إليهن محزونة مكلومة ، يؤذيها ماترى من إنجاحهن وإخفاقها ومن قفولهنّ وتخلّفها . وأخذ الأعرابى ينظر إلى رفاقه يشدّون الرحال على المطايا ، ويحملون النساء على الأتُن ، فيؤذيه ذلك ويَغيظه ، ولكنه يخفى ما يجد من الغيظ ويظهر التجلد والصبر . حتى إذا مضى اليوم وأمعنوا فى الطريق وبعُدوا عن مرمى العين ، نظر الرجل إلى امرأته ، ونظرت المرأة إلى زوجها ، ونظر الزوجان إلى ابنهما واستمعا لبكائه ، وإذا هى تقول لزوجها : ما أدرى لعلى لم أحسن حين جاريت أترابى وأعرضت عن هذا اليتيم ، وإن نفسى لتنازعنى إليه ، وإن قلبى ليعطفنى عليه ، وإنى لأحس كأنه يدعونى ، وإنى لأشعر كأنى لا أستطيع عنه صبراً ، وإنى لأرجو إن استجبت لهذا الدعاء الخفى أن

(١) الأتان : أنثى الحمير والشارف من النوق : المسنة .

يكون الله قد قدَّر لنا خيراً ، وآثرنا ببعض ما نحب . قال : فلا عليك يا ابنة أبي ذؤيب ! إذهبي إلى يتيمك فخذيه ، فإني أكره أن يرحل القوم ونبقى ، وأن يصلوا إلى ديار بني سعد ، فيتحدث المراضع أنهن قد ظفرن بالرضاع وأن نفوس الآباء والأمهات قد انصرفت عنك وزهدت فيك .

وتنهض بنت أبي ذؤيب فتعود إلى آمنة فتعرِض عليها إرضاع الطفل . وإذا آمنة تأبى وقد آذاها ما رأت من إعراض المراضع وانصرافهن ، وعلى وجهها آيات حزن عميق ، وفي صوتها بقية من بكاء ، وأمتها بركة تعينها على الإباء وتحرّضها على الامتناع . ولكن ابنة أبي ذؤيب تنظر إلى الطفل فإذا قلبها يمتلىء حبًا له ، وإذا هي تحس أنها مدفوعة إليه دفعاً ، وإذا هي تسرع إلى الطفل فترفعه بين يديها وتدنيه من صدرها ، وإذا الطفل يلتمس الثدى كأنما كان منه على ميعاد . وإذا هو يشرب حتى يروى ، وإذا بنت أبي ذؤيب تجد من اللبن مالم تكن تجد من قبل ، وإذا آمنة تستجيب لها . وكيف تأبى عليها ! وقد رأت من حبها للطفل ومن إقبال الطفل عليها ومن إرضاعها له ما رأت ! لقد أصبحت هذه الظئر له أمًا : قالت آمنة : خذيه ولا تُراعي ، فإني لأرجو ألاّ تجدي منه إلا خيراً ، فلقد حملته فما وجدت له ثقلا ، ولقد انتظرته تسعة أشهر فما أحسست مما يحس النساء قليلاً ولا كثيراً . ولولا غاشية الحزن التي غشيتنا بفقد أبيه لكانت هذه الأشهر أسعد ما تظفر به امرأة من دهرها . ولكن الحوادث تحدُث والخطوب تلمّ ، والآمال تنقطع وقد كان يرجى أن تتصل ، والسحب تتراكم فتحجب ضوء الشمس . ولقد

وضعت هذا الصبيّ ، فما عرف صاحباتى علىّ وعليه شيئاً مما تعوّدن أن يعرفن على الأمهات والولدان ؛ وإنك لتنكرين يا ظئر لو تسمعين . قالت حليمة : وماذا أسمع ؟ وماذا أنكر ؟ قالت آمنة : لم أكن تلك الليلة فى دار من دور قريش ، وإنما كنت فى مكان لم يألفه الناس : كنت فى بحر من النور كله رحمة وبرٌّ ورضوان . ومالك لا تنكرين هذا يا ظئر وقد أنكرتهُ وأنكرته صواحبى ! ومالك لا تعجبين يا ظئر وقد عجبتُ وعجِبتْ صواحبى وعجب جدّه الشيخ ؛ سلى حاضنته هذه تنبئك بما رأت وما سمعت ، سلى من شئت من نساء بنى هاشم ورجالهم تعلمى أن لابنى هذا اليتيم شأناً ليس لغيره من أبناء الأغنياء وأهل اليسار ، لا تراعى يا ظئر ، فإنك تحملين وليداً كريماً لأب كريم وجدّ كريم ، ثم انهلّت من عينيها دموع غِزار وقالت فى صوت يقطعه البكاء : لا تيأسى يا ظئر ، فإن معروفنا على قلّته سيصل إليك ، ورب قليل خير من كثير . قالت حليمة : وقد رق قلبها ، وجادت عينها ببعض الدمع على غير عادة الأعرابيات ، لا بأس عليك يا ابنة وهب ، فإنى والله ما استطعت صبراً عن هذا الصبىّ منذ رأيته . وإنى والله ما أدرى ما الذى عطفنى عليه حتى رجعت إليك آخذه منك ، وقد كنت أستطيع القفول ، وقد كنت أستطيع المكث فى بلدكم هذا يوماً أو أياماً ، فالأطفال يولدون ، وسراة قريش فى حاجة إلى المراضع كل يوم ، ولكنه والله أمر يُراد . وانصرفت حليمة بابنها الجديد راضية مسرورة ، قانعة بما زوّدتها به آمنة من البر والمعروف ، حتى إذا انتهت إلى زوجها الأعرابى

لقيها باسم الثغر ، مشرق الوجه ، سعيداً ألا تعود إليه صفر اليدين . ولم يكد ينظر إلى الطفل حتى انطلق لسانه ، وإذا هو يقول لامرأته : إيه يا ابنة أبي ذؤيب ! ما رأيت كاليوم وجها مشرقاً يفيض منه البشر . إنى والله لأرجو أن يكون لنا من هذا الغلام خير . وينهض الأعرابى إلى شارفه يلتمس فى ضرعها الجاف قطرات من لبن يبلّ بها ظمأ امرأته ، وينقع بها بعض غُلّته ، فما أسرع ما يأخذه عجب لا ينقضى حين يرى شارفه حافلة تمنحه من اللبن ما يريد وما تريد امرأته ، وفوق ما يريد وما تريد امرأته ، وينظر الأعرابى فإذا ابنه الأول يجد عند أمه ما يرويه ويرضيه ، وإذا وجهه الكالح المظلم قد أخذ يُشرق ويضىء ، وإذا ابتسامة حلوة ظاهرة قد ارتسمت على ثغره البرىء . وإذ هو يقول لامرأته : تعلّمى يا ابنة أبى ذؤيب أنك قد حملت نسمة مباركة !

وتنهض الظئر إلى أتانها فتركبها وتضع الرضيع بين يديها . وينهض الأعرابى إلى شارفه فيمتطيها ويرميان بنفسهما فى الطريق يلتمسان الركب من بنى سعد ، والركب بعيد قد دُفع به فى طريق طويلة نائية . ولكن الأعرابية تجد من أتانها نشاطاً وحدة . ولكن الأعرابى يجد من شارفه قوة ومرحا . وهما يمضيان وكأنما تطوى لهما الأرض طيًّا . ثم يقول الأعرابى لامرأته : مُدِّى عينيك يابنة أبى ذؤيب ، أترين شيئاً ؟ قالت : إى والله ، إنى لأراهم وإنهم لأدنى من مرمى العين . وما هى إلا أن يبلغ الأعرابى جماعة بنى سعد ، فيعجَب النساء بأم حليمة وقد أدركتهم فى غير جهد ولا كدّ ، والأمَدُ بعيد ،

والطريق شاقة . ويسأل النساء حليمة عن هذا الرضيع الذى تحمله ، فإذا أنبأتهن بنبئه أظهرن لها الرقة والرثاء ، وأضمرن التيه والكبرياء ، ويمضى الركب آخذاً بأطراف الحديث ، وإن حليمة لتسبق أترابها حتى تعييهن ، وإن أترابها ليقلن لها : أهذه أتانك يا ابنة أبى ذؤيب التى أقبلت بك إلى مكة ؟ فتقول : هى والله أتانى ما غيرتها . فيقلن : أرْبَعِي علينا[1] يابنة أبى ذؤيب ، فما رأينا كاليوم مرحاً ولا عدْواً .

ويبلغ الركب ديار بنى سعد ، ويثوب المراضع إلى بيوتهن ويستأنفن حياة أهل البادية فى أرض مجدبة قلّ فيها الرّعى والماء وكثُر فيها البؤس والشقاء ، وغنم حليمة ترعى كما ترعى الغنم ، ولكنها تروح مِلاء حُفلاً لا يظمأ أصحابها ولا يجوعون ، وتروح غنم السعديين مهزولة نحيلة ناضبة ، لا تكاد تبضّ بما يُبل الريق . وهم يقولون لرعاتهم : ويلكم ! ارعوا حيث ترعى غنم ابنة أبى ذؤيب ، فيقول الرعاة : والله إنا لنرعى حيث ترعى ، وإنها والله لا تجد أكثر مما نجد ، ولكنها تروح مِلاء ونروح بغنمنا كما ترون ، لا تُغنى من ظمأ ولا جوع ، فيقولون إن لابنة أبى ذؤيب لشأناً . وتنعَم حليمة وينعم أبناؤها بحياة رضيَّة هادئة ، وينمو رضيعها ويزكو . وتقضى هذه الأسرة عامين راضيين لا تعرف فيهما مشقة ولا جهداً ، ولا تجد فيهما ألماً ولا سقماً ، وإنما هى أيام وليال تَطَّرد ويمضى بعضها فى إثر بعض لا كدر فيها ولا تنغيص . حتى إذا آن للرضيع أن يثوب إلى أمه نظرت

(١) أربعى علينا : أى أرفقى واقتصرى .

حليمة وزوجها فإذا الطفل قد نما وزكا كأحسن ما ينمو الأطفال ويزكون ، لم يكد يتم الثانية وكأنه ابن أربع ، والقوم عليه حِراصٌ . ولكنهم يؤدّونه على ذلك إلى أمه كارهين . ثم تهم حليمة أن ترجع وقد أرضت آمنة وعبد المطلب ، وأرضتها آمنة وعبد المطلب ، ولكنها لا تستطيع فراق الطفل حباً له ، وحَدَباً عليه ، ورغبة فى استبقاء ما وجدت فى اصطحابه من خير ، فتلح على آمنة فى أن تردّه معها إلى البادية ، هناك حيث الهواء النقىّ ، والسماء الصافية ، والحياة الهادئة البريئة ، هناك حيث لا مرض ولا وباء ولا فساد . وتجيبها آمنة إلى ما أرادت وقد آثرت الطفل على نفسها ، وضحّت بلذة الأمومة فى سبيل تنشىء ابنها تنشيئاً صالحاً . وهل عرفت آمنة إلا التضحية ! وتمضى حليمة بالصبى راضية ، وتبقى آمنة فى مكة محزونة . وتنظر بركة إلى حليمة نظرات فيهن الحسد ، وتنظر بركة إلى آمنة نظرات فيهن اللوم .

قلت لمحدثى : فكيف قضى الصبى أيامه بعد ذلك فى البادية ؟ وكم أقام عند ظئره فى ديار بنى سعد ؟ قال : إن لهذا لحديثاً عجباً ! مهما أبلغ من البراعة وقوة البيان فلن أقصّه عليك فى تلك السذاجة الحلوة الأخّاذة ؛ التى كان يقصه فيها مكحول على أهل الشام . فاسمع حديث مكحول فإنّك واجد فيه مثل ما وجدت من اللذة والعظة والعبرة والمتاع . قال مكحول : حدثنى شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بنى عامر ، وهو مِدْرَهُ قومه وسيِّدهم ، شيخ كبير يتوكأ على عصا ، فمثل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قائماً ، ونسبه إلى جَدِّه فقال :

يا ابن عبد المطلب ، إنى أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس ، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء . ألاَ وإنك فوّهت بعظيم ، وإنما كانت الأنبياء والخلفاء فى بيتين من بنى إسرائيل ، وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان فما لك والنبوة ! ولكن لكل قول حقيقة ، فانبئنى بحقيقة قولك وبدء شأنك . قال فأعجب النبى صلى الله عليه وسلم بمسألته . ثم قال : «يا أخا بنى عامر إن لهذا الحديث الذى تسألنى عنه نبأ ومجلساً فاجلس» فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير. فاستقبله النبى صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال : «يا أخا بنى عامر إن حقيقة قولى وبدء شأنى أنى دعوة أبى ابراهيم وبُشْرَى أخى عيسى بن مريم ، وأنى كنت بكر أمى ، وأنها حملت بى كأثقل ما تحمل ، وجعلت تشتكى إلى صواحبها ثقل ما تجد . ثم إن أمى رأت فى المنام أن الذى فى بطنها نور ، قالت : فجعلتُ أتبع بصرى النور والنور يسبق بصرى حتى أضاءت لى مشارق الأرض ومغاربها . ثم إنها ولدتنى فنشأت . فلما أن نشأت بُغِّضت إلىّ أوثان قريش وبُغّض إلىّ الشعر . وكنت مسترضعاً فى بنى ليث بن بكر ، فبينا أنا ذات يوم منتبذ من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان نتقاذف بيننا بالجِلّةِ[1] ، إذ أتانا رهط ثلاثة معهم طَسْت من ذهب ملىء ثلجاً ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هُرّاباً حتى انتهوا إلى شفير

(١) الجلة : البعر

الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا ما أربُكم[١] إلى هذا الغلام فإنه ليس منا ، هذا ابن سيّد قريش وهو مسترضع فينا من غلام يتيم ليس له أب ؟ فماذا يردّ عليكم قتله ؟ وماذا تصيبون من ذلك ؟ ولكن إن كنتم لابدّ قاتليه فاختاروا منّا أيّنا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ، ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم . فلما رأى الصبيان القوم لايُحِيرون إليهم جواباً انطلقوا هُرّاباً مسرعين إلى الحى يُؤْذِنونهم ويستصرخونهم على القوم . فعَمَد أحدهم فأضجعنى على الأرض إضجاعاً لطيفاً . ثم شقّ ما بين مَفْرِق صدرى إلى منتهى عانَتى ، وأنا أنظر إليه لم أجد لذلك مسًّا ، ثم أخرج أحشاء بطنى ، ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها مكانها . ثم قام الثانى منهم فقال لصاحبه : تَنَحَّ فنحّاه عنى . ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه فصَدَعه ، ثم أخرج منه مُضْغَةً سوداء فرمى بها ، ثم قال[٢] بيده يَمْنَةً منه كأنه يتناول شيئاً ، فإذا أنا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبى فامتلأ نوراً ، وذلك نور النبوّة والحكمة ، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهراً . ثم قال الثالث لصاحبه : تَنَحَّ فتنحّى عنى ، فأمَرّ يده ما بين مَفْرِق صدرى إلى منتهى عانتى فالتأم ذلك الشق بإذن الله. ثم أخذ بيدى فأنهضنى من مكانى إنهاضاً لطيفاً ، ثم قال للأول الذى شقّ بطنى : زنه بعشرة من أمته ، فوزنونى بهم فرَجَحتهم . ثم قال : زنه بمائةٍ من

(١) الأرب (بفتح الهمزة والراء وبكسر الهمزة وسكون الراء) : الحاجة

(٢) قال بيده : أهوى بها ، وقال برأسه : هزه . (عن أساس البلاغة)

أمته فوزنونى بهم فرجحتهم . ثم قال : زنه بألف من أمته فوزنونى بهم فرجحتهم فقال : دعوه ، فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم . قال : ثم ضمُّونى إلى صدورهم، وقبلوا رأسى وما بين عينىّ . ثم قالوا : ياحبيب لم ترُعْ إنك لوتدرى مايُراد بك من الخير لقرّتْ عيناك . قال فبينا نحن كذلك إذ أنا بالحىّ قد جاءوا بحَذَافيرهم ، وإذا أمّى — وهى ظئرى — أمام الحى تهتِف بأعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه ! فانكبّوا علىّ فقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، فقالوا : حبذا أنت من ضعيف . ثم قالت ظئرى : يا وحيـداه ! فانـكبوا علىّ فضمُّونى إلى صدورهم وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ ، ثم قالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما أنت بوحيد ، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض . ثم قالت ظئرى : يايتيماه ! أُستُضعفت من بين أصحابك فقُتلت لضعفك ، فانكبّوا علىّ فضمُّونى إلى صدورهم وقبّلوا رأسى وما بين عينىّ وقالوا : حبـذا أنت من يتيم ! ما أ كرمك على الله لو تعلم ماذا يراد بك من الخير : فوصلوا بى إلى شفير الوادى . فلما بَصُرت بى أمى ، وهى ظئرى ، قالت . يا بنى ألا أراك حيًّا بعدُ ! فجاءت حتى انكبّت علىّ وضمّتنى إلى صدرها . فوالذى نفسى بيده إنى لفى حجرها وقد ضمّتنى إليها و إن يدى فى يد بعضهم ،فجعلت ألتفت إليهم وظننت أن القوم يُبصرونهم ، فإذا هم لا يبصرونهم . يقول بعض القوم إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ[1] أوطائف من الجنّ ، فانطلِقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويُداويه . فقلت : ياهذا ، مابى شىء مما تذكر

(١) اللمم (بالتحريك) : طرف من الجنون

إن إرادتى سليمة وفؤادى صحيح ليس بى قَلَبَة[١] . فقال أبى — وهو زوج ظئرى — ألا ترون كلامه كلامَ صحيح ! إنى لأرجو ألاّ يكون بابنى بأس . فاتفقوا على أن يذهبوا بى إلى الكاهن فاحتملونى حتى ذهبوا بى إليه . فلما قصّوا عليه قصتى قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم . فسألنى فاقتصصت عليه أمرى ما بين أوّله وآخره . فلما سمع قولى وثب إلىّ وضمّنى إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه ، فواللاّت والعُزّى لئن تركتموه وأدرك لَيُبدِلَنّ دينكم ولَيُسَفِّهنّ عقولكم وعقول آبائكم ، ولَيخالفنّ أمركم ولَيأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قطُّ . فعَمَدت ظئرى فانتزعتنى من حجره وقالت : لأنت أعْتَه وأجنّ من ابنى هذا ! فلو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك فإنا غير قاتلى هذا الغلام . ثم احتملونى فأدّونى إلى أهلى .. فأصبحت مُفْزَعاً مما فعِل بى ، وأصبح أثر الشق ما بين صدرى إلى منتهى عانتى كأنه الشِّراك[٢] . فذلك حقيقة قولى وبدء شأنى يا أخا بنى عامر .

فقال العامرىّ : أشهد بالله الذى لا إله غيره إن أمرك حق . فأنبئنى بأشياء أسألك عنها . قال : سل عنك — وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يقول للسائل : سَلْ عما شئت وعما بدا لك . فقال للعامرىّ يومئذ : سل عنك لأنها لغة بنى عامر . فكلمه بما علم — فقال له العامرىّ : أخبرنى يا ابن

---

(١) القبلة (بالتحريك) : الألم والعلة .

(٢) الشراك : أحد سيور النعل التى تكون على وجهها .

عبد المطلب مايزيد فى العلم ؟ قال : التعلُّم . قال : فأخبرنى مايدل على العلم ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : السؤال . قال : فأخبرنى ماذا يزيد فى الشرّ ؟ قال : التمادى . قال : فأخبرنى هل ينفع البرّ بعد الفجور ؟ قال : «نعم التوبة تغسل الحوبة[1] ، والحسنات يذهبن السيئات ، وإذا ذكر العبد ربه عند الرخاء أغاثه عند البلاء » . قال العامرىّ : وكيف ذلك ياابن عبد المطلب ؟ قال : « ذلك بأن الله يقول : لاوعزّتى وجلالى لاأجمع لعبدى أمنَيْن ، ولا أجمع له أبداً خوفين إنْ هو خافنى فى الدنيا أمِنَنى يوم أجمع فيه عبادى عندى فى حظيرة القدس فيدوم له أمنه ، ولا أمحقه فيمن أمحق . وإن هو أمننى فى الدنيا خافنى يوم أجمع فيه عبادى لميقات يوم معلوم فيدوم له خوفه » . قال : ياابن عبد المطلب أخبرنى إلامَ تدعو ؟ قال : « أدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وأن تخلع الأنداد ، وتكفر باللات والعزّى ، وتقِرّ بما جاء من الله من كتاب أو رسول ، وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتصوم شهراً من السنة ، وتؤدى زكاة مالك يطهّرك الله بها ويطيّب لك مالك ، وتحج البيت إذا وجدت إليه سبيلا ، وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ، وبالجنة والنار » . قال : ياابن عبد المطلب ، فإذا فعلت ذلك فمالى ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جَزَاء مَنْ تَزَكَّى » قال : يا ابن عبد المطلب ، هل مع هذا من الدنيا شىء فإنه يعجبنى الوطاءة من العيش ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « نعم

(١) الحوبة (بفتح الحاء وضمها) : الأثم .

النصرُ والتمكن فى البلاد » . قال : فأجاب وأناب [١]

قلت لمحدثى : إن هذا النبأ لعجيب . فمنْ لهذا الشيخ العامرىّ بما كان يعلم من أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ؟ قال : كان كثير من هؤلاء العرب يلقون اليهود ويلقون النصارى ، فيعلمون منهم علم الأنبياء ، وينتهون إلى نفور من دينهم القديم فى غير اطمئنان إلى يهودية اليهود ونصرانية النصارى ، فأخرجهم الله بالإسلام من حيرتهم تلك

قلت لمحدثى : فكيف انتهى حديث مكحول إلى أهل الشام ! قال : أما علمت أن شَدّاد بن أوس سكن فلسطين وأنفق شطراً طويلا من حياته فى بيت المقدس يعلّم الناس ويحدّثهم ، وعدَه بذلك النبى نفسُه ، فقد تحدّثوا أنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يجود بنفسه فقال : مالك يا شداد ؟ قال : ضاقت بى الدنيا . فقال : ليس عليك ، إن الشام سيفتح ، وبيت المقدس سيفتح ، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة فيهم إن شاء الله تعالى [٢] .

(١) الطبرى تاريخ جزء ٢ من صفحة ١٢٦ إلى ١٢٨ طبعة القاهرة
(٢) الاصابة جزء ٣ صفحة ١٩٥ طبعة المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ

١٤

البر

ضاقت الدار باليتيم وحاضنته بعد أن أقفرت من أمه آمنة . فضمَّه جدّه الشيخ إليه ، وكان به حفيًا[١] وعليه حريصاً ، يكرمه ويؤثره بالخير ويمنحه من الحنان والود ما كان يفيض به قلبه الكريم ، وكأنه كان قد جمع فى قلبه نصيب ابنه عبد الله من حبه أكثر من ست سنين يزيده وينميه ، حتى إذا ضم الصبيّ إليه أخذ يمنحه هذا الحب ويختصه بهذا الحنان. وأخذ الطفل يحس ذلك وينعَم به ، ويألف جدّه ويطمئن إليه ، بل يطمع فيه ، ويبلغ من الجرأة عليه ما لم يكن يبلغه صغار بنيه وكبارهم . كانوا لا يدنون منه إلا أن يُدنيهم ، ولا يجلسون منه إلا مجلس الإكبار والإجلال ، وكان الطفل يدنو منه متى شاء وينصرف عنه متى أحب . وتبلغ الجرأة به أن يسبقه إلى مجلسه فيجلس فيه ويستأثر من دونه بالفراش ، وكان أعمامه وعماته يرون منه هذا فيحاولون رده عنه وتأديبه بآداب الأسرة ، ولكن الشيخ كان يكفهم عنه ويقول : دعوا ابنى إنه ليُؤنس مُلْكاً .

ولم يكن الشيخ يسميه إلا بهذا الإسم الحلو ، كان إذا تحدث عنه قلما يذكر محمداً أو أحمد إنما كان يقول : جاء ابنى وذهب ابنى . وكان يقول

(١) حفىّ به : معنىٌّ به يسأل عن شؤونه ويكرمه .

لبركة : استوصى بابنى . وكان يقول لأبى طالب : احتفظ بابنى . فليس غريباً أن يلمّ المرض بالشيخ ويثقل عليه فيكتئب اليتيم ويمتلىء قلبه حزناً وألماً . وما يمنعه أن يكتئب وما يمنعه أن يحزن ويألم ، وقد كان يعيش فى ظل جدِّه عيشاً إن لم يكن يسراً كله ودعة كله فقد كان حبًّا كله وحناناً كله ! .

ويصبح الشيخ ذات يوم مثقلاً مكدوداً يحس كأن الحياة تفارقه وكأن الموت يسعى إليه ، فلا يشك فى أن هذا اليوم آخر عهده بالدنيا ، هنالك فكر الشيخ فى هذا الدهر الطويل الذى أنفقه بين الناس جاهداً فى الخير ما استطاع ، باذلاً معروفه ما وسعه البذل ، مطوِّفاً فى أقطار الأرض بتجارته وتجارة قريش ، مقيماً فى مكة بين نسائه وبنيه ، يذهب من داره إلى المسجد ويعود من المسجد إلى داره ، لا يغدو إلا مفكراً فى خير ، ولا يروح إلا مفكراً فى معروف . والناس من حوله ينعَمون ببرّه بهم وعطفه عليهم ، فيحبونه ويؤثرونه ويُصْفونه المودة ويصدقونه الولاء ؛ وفكر الشيخ فى هذه المحن والخطوب التى ألمت به وألحّت عليه فلم تلِن قَنَاتَه ولم تفلل حدّه ، وإنما تركته كما لقيته صلباً جلداً حازماً ماضى العزم ، كأنه الشجرة العظيمة قد ثبت أصلها فى الأرض ، وامتدت أغصانها القوية فى الجو ، فهى مستقرة فى مكانها تختلف عليها العواصف فلا تضطرب ولا تميل . وفكر الشيخ فى ابنه عبد الله كيف كان يحبه ويألفه ويضنّ به على المكروه ، وكيف لم يمنعه هذا الحب من أن يقدِّمه ليؤدِّىَ به ما كان قد فرض على نفسه من النذر ، وكيف جدّ فى ذلك

وجدّ الفتى فى الطاعة والإذعان حتى اقترح عليه الفداء ، وكيف فادى ابنه فغالى فى الفداء ، وكيف اغتبط وابتهج حين قبل الآلهة فداءه وتركوا له ابنه ، ثم كيف أرسله هو إلى الشام ليموت فى يثرب بعد أن اتّجر فأفاد ربحاً كثيراً . نعم ! وفكر الشيخ فى آمنة كيف خطِبت للفتى ، وكيف احتملت فقده كريمة أبيّة . ثم فكر فى هذا الطفل اليتيم وفى هذه الأطوار الغريبة التى أحاطت بمَقْدِمه إلى الأرض ودخوله فى الحياة . فكر فى هذا كله فرضى عن نفسه كما رضى عنه الناس ، وحزن على نفسه كما حزن عليه الناس . وكان واثقاً بأن ما رأى من الأحداث التى لم ير الناس مثلها لم يُرْسَل إليه عبثاً ولم يسلط عليه إلا لأمر يراد . وكان يقدّر أن هذا الأمر الذى يراد إنما يراد بابنه اليتيم . وكان يود لو مُدّت له الحياة فرأى من أمر ابنه ما لم يكن يشك فى أنه واقع محتوم . ولكن الحياة لا تنال بالرغبة ، والموت لا يدفع بالكره ، والأيام لم تُعط للناس عهداً بأن تكون عند ما يريدون . وهل مُدّت أسباب الحياة لعبد الله حتى يرى ابنه وليداً ؟ بل هل مُدّت أسباب الحياة لعبد الله حتى يعلم أنه قد ترك وارثاً ؟ لقد مات وهو يعلم حق العلم أنه لم يُعقب ! ولو قد كشف عنه الحجاب لعلم أنه أعقب لا كما يُعقب الناس . وهل مُدّت أسباب الحياة لآمنة حتى تسعد بابنها اليتيم ! لقد ولدته فاختطفته منها المرضع واحتفظت به زمناً طويلا . ولم تكد الأم تنعَمُ بابنها حتى أقبل الموت فقطع ما بينهما من سبب ، وأبى إلا أن ينقلها إلى جوار زوجها الذى طالما كانت تذكره وتفكر فيه . فَلِمَ تُمَدّ أسباب

الحياة للشيخ وقد أنفق فى الأرض أكثر من مائة سنة ذاق فيها خير الحياة وشرها ، و بلا فيها حلو الحياة ومُرّها ! لِمَ تمدّ له أسباب الحياة وكل شىء من حوله ومن حول الطفل يدل على أن حياة هذا الصبىّ لن تكون كحياة غيره من الصبيان يسيرة مطردة لا عوج فيها ولا التواء ، و إنما ستكون حياة فيها امتحان و بلاء ، وفيها تصفية وتطهير . لقد فقد أباه وفقد أمه ، وهو الآن سيفقد جدّه ، وسيصبح بعد ساعات يتيما حقاً ، وحيداً حقاً ، ليس له من يعطف عليه أو يرقّ له إلا هذه الأمَة التى تحضنه وعمه الذى سيكفله كما يكفل الأعمام أبناء الإخوان .

وكان الشيخ يفكر فى هذا ويحس أنه يزداد ثِقَلا على ثقل ، ويشعر كأنه يفارق ما حوله ومن حوله قليلا قليلا ، لا يتقدّم فى الزمان لحظة حتى يخطو إليه الموت خطوات . وكان الشيخ يحب أن يسمع من أصوات الناس أكثر ما يستطيع أن يسمع قبل أن يغمره الموت فلا تصل إليه الأصوات . وكان أحب الأحاديث إلى الشيخ فى هذه اللحظات القليلة الباقية حديث نفسه . فيدعو بناته ويطلب إليهن أن يبكينه كما يبكى النساء الموتى ، ويلح عليهن فى ذلك ، لأنه يريد أن يسمعهن أو لأنه يريد أن يسمع رثاء نفسه . ولعله لو استطاع أن يرثى نفسه بنفسه لفعل . وهؤلاء بناته من حوله يرفعن أصواتهن نادبات نائحات معدّدات مآثره ومفاخره ، مصورات هذا الحزن العميق الذى كان يسعى حثيثاً إلى قلوبهن كما كان الموت يسعى حثيثاً إلى الشيخ . والصبى قائم من وراء السرير يرى ويسمع ويمتلىء قلبه بما يرى

وما يسمع ، وتنهلّ من عينيه دموع صامتة لعلها لو رآها الشيخ لأرضته .

ولكن الشيخ يسرع إلى الموت أو يسرع إليه الموت ، فهو يسمع بناته ولا يستطيع أن يرد عليهن أو يتحدث إليهن ، فيكتفى بما لابدّ له من أن يكتفى به من الإيماء ، ثم يسرع إلى الموت ويسرع الموت إليه حتى يلتقيا فلا إيماء ولا حراك . قد سكت الشيخ وسكت بناته لحظة ، ثم تمضى حياة الناس فى طريقها ، فيشغَل أهل الشيخ بالشيخ ليقطعوا هذه الأسباب الواهية التى بقيت بينه وبين الأحياء والأشياء ، ليغيبوه فى قبره ، وليفرغوا لشؤونهم ، وليحتفظوا منه بهذه الذكرى التى تملأ القلب كله ، ثم تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تتخذ لها مكاناً ضيّقاً خفيًا تستقرّ فيه ، يحسها الرجل حيناً ويجهلها أحياناً .

والصبىّ محزون كئيب ، يذكر أمّه ويذكر جدّه وينظر إلى حاضنته وينظر إلى عمّه ، ويفوّض أمره بعد هذا إلى الله .

وقد شمِله الله برعاية لا تفترُ ، وكلأه بعناية لا تغفل . فلم يلق من الناس فى طفولته وشبابه شرًّا ولا نكراً ، ولا احتمل منهم ألما ولا مكروهاً . عطف عليه عمّه كما كان يعطف عليه جدّه ، حتى آثره بالمودة واختصه بالبر . ولقى منه عمّه مثل ما كان يلقَى جدّه حبًّا بحب وودًّا بود . وكان أبو طالب رجل مروءة وصدق وحسن بلاء ، ولكنه كان فقيرا كثير العيال ، وكان يجد جهداً عظيما فى إقامة عياله الكثيرين وسَدّ خلّاتهم . فلما ضمّ إليه هذا اليتيم صلح أمره وحُسنت حاله ، ووجد البركة والسعة فيما كان

يتاح له من القليل . كان يكسب لعياله ما يستطيع ، ثم يجمعهم حوله فلا يستطيعون إلا أن يمسوه مسًّا رفيقاً ، ثم ينصرفون وقد استنفدوه وما زالوا جياعاً . فلما ضم الرجل إليه ابن أخيه اليتيم لم يزد ما كان يكسب ، ولكن الله بارك فيه وزكّاه : فكان الرجل يجمع عياله ، ومعهم يتيمه هذا ، حول هذا القليل ، فلا يقومون ، إلا وقد أدركوا مايدفع عنهم ألم الجوع ويُبَلِّغهم الرضى والاطمئنان .

وكذلك أنفق اليتيم طفولته وصباه بين هذين القلبين الرحيمين : قلب عمّه وقلب حاضنته .

ولست أعرف صبياً تأثر بحياة الصبا واحتفظ بحوادثه وذكرياته ما أقام فى هذه الدنيا ووفى للذين بَرّوا به وأحسنوا إليه كهذا الصبىّ . لم يكد يقدِر على البرّ وإسداء المعروف وإظهار شكره للنعمة واعترافه بالجميل حتى ضرب للناس فى ذلك أروع الأمثال وأبلغها تأثيراً فى القلوب .

أرضعته أَمَةٌ لأبى لهب يقال لها ثُوَيْبة أياماً قبل أن تأخذه حليمة . فلما علم ذلك من أمرها حفظ لها هذه النعمة وعرَف لها هذا الجميل . فلم يكد يقدِر على شكرها والبِرّ بها حتى جهد فى ذلك ، وإذا هو يحمل زوجه خديجة على أن تسعى عند أبى لهب فى أن تشترى منه هذه الأَمَة لتعتقها ، فيأبى أبو لهب فيتصل معروف الرضيع بأمّه هذه ما أقام بمكة ، حتى إذا هاجر إلى المدينة لم ينس أمه ولم يهملها ، وإنما أرسل إليها الصِّلات والكسوة من حين إلى حين ، حتى إذا عاد من خَيْبَر وقيل له : إن ثُوَيبة قد ماتت سأل عن

قرابتها لينالهم بما كان ينالها به من المعروف ، فأنبىء بأنها لم تترك أحداً .

وحياة أهل البادية مملوءة بالضنك حافلة بالشقاء ، فانظر إلى حليمة تهبط إلى مكة تستعين بابنها على أثقال الحياة ، فيكلم لها خديجة فتمنحها بعيراً وأربعين شاة . وانظر إليها تستأذن عليه مرة أخرى ، فإذا أدخلت عليه ورآها قال : أمي ! أمي ! ! ثم بسط رداءه فأجلسها عليه ، ثم أدخل يده من دون ثيابها فمس صدرها مسًّا ، ثم قضى حاجتها .

ثم انظر إليه بعد أن عظم وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها ، وقد نصره الله يوم حُنَين على هوازن ، فهزم الجند واحتوى المال وسبى الذرّيّة والنساء ، وقسم الغنائم بين المسلمين ، وإنه بالجِعْرانة[1] صباح يوم وإذا وفدٌ من هوازن يقْبِل عليه مسلماً منبئاً بإسلام مَنْ وراءه من الناس ، وفي هذا الوفد عمه من الرضاعة ، وإذا عمه يتحدّث إليه فيقول : يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عمّاتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضنّاك في حجورنا وأرضعناك بثُدِيِّنا ، ولقد رأيتك مُرْضَعاً فما رأيت مرضَعاً خيرا منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيما خيراً منك ، ثم رأيتك شابًّا فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خِلال الخير ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك ، فامنُنْ علينا مَنّ الله عليك . فيجيبه : لقد استأنَيْتُ بكم حتى ظننت أنكم لا تَقْدُمون ، وقد قسمت السَّبْي وجَرَت فيه السُّهْمان[2]

(١) الجعرانة (بكسر وسكون العين وقد تكسر العين) موضع بين مكة والطائف .
(٢) السهمان : جمع سهم وهو النصيب والحظ .

فما كان منه لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، فإذا صلّيت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين و بالمسلمين إلى رسول الله ، فإنى سأقول لكم : ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وسأطلب لكم إلى الناس ، فلما صلّى الظهر قام الوفد فأتمّ ما أمر به ، ووفى لهم بوعده وشفع لهم عند الناس [١] . فرُدّت عليهم نساؤهم وأبناؤهم لم يأب ذلك إلا نفر من الأعراب اشترى منهم ما كان فى أيديهم من السّبى ورُدّ على أهله .

قلت لمحدثى : فإن هذا الوفاء بليغ التأثير فى النفوس ، وأبلغ منه هذه الحيلة الطاهرة البريئة فى استخلاص السبى من الذين ملكوه ، فيها وفاء ، وفيها ردٌّ للحرية على آلاف من الناس ، وفيها إقرار للأمن والسلم فى قبيلة ضخمة قويّة من العرب ، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والمَوْجِدة والحقد ، وتهيئتها لقبول الإسلام والنصح للمسلمين فى صدق و إخلاص . قال محدثى : نعم ، ولكن له وفاء آخر يملأ القلوب رحمة و يمزّقها لوعة وأسًى ، لأنه وفاء المحب الصادق فى الحب ، العاجز عن النفع ، الذى لا يملك لمن يحب خيراً . قلت : وكيف يجد العجز إلى هذا القلب العظيم سبيلاً ؟ قال : إن لله قدَراً مهما تعظم القلوب فلن تغيّره ولن تبدّله . لقد كان أشد الناس بِراً بأمّه ووفاء لعمّه ، مرّ بقبر أمه عام الحدَيْبية فاستأذن ربه فى أن يزور القبر فأذِن له فزاره وأصلحه ومكث عنده حيناً . ثم استأذن ربه فى أن يستغفر لأمّه فأبى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً كثيباً ، وبكى المسلمون لبكائه ،

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ١ صفحة ٣٢ قسم أول .

وأكثر أتباع المسلمين لا كتائبه . ودخل مكة عام الفتح ظافراً منتصراً . وبينا هو فى بعض مواضعها رأى أصل قبر فعطف عليه وأقام عنده ، واستأذن فى الاستغفار لصاحب القبر فلم يؤذن له ، فانصرف محزوناً كئيباً وبكى فبكى الناس . وما رأى الناس يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم[1] واختلط أمر هذا القبر على الرواة ، فظنوه قبر أمه ، وقبر أمه فى الأبواء . ومن يدرى لعله قبر جدّه الشيخ . وعرَض الإسلام على عمه وألحّ عليه وكاد الرجل أن يقبَل لولا حميّة الجاهليّة . فلما مات قال ابن أخيه : لأستغفرن لك ، فلامه القرآن فى ذلك لوماً عنيفاً .

تبارك الله ! رجل يخرج الله به أمة كاملة من الظلمات إلى النور ، ويفتح لها به أبواب الخير على مصاريعها إلى آخر الدهر ، ثم يأبى الله عليه أن يستغفر لأمّه وعمّه وأن ينقذ أهله الأقربين الذين أدّوه إلى الناس وحَمَوْه حتى أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة[2] !

قلت لمحدثى وماذا تنكر من ذلك وعَدْل الله محتومٌ لا يقبل أخذاً ولا ردّا ، ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة ؟ قال لا أنكر شيئا ، وأعوذ بالله أن أنكر شيئا ، وأنا أعلم أن الله قد تأذّن أنه لا يغفر أن يشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، إنما أرثى للناس الذين يرون الخير فيجتنبوه ، ويرون الشرّ فيتهالكون عليه ، أرثى لهؤلاء الذين يبلغ بهم الضعف وخَوَر النفوس

(١) طبقات ابن سعد صفحة ٧٤ الجزء الأول القسم الأول

(٢) تفسير الطبرى جزء ١١ من صفحة ٣٠ إلى ٣٤ .

أن يظلموا الأبرياء ويعتدوا على الوادعين ليؤثروا أهلهم وقرابتهم بما ليس لهم بحق . ولو قد حاول الناس أن يتأثروا المثل العليا ويتأسّوا بالأسوة الحسنة لكان لهم فى مثل هذه القصة صارفٌ عما يجترحون من السيئات ، ورادع عما يقترفون من الآثام . وهل ترى أبلغ فى تصوير العدل الصارم الحازم الذى لا يقبل هوادة ولا يحتمل رفقاً ، لأنه ليس موضع هوادة ولا رفق ، من هذه الآية الكريمة التى يلام فيها النبى والمسلمون حين استغفروا لمن لا مطمع له فى المغفرة :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أنْ يَستغفِروا للمشركين ولو كانوا أُولى قرْبَى من بعد ما تَبيَّنَ لهم أنّهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيمَ لأبيه إلاَّ عن مَوْعِدَةٍ وَعَدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عَدوٌّ لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليمٌ » .

فهرس

صفحة

الطبعة الثانية سنة ١٩٣٥